حسن كمال

المرحوم

رواية



دار الشروق

المرحوم

حسن كمال

تصميم الغلاف: أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٣/١١٧٠٩
ISBN 978-977-09-3244-5

حسن كمال

المرحوم

دار الشروق

إهداء

إلى كل من فعل فمات.. فعاش إلى الأبد

الصدفة قَدَر!

أحدكم سيقرأ هذه العلامات ليحمل رسالة المرحوم إلى بقية العمر.

إذا أصبحت هذه الأوراق في أيديكم فأنتم ممن عُهد إليهم برسالته علَّ أحدكم يحملها بالروح أو بالجسد، أو بكليهما معًا!

أنا أول من وقعت في يده هذه الأوراق.. كلما انتهيت منها أعود لأقرأها من البداية كما لو كانت لعنة أخرى من سلسلة اللعنات التي أصابتني منذ أن عرفت المرحوم.

لم أجد لها حلا سوى أن أستكملها لينتهي دوري، ثم أتركها لغيري وأرحل مبتعدا لأنني لن أستطيع أن أبقى هنا بعد كل ما جاء فيها.

لن أغير شيئًا في فصوله التي أسماها هو علامات، وسأضيف إليها ما عشته معه حتى تكتمل الرؤية، مع كل يوم سيمر عليَّ بعدها سأحاول أن أفعل مثله؛ أن أنظر إلى الصورة من أعلى.. أتأمل نفسي جيدًا في كل يوم لأتأكد أنني لا زلت حيًّا، أستحق الراحة الأبدية في باطن الأرض.. وسأعمل على تحقيق كافة أمانيَّ في حياتي لكيلا تبقى لي أمنية بعد أخيرة تعيق نزولي إلى الأرض أو صعودي للسماء، فإن بقيَت لي واحدة فإنني أوصيكم بها وبجسدي خيرًا.

محمود سلمان

العلامة الأولى

الوحدة

على الحائط المختفي خلف الثلاجة الكبيرة مكتوب سطور ثلاثة بخط باهت:

> هنا ترقد الأجساد التي ضلّت طريقها إلى باطن الأرض والأرواح التي ضلت طريقها إلى السماء، هؤلاء الذين حُرموا من صفة الرحمة. لا أحد يُطلق عليه المرحوم.. أنا المرحوم الوحيد في هذا المكان.

كعادتي - منذ أن أصبحتْ روحي حرة تتحرك كيفما تشاء - كنت أتجول بها في أرجاء المشرحة. أتأمل ما حولي في هدوء، دُرت دورة كاملة شملت جميع جوانب القاعة الرئيسية المتسعة. النوافذ الضيقة المرتفعة لا تُدخل نورًا من الخارج إلى المكان لكنها تدخل كمًّا كبيرًا من هواء الشتاء. أربع وعشرون منضدة بالتمام.. نصفها عليه أجساد ملقاة في صمت تام.

كان جسدي أنا ـ المرحوم ـ ممددًا على المنضدة المعدنية الباردة في المنتصف تمامًا، وقد اختفى تحت الملاءة البيضاء المليئة بالبقع التي تنبعث منها رائحة الفورمالين النفاذة، في تلك اللحظة تحديدًا كنت أراجع قائمتي التي سأطلبها من الله وملائكته وأنا على باب الجنة.. فهذا هو أكثر ما يغريني بالدخول، ما تشتهي الأنفس.. يأتي ذلك عندي قبل فكرة الجنة سابقة التجهيز، لا مانع من القصور والجنان والأنهار لكنها غير مذكورة في قائمتي، فقائمة الطلبات تشتمل على شقة في واحد من الأدوار الوسطى في بناية مرتفعة ومزدحمة، حولها أرضية مرصوفة بالأسفلت، وصنابير تحمل المياه الحلوة وتنتشر في كل جزء من منزلي، لا أريد جناحين ولست متأكدًا من احتياجي لحور العين، الأكيد هو أنني أريد سيارة فارهة كبيرة تحمل لوحاتها المعدنية أي صفة غير (تحت الطلب) وحلة سوداء أنيقة ونظارة شمسية بنفس اللون مع امرأة بيضاء جميلة ترتدي ملابس سوداء وتُخفي عينيها خلف نظارة داكنة كبيرة، شعرها الأشقر أشعث متناثرٌ في كل اتجاه، وقد احمرَّ وجهها من شدة البكاء فزادها فتنة، تضع رأسها في حضني كل بضع دقائق وتمسح أنفها في سترتي دون أن تترك فيها أثرًا.

أخذت أتفحص الجثث الملقاة على المناضد، بعضها قطعوا يديه أو قدميه وبعضها فتحوا بطنه.. وبعضها فتحوا رأسه واستخرجوا منه مخه، كنت أحاول أن أعرف حكاياتهم من ملامحهم ولكن ذلك كان صعبًا؛ ملامح الأموات وسماتهم تتشابه.. الصمت والسكون والبرودة، أينما وكيفما تضعهم سيوضعون، لن تسمع اعتراضًا ولن ترى حركة واحدة، درت حولهم جميعًا وأنا أقرأ لهم الفاتحة، تفحصت وجوههم واحدًا تلو الآخر في شفقة، لم أجد فائدة في أن أحاول استنباط ما لا

أعرفه عنهم، توقفت طويلًا أمام جسدي.. ليس هذا أفضل ما يُرتدى من أجساد لكنه يؤدي الغرض، على الأقل أعرفه أكثر من الأجساد الأخرى.

تسللت داخلًا فيه بهدوء.. بدأت الحركة تدب فيه، رفعت الملاءة من فوق وجهي.. قمت متثاقلًا من مكاني، حيز رؤيتي أصبح أقل كثيرًا بعد ارتدائي لهذا الجسد وإن كانت الألوان أكثر وضوحًا وزهاء، تبدأ آلام فقراتي القطنية في الظهور كالمعتاد؛ لذلك أحتاج إلى بضع دقائق من التليين قبل أن تهدأ، تمطعت وأنا أتحرك في اتجاه الغرفة الجانبية التي نطلق عليها الاستراحة، أشعلت سيجارة وسحبت منها نفسًا عميقًا، اتجهت نحو السرير.. في الواقع هو ليس سريرًا بالشكل المفهوم.. بل ثلاجة كبيرة مختفية تحت ملاءة زرقاء تعلوها بضع وسائد لتمنحها مظهر السرير، كانت هذه الثلاجة موجودة منذ عشرات الأعوام لكنَّ أحدًا لم يكن يهتم بها.. ربما لأنها الأقدم، دفعت لعامل الصيانة من مالي ثمانين جنيهًا ليجعلها تعمل مرة أخرى، كل الثلاجات هنا تفتح من أعلى وتلقى الجثث في داخلها، بعضها يحتوي على الفورمالين سائلًا ليحفظ الجثث بغير تبريد، الجثث توضع بعضها فوق بعض بغير فواصل، قد تجد رأسًا في ظهر ورأسًا في فرج ورأسًا تحت قدمين، جميلة هذه الرؤية.. الأحياء أيضًا كذلك؛ أما أنا فمنذ ولدت ورأسي متجه إلى الأسفل.. إلى تراب الأرض.

فتحت الثلاجة، أخرجت من داخلها جثتين كانتا على السطح.. سميحة أولًا، تحتها لوحٌ خشبيٌّ يفصلها ويمنع جسدها من ملامسة باقي الأجساد الموجودة في الداخل، يخرب عقلك يا سميحة.. لا زال جسدك رقيقًا وشهيًّا.. الله يرحمك، الثانية لرجل ضخم بعض

الشيء، نظرت في وجهه بتمعن ومسحت مكان الثقوب في منتصف رأسه ورقبته وأنا أغمغم:

- ألف سلامة على سعادتك.

أسندت الجثتين جالستين إلى الحائط وقمت لأعد الشاي وأنا أغني مع الصوت الخارج من جهاز التسجيل الذي أدرته في طريقي:

- ليلة حب حلوة.. من ألف ليلة وليلة..

ناديتهما بصوتٍ عالٍ:

- شايك يا سميحة؟ أنا عارف.. مضبوط.. حالًا، وأنت يا سعادة الباشا؟ شايك بالتأكيد سكر زيادة.

اقتربت من الجثتين اللتين مالتا قليلًا، عدلت من وضعيهما، وضعت أمامهما كوبي الشاي وأنا أبتسم قائلًا:

- تفضلا.

التفتُّ إلى جثة الرجل.. ملت عليه وهمست في أذنه:

- عارف يا أشرف باشا.. سميحة هي حبيبتي، أغلى عندي من كل سكان هذه المشرحة، أنت لو عرفتها كنت ستحبها مثلي تمامًا، لماذا؟ أولًا لأنها عمري، ثانيًا لأنها حلوة وطيبة وكلها سماحة بالفعل.. اسم على مسمى.

التفتُّ إليها في حب وأنا أناديها:

- يا سميحة يا سمحة يا سمحوحة يا قمر.. أنتِ حبيبة المرحوم.

سكتُّ قليلًا، أخذت رشفة من كوب الشاي، رفعت رأسي إلى

سقف المشرحة مبتسمًا، التفت إليه فجأة لأجيب عن التساؤل الذي بدا واضحًا على وجهه:

- لا طبعًا يا باشا اسمي الحقيقي ليس المرحوم.. اعتبره لقبًا، سميحة تعرف الحكاية جيدًا، سمعَتها مني عشرات المرات، اسمي عبد الحي وشهرتي المرحوم، وطلبة الكلية الأغبياء منذ فترة قريبة أضافوا لي اسمًا جديدًا؛ أصبحوا ينادونني عبده سمكة.. كل اسم له حكايته؛ أبي كان لحادًا.. من النوع الشريف، صدقني يا باشا عشرون عامًا قضيتها معه لم أره يومًا يفتح مقبرة بعد أن أُغلقت كما يفعل الآخرون، لم تغادر منطقته طيلة حياته جثة ولا جزء من جثة ولا حتى عظمة واحدة، من يريد جثة ميت؟ كثيرون.. سماسرة الجثث، الدجالون، تجار المخدرات. نبَّاشو القبور بالمئات، حرفة تدر آلاف الجنيهات على رجال يكسبون الملاليم، أبي لم يكن ممن يفعلون ذلك، عندما أفكر فيه الآن أراه بطلًا، علمني أحسن تعليم، كان يشتري الكتب القديمة ويطلب مني أن أقرأ عليه.. الله يرحمه، طقوسه لم يعرفها أحد سواي، كان يقضي بضع ساعات في الليل إلى جوار كل جثة يدفنها، يتلو عليها القرآن ويدعو لها، كان يقول لي إنَّ ذلك لنجد يومًا منْ يدعو لنا عندما نصبح أمواتًا مثلهم.

ظلت هذه الطقوس ثابتة إلى أن علمه الشيخ صادق الكلب طقوسًا أخرى، أصبح صديقه فجأة.. صداقة الشؤم، تعرفين يا سميحة ما فعله الشيخ صادق بعد أن مات أبي! هذا الذي عاش طيلة عمره يصفه بأنه أخوه، ما علينا، المهم، الشيخ صادق كان يأتي كل ليلة ومعه الجوزة..

يقرآن الفاتحة سويًا أمام المقبرة ثم يبدأ في الرغي بالساعات كما لو كان يحادث صديقًا له، يصف للميت ما يحدث داخل القبر ليؤهله للإجابات الصحيحة مع أنه كان يضلله، أبي كان يكرر وراءه كالببغاء لا سيما عندما يبدأ الحشيش يلعب بعقليهما فيخرج صوتهما كما لو كانا ينشدان:

- اسمع.. أنت ترى الآن رجلين يأتيانك ليسألاك.. لا تخف، قل لهما ربي الله.. ديني الإسلام.. كتابي القرآن.. نبيي محمد عليه الصلاة والسلام، فإن سألاك عن عمرك فيم أفنيته فقل لهما أفنيته في خدمة الإسلام.. لا تفكر، كرر ورائي، وإن سألاك عن شبابك فيم أبليته فأجب أبليته في طاعة الله، لا تذكر البلاوي التي فعلتها.. اجعلها بينك وبين ربنا، ربنا يرحم.. أما هذان فيسجلان فقط، وإن سألاك عن علمك ما عملت به فقل لهما نفعت به الأمة.. الأمة يا أخ وليس أمك، اسمع الكلام، أما إن سألاك عن مالك.. كان يصمت قليلًا وينظر إلى المقبرة، فإن كانت من مقابر الفقراء ضحك بصوت عال وهو يقول: قل لهما أنا مدفون في مقابر الصدقة يا إخوانا أنتم ملائكة وتعرفون ما فيها، وإن كان من الأغنياء كان يصمت طويلًا وهو يفكر ثم يقول:

- قل لهما يا روح أمك ماذا فعلت بمالك، قل لهما إن أموالك ضاعت وإنك تركتها كلها خلفك ليتشاجر عليها الورثة، وإنك ملقى الآن في حفرة من تراب يرقص عليها اثنان من الصعاليك الحفاة الذين كنت تتأفف في حياتك إذا رأيتهما عن بعد.. قم ارقص يا حنفي فيقوم أبي ويرقصان كالمجاذيب فوق المقبرة وهما يرددان:

- ضاعت.. ضاعت.. ضاعت.

إلى أن يسقطا على الأرض وهما يضحكان في جنون، طالما وقفت أراقبهما وأنا أبكي، لا أدري هل كنت أبكي من أجل الرجل الذي دفن تحت الأرض أم من أجل الرجلين المدفونين فوق الأرض، إلا أنني أذكر جيدًا أول مرة رأيتهما فيها بعد أن ناما في مكانهما من كثرة الضحك والحشيش، اقتربت أنا من المقبرة وقبّلت ترابها وقرأت اسم صاحبها وهمست له:

- لا مؤاخذة يا كامل بيه.. صدقني هما لا يقصدان ما قالاه.. مساطيل وغلابة، إذا كان هناك أي شيء كنت تريد أن تفعله قبل أن تموت أنا تحت أمرك، تعال في الحلم أو ابعث لي عفريتك وأنا وحياة أبي النائم على قبرك سأنفذه لك، أنا اسمي الحقيقي عبد الحي.. واسم الشهرة المرحوم.. وأمي اسمها فوزية.

جاءني بعدها كامل بيه في المنام طالبًا مني أن أضع سعف نخل فوق قبره وأن أدفن فوقه علبة سجائر مارلبورو أحمر، آه والله يا باشا.. مارلبورو أحمر، الظاهر الله يرحمه كان صاحب مزاج، نفذت له ما يريد، احتجت إلى أن أدخر من النقود التي كنت آخذها من زوار المقابر أسبوعًا كاملًا لكني نفذت، وجاءني في الحلم بعدها وهو يدخن سجائره في رضا، فقمت سعيدًا لأحكي لأبي ما حدث فضربني مرتين.. أول مرة قال لي إنني أضعت النقود، وفي المرة الثانية أخبرني أنه سأل شيخ الجامع فأخبره أنها رؤيا وأن تدخين الميت في المنام معناه أنه يُشوى في النار، رأيته بعد ذلك هو وصادق يستخرجان العلبة ويخلطان تبغ السجائر بالحشيش وهما يدعوان للرجل بالرحمة الواسعة.

آه.. بمناسبة الرحمة.. لم أخبرك حتى الآن مَن الذي أسماني

المرحوم.. أقول لك يا سيدي؛ الولد سعيد أخو سميحة الله يرحمه ويسامحه.. كنا في العاشرة من العمر تقريبًا، اتفقنا على أن نلتقي بعد المدرسة في الحوش الكبير لنلعب كرة مع فريق من حي آخر، وعندما عدت إلى البيت كانت هناك جنازة على وصول.. نزلت مع أبي لتحضير المقبرة، جاء سعيد بعدها ووقف ينادي عليَّ فأجابته أختي أنني نزلت لتحضير القبر، فانطلق يجري إلى هناك وعندما سأله باقي الأولاد عني أجابهم أنني «تحت.. في التربة»، تظاهر أحدهم بالأسى وهو يقول:

- الله يرحمه.

وعندما وصلت إليهم كان التراب يغطيني.. ضحك سعيد وهو يقول:

- المرحوم وصل.. المرحوم وصل.

ضحكوا جميعًا وأنا معهم، من وقتها أطلقوا عليَّ اسم المرحوم، وتكفلت فرحة أختي بنقل الاسم إلى أمي وأبي الذي أعجبه الاسم كثيرًا.. وأصبح الجميع يطلق عليَّ المرحوم.

- ما رأيك يا باشا.. هل يعجبك الاسم؟ سميحة تحبه وأنا بالطبع أحبه، لم أعرف في هذه الحياة شيئًا أجمل ولا أحب إليَّ من الرحمة.. ليتني أكون مرحومًا فعلًا.

العلامة الثانية

الزحــــام

في الصباح يبدأ الأحياء في التوافد واحدًا تلو الآخر ليزدحم المكان، البداية دائمًا ما تكون بباقي صبيان المشرحة؛ ميلاد وخليل اللذان يأتيان قبل السابعة ليساعداني في ترتيب المشرحة قبل توافد الطلبة، كلهم جبناء ومنافقون في نظري، يعيشون على رعاية الموتى لكنهم يخافون من المبيت معهم في مكان واحد، حتى عم عباس كبير العمال.. أصابته الدهشة عندما وافقت ببساطة على المبيت في المشرحة، سألني في حيرة:

- ألن تخاف؟

هززت رأسي نافيًا وعلى وجهي ابتسامة مكسورة، نظر إليَّ صادق في تساؤل.. ابتسم ابتسامة صفراء وهو يقول:

- يخاف من الموتى؟ إنه واحد منهم!

ضحكا في سخافة.. لم أشاركهما الضحك، كنت حزينًا على صديقي الذي مات وعلى سميحة، وكنت مندهشًا لما حدث لي بعد

أن قضيت ليلة كاملة مدفونًا تحت الأرض، اعتبرت أنني عدت من الموت إلى الحياة، تجربة جعلت مني شخصًا آخر، أصبحت أعرف قيمة روحي الحرة وجسدي الحافظ المؤتمن عليها، يومًا ما سأسلم العهدة.. لا أدري لماذا لم أنتقم من صادق بعدها؟ لماذا انتظرت كل هذا الوقت لأفعل فيه مثلما فعل هو فيَّ، رغم علمي بأنه كان يريد قتلي؟ تظاهرت بأنني لا أعرف.. ولماذا وافقت على تلك الوظيفة التي رشحني لها؟ كان يريد أن يبعدني ولا شك.. كان خائفًا مني وكنت خائفًا منه، عقدنا اتفاقًا دون أن نتكلم، أنا سأرحل وهو سيصمت والمقبرة ستغلق على من فيها، لم نكن نحتاج إلى شهادات وفاة أو تصاريح دفن.. وافقت، كنت أريد المال والوظيفة.. الأهم أنني كنت أريد أن أهرب من المقابر، ودَّعني صادق وهو يقول:

ـ لا تغب عنا، نريد أن نراك!

كانت الجملة واضحة تمامًا.. لا يريد أن يراني مرة أخرى، ولا أريد أن أراه، كنت متأكدًا أنه استكثر عليَّ الرقم الذي ذكره عباس وغالبًا فكَّر في أن يطلب مني نسبة، لكنه أراد أن يطوي تلك الصفحة من حياته تمامًا.

لم أعرف حقيقة قدراتي وقتها، تَكَشَّفَتْ لي بمجرد دخولي المشرحة مثل أي رسول تأتيه رسالته على دفعات، ربنا وفقني يا صادق، وسأكون كما تمنيت أن أكون دائمًا وربما أفضل، أصبحت مسئولا عن المكان من السادسة مساء حتى السادسة صباحًا، والثلاثة الآخرون مسئولون عن النصف الآخر من اليوم، لكني في الحقيقة أقوم بكل العمل صباحًا ومساء إلا إذا اضطررت على غير العادة للخروج في النهار الذي أكرهه.

استيقظت في ذلك اليوم على هزات ميلاد لي في فزع، تلفَّتُّ حولي لأجد أني نمت إلى جوار سميحة وأشرف بيه، إلى جوارهما كوبَا الشاي، ضحك ميلاد وهو يقول:

ـ وشربت معهما الشاي يامرحوم؟! قم فز يا عم.. الساعة السادسة والنصف.

قمت بسرعة وأنا أفرك عينيَّ.. سألني ميلاد في سخرية:

ـ زبائن جدد.. أهلًا أهلًا.

نظر إليهما بفضول وهو يسأل:

ـ من أين أتيا؟

هززت كتفي في لامبالاة:

ـ حوادث.. مجهولان.

مد يده يقلبها يمينًا ويسارًا وهو يتابع:

ـ الله يرحمها.. كانت صاروخًا.. خسارة، لو كانت فيها الروح.. كنت...

قطع كلامه كَفِّي الذي هوى على وجهه وأنا أقول غاضبًا:

ـ مائة مرة أقول لك لا تمد يدك على جثة إلا لتنقلها من مكان إلى مكان.. هذه الجثث ليست للعبث.

دفعني ميلاد بعيدًا وهو يقول:

ـ عبث؟ وهل أنا الذي أعبث فيها؟! انتظر حتى تراها وهي ملقاة

على المنضدة وستراهم وهم يفتكون بها من كل ناحية.. عندها ستعرف معنى العبث.

- هذه الجثث لن توضع على أية مناضد.. احملها معي، سنضعها في الثلاجة الكبيرة.

ضحك ميلاد ساخرًا:

- آآآه.. ثلاجة أبيك!! ألم تمتلئ بعد؟ لا أدري ما الذي تفعله يا مرحوم، تختار من الجثث ما تخفيه وما تنزله، ستفتح هذه الثلاجة عاجلًا أو آجلًا، وستجد كل أصدقائك موزعين على الموائد وأنت واقف تنظر إليهم وتبكي.

أخرجت من جيبي خمسين جنيهًا ألقيتها له في لامبالاة قائلًا:

- لا دخل لك.. افعل ما أقوله لك وأنا سأتحمل ما سيحدث.

أخذ ميلاد النقود، دسها في جيبه وهو يقول بصوت مليء بالصدق:

- صدقني يا صاحبي.. أنا خائف عليك، لو الدكتور عمر عرف بموضوع هذه الثلاجة لن يرحمك، قد تجد نفسك في يوم وليلة متهمًا في جناية، هل تتاجر في الجثث يا مرحوم؟

ضحكت ساخرًا منه:

- تعرف كيف تعد؟ إذا وجدت إصبعًا ناقصًا بلغ عني.

هز رأسه في عتاب:

- لم أقصد ذلك.. لكني خائف عليك.

ابتسمت بصبر نافد:

- شكرًا يا سيدي، هيا احمل أنت هذه الجثة وأنا سأحمل الأخرى، بسرعة.. الساعة تقترب من السابعة.

ملت أنا على جثة سميحة.. قبَّلتها ثم همست في أذنها قبل أن أضعها على كتفي:

- تصبحين على خير يا سميحة.

انطلقت ضحكات ميلاد:

- وحياة أمي أنت مجنون.

نظرت إليه ولم أعلق، تحركنا سويًّا واتجهنا إلى الاستراحة، كنت أعرف جيدًا أن أحدًا لن يفكر في الاقتراب أو البحث في هذه الغرفة طالما أن الجثث في القاعة الرئيسية لا تتناقص، أدخلنا الجثتين.. وضعناهما على الأرض إلى جوار الملاءة الزرقاء الكبيرة والوسائد الملقاة منذ الليلة السابقة، فتحت الثلاجة فخرجت من ميلاد صيحة دهشة.

- يخرب بيتك.. الثلاجة مزدحمة بالجثث، لا يوجد فيها مكان لذراع.

أشرت إليه ليصمت.. عدَّلت من وضع الجثث الموجودة لأخلق مساحة ووضعت الجثتين فوقهما، شعرت أنهما سيختنقان.. ميلاد عنده حق، أخرجت جثة لرجل ضخم فتركت وراءها مساحة لا بأس بها.. جررتها بعيدًا وأنا أقول له:

- خذ هذه.. ضعها لهم على المائدة الفارغة.

العلامة الثالثة

الخـــوف

استيقظت فزعًا على صوت حركة في المشرحة، التفت لأجد أمامي شبحًا أسود اللون يقلب في الجثث الملقاة على المناضد، بدا لي كما لو كان يفتش عن جسد ما، جلست أراقبه في دهشة وخوف، قمت من مكاني وتحركت في اتجاهه.. التفت إليَّ فجأة.. خرج صوتي مبحوحًا:

- من؟

مد الشبح يده إلى القماشة السوداء التي تغطي وجهه.. رفَعَتْها فانفجرتُ في الضحك:

- فرحة؟

ضحكت هي أيضًا.. نظرت إليَّ في سعادة:

- وحشتني.

- وأنتِ أيضًا يا فرحة، لماذا ترتدين هكذا.. وما الذي جاء بك الآن.. وما الذي تبحثين عنه؟

جلست على الأرض.. فتحت لفة كبيرة كانت إلى جوارها، أخرجت منها طعامًا وهي تقول:

- أردت أن أطمئن عليك وعلى أصحابك.. ارتديت النقاب لكيلا يعرفني أحد عند خروجي من المقابر.. تعالَ كُلْ.

جلست إلى جوارها.. مددت يدي إلى الطعام في شهية مفتوحة، جلست تراقبني بابتسامة واسعة.. قطعت أنا الصمت:

- كيف حالك وحال المقابر؟

أخرجت من صدرها ورقة مطوية أعطتها لي، قرأت الأسماء الموجودة فيها، لم أعرف أيا منها، طويتها مرة أخرى وأنا أقول:

- لا جديد.. هل تعرفين أحدًا منهم؟

هزت رأسها نافية.. تابعت:

- ربما في الأسبوع القادم يأتينا جديد.. لكن لا تأتِ إلى هنا، أنا سأمر عليكِ ليلًا، ممكن أن يراك أحد وتكون مشكلة.

أجابت في حدة:

- لا أريد أن أعود إلى البيت، أنت وعدتني أنك لن تتركني، لم أعد أطيق العيش هناك.

نظرت إليها في قلق:

- هل ضايقكِ صادق؟

أشاحت بيدها في غضب:

- وهل يفعل صادق شيئًا آخر؟ لم يعد أمامه سواي، يضايقني ليلًا ونهارًا، لا بد أن لديه خطة ليتخلص مني بعدما تخلص منكم جميعًا، لا أريد أن أعيش معه.. أنا خائفة.

سألتها في غضب:

- وأمك؟

مطت شفتيها وهي تقول:

- أمي تعيش في الوهم، تصدق أنه يحبها وأنه رجل لم يخلق مثله، نسيت زوجها الذي مات ونسيت ابنها وبنتها، نحن تقريبًا لا نتحدث سويًا.

تركت الطعام الذي أمامي وقمت من مكاني.. درت في أرجاء المشرحة وأنا أفكر، التفت إليها في رجاء:

- تحملي يا فرحة، أعدك أنني لن أتركك طويلًا، لكني لا أستطيع أن آتي بك إلى هنا، ولا أستطيع أن أترك المشرحة الآن.. تعرفين أنني هنا من أجل مهمة محددة، أشرت إلى الجثث التي من حولي وأنا أقول:

- أنا وأنت يا فرحة أرسلنا الله من أجل هؤلاء الناس.

قامت من مكانها في عصبية.. صرخت في وجهي كما كانت تفعل دائمًا وهي غاضبة:

- أنا لا ربنا أرسلني ولا عندي مهمات.. أنا أريد أن أرحل من الحوش الذي أعيش فيه مع رجل أخاف منه.. أنا أنام خائفة، وقبل دخول الحمام أفتش عن ثقب في الباب قد يراقبني منه،

ولا آكل معهم خوفًا من أن يضع لي شيئًا في الطعام، أوشكت على الجنون.. هل ستتركني إلى أن أجن مثلك؟

نهرتها غاضبًا:

ـ لست مجنونًا يا فرحة.

علا صوتها أكثر:

ـ طبعا مجنون.. سميحة أخذت عقلك معها، وأنا لن أحتمل أكثر من ذلك، سأهرب ولن تجدوني مرة أخرى، لا أنت ولا صادق ولا أمي.

اقتربت منها في لهفة:

ـ لا يا فرحة.. إياكِ، اصبري.. اصبري أسبوعين أو ثلاثة وسآتي لآخذك لنرحل سويًا.

ـ إذا كنت لا تجد مكانًا نذهب إليه.. عُدْ إلى المقابر، سأرتاح إذا كنت معي.. سأشعر بالأمان.

ربَتُّ على كتفها في حنان:

ـ لا أستطيع أن أعود الآن، صادق لن يتركني في حالي، لن يتركني أعيش هناك ولن يتركني أعود إلى هنا، اصبري يا فرحة.

دفعتني بعيدًا وهي تبكي قائلة:

ـ طول عمرك جبان.

هززت رأسي نافيًا في صبر:

ـ لا يا فرحة.. لست جبانًا ولا مجنونًا، أنا مأمور بما لن تفهميه، وأنتِ تساعدينني.. يومًا ما ستعرفين قيمة ما نفعله الآن.

نظرت إليَّ في حسرة، غادرت وهي تبكي، جريت خلفها، لن أتركها تعود وحيدة في مثل هذه الساعة، خرجنا من الكلية وهي لا تلتفت حتى إليَّ، أشرت إلى ميكروباص قفزنا فيه سويًا، كان السائق ينظر إلينا في المرآة، لم تهتم فرحة في طريق العودة بإسدال نقابها مرة أخرى، وصلنا صامتين.. سرت إلى جوارها دون أن أتكلم، قبل مدخل المقابر توقفت، فنظرت هي إليَّ باحتقار ثم قالت بلهجة مليئة بالمرارة:

ـ جبان.

أدرت وجهي بعيدًا، راقبتها وهي تغيب في الظلام، فرحة.. طالما راقبتها وهي تنمو وتكبر وتتحرك أمامي، كانت تحب «سعيد» وكان يحبها.. ذهب سعيد في نفس اليوم الذي ذهبت فيه سميحة، لم يبق سواي، لا بد أنها تكرهني لأنني تركته يذهب وبقيت أنا، ليتها تفهم أنني أحبها أكثر من سعيد ألف مرة، أنا أخوها الذي عاش طوال عمره يخاف عليها.. لا أريد منها ما كان يريده، لا يهمني الجسد ولا حتى الروح، لا يهمني إذا كانت لطيفة أو ثقيلة الظل، نحيفة أو سمينة، عاقلة أو مجنونة.. أحبها لأنها أختي الصغرى، مشكلتها أنها أنانية لا تريد أن تفهم، لا زالت هي حية وتمتلك روحها في جسدها لتدافع عن نفسها، لترفض وتقبل، لتقاتل من أجل ما تريد كما تفعل الآن، أما الباقون.. فلم يعودوا يملكون شيئًا.

استيقظت مبكرًا بعد ليلة كاملة قضيتها وأنا أفكر في المرحوم، كنت أشعر بحماس شديد يشبه حماس الطفولة، سجلت في الدفتر الموجود على «الكومودينو» المجاور لرأسي ملخصًا لما سأكتبه في العدد الجديد.. قررت أن أبدأ بقول أناتول فرانس:

The greatest virtue of man is perhaps curiosity.

ربما يكون الفضول هو أعظم فضائل البشر.

كالعادة؛ البداية ستكون قولا مأثورا لأحد الأدباء العالميين.هكذا أضمن جذب شريحة كبيرة من الطلبة الحاصلين على الثانوية الإنجليزية أو الأمريكية أو حتى المصرية من خريجي مدارس اللغات.هؤلاء يشعرون بألفة أكبر مع الحروف الإنجليزية.. نظرت إلى ما كتبته جيدا.. أدركت على الفور أنه قد يثير بعض الاعتراضات.. وضعت خطا تحت كلمة ربما، سأنشر الموضوع وهذا الخط موجود تحسبا لهجوم متوقع عليَّ وعلى المقولة وكاتبها بخصوص ترتيب الفضائل.. والحوار الذي

قد يدور عن أن بر الوالدين أعظم من الفضول.. وعن تأثري بالحضارة الغربية الفاسدة ومحاولتي للترويج لفكرهم المشوه.هنا ستفيدنا كلمة ربما!! بعد عشرات المقالات والحكايات التي نشرت لي في مجلة الكلية أصبحت أكثر خبرة.. فكما أن هناك من سيقرءون ما أكتبه لأنني بدأته بسطر من الغرب بحثا عن الحكمة الآتية من هناك سيقرؤه آخرون بحثا عن الخطأ الفقهي الموجود فيه ليبدأ الهجوم المعتاد.. نفس السبب مع اختلاف النوايا.. تعليمات عميد الكلية واضحة.. لا يهم أن تفيد المجلة أحدا.المهم ألا تغضب أحدا.. بعد تفكير سريع قررت أن أوضح أن الفضول الذي يقصده فرانس هو ما يعني التفكر عندنا.. بما يعني أن ما قلته هنا لا يخالف معتقداتنا الدينية.. هكذا أضمن ألا أثير غضب «الأسريين» في الكلية وهم كثير.. لا أحب أن أطلق عليهم الإسلاميين كما يفعل العميد ومعظم طلبة الكلية.. أنا أيضا إسلامي.اسمي محمود، أصلي وأصوم وأقرأ القرآن.وأقرأ أيضا كافكا وباولو كويللو وساراماجو وماركيز.. هل يجعلني هذا من اللا إسلاميين؟ لا أظن.. أضفت بضع معلومات سريعة في الهامش عن أناتول فرانس وعن حياته وكتاباته.. كل هذا حشو ضروري قبل الدخول في لُبّ الموضوع.

أضفت سطرين عن شعوري أنا.. مفادهما أنني أظن أن ما يقود حماسنا في طفولتنا هو الفضول.. الرغبة في اكتشاف المجهول. شعورك أنك ستفعل غدًا ما لم تفعله من قبل، في طفولتنا هناك العشرات من الأشياء الجديدة.. كلما كبرنا قلت هذه الأشياء وبقي لنا المكرر فقط، عندها نفقد الحماس ونتحول إلى كائنات آلية مبرمجة.

نظرت إلى هذه المقدمة اللطيفة وابتسمت برضا.. أنا متحمس

تمامًا للقاء المرحوم، كيف لم أفكر في أن أنشر حوارًا مع عامل المشرحة طوال كل هذه السنوات؟ لا بأس الفرصة جيدة، عامل متعلم ومثقف ويعرف رواية «العجوز والبحر»، حكاية جذابة.. قد يكون كاذبًا وسمع جزءًا من كلامي عن الرواية بنى عليه قصته، قد لا يكون متعلمًا ولا مثقفًا لكن الأمر كله صدفة . لا يهم، خيالٌ جامح وشخص يريد أن يظهر بصورة خارقة لأنه في الأصل لا شيء.

كل مواضيعي السابقة التي جعلتني نجمًا لامعًا في الكلية ـ بل وربما في الجامعة ـ كانت عن شخصيات أقل تميزًا من هذا الشاب؛ الساعي الذي يجلس أمام مكتب عميد الكلية.. كيف أو لماذا أصبح أساتذة الكلية يتعاملون معه دائمًا بصداقة وود، باختصار ينافقونه رغم أنه لا يملك من العميد شيئًا، عاملة المستشفى التي ربت ثلاثة أطباء تزوجوا بعد ذلك ثلاث ممرضات ولماذا كانت تعارض زواجهم من ممرضات رغم أنها عاشت طوال عمرها تقول لهم إن الشغل ليس عيبًا، وإن عليهم أن يفخروا بأمهم العاملة. عم طه الذي يعتبر الكشك الخاص به من علامات الكلية.. والذي شهد بعينيه أشهر قصص الحب والزواج والطلاق أحيانًا في تاريخ الكلية، «الأبلة» عنايات موظفة الشئون الإدارية.. والتي تستحق دخول موسوعة «جينيس» لأنها أكثر موظفة تعمل «جمعيات» في العالم، تحمل ورقة صغيرة في صدرها فيها أسماء كل من معها في جمعياتها وتاريخ قبض كل واحد ومَن مِن طرف مَن، في البداية كانت تعملها لأنها كانت تحتاج إليها، بعد ذلك عرفت طريق الإدمان إلى أن وصلت إلى عمل أربع عشرة جمعية في آنٍ واحد. كل الناس أحبوا هذه القصص، كنت أختار شخصياتي بعناية.. البساطة والطرافة ووجود شيء مختلف يمكن

أن نتكلم عنه، كنت أعصر ذهني أياما طويلة إلى أن أجد الشخصية الجديدة، هذه المرة جاءتني القصة وحدها.. الحقيقة أنني تفاءلت، دائمًا تأتي الصدفة بأفضل ألف مرة مما يأتي به الترتيب.

أعددت كل ما سأحتاج إليه؛ أوراقي وأقلامي.. آلة التصوير وجهاز التسجيل، ضحكت عندما ألح عليَّ هاجس أنني عندما أسجل صوته وألتقط له صورًا سأعود إلى المنزل لأكتشف أنه شبح بلا صوت ولا صورة، فكرة رأيتها في واحد من الأفلام.. ربما تتحقق، لو تحققت ستكون تجربة تحتمل كتابًا في حد ذاتها.

اللطيف في الأمر أن لقائي به جاء بعد أن أنهيت تقريبًا دراستي في الكلية. لم تعد عندي مشكلة في الوقت. بقيت لي بضعة امتحانات تكميلية. المواد الأساسية التي درسناها في السنوات الأولى نراجعها ونحضر فيها دورات قصيرة تتلوها اختبارات استعدادًا للمعارك الكبرى بعد التخرج على حد قول الأساتذة. كل شيء صوري.. لا معيد يتكلم ولا طالب يسمع.. نحن في إجازة مقيدة نذهب إلى الكلية لنتحاور ونمزح، نسترجع ذكريات السنوات الأولى عندما انبهرنا بالمشرحة والمعامل وأيضًا لأجمع قصصًا جديدة. رغم أنني سأتخرج إلا أنني سأظل أحرر صفحتي في مجلة الكلية، نجحت فيها ولن أتركها إلى أن تأتي الفرصة الكبرى.

تجولت بلا هدف في أنحاء البيت.. لا أحبه، مساحته الكبيرة جعلتني أطلب من أهلي ألف مرة أن يسمحوا لي بشراء شقة صغيرة طالما أنهم سيظلون يعملون في الخليج إلى ما لا نهاية. أختي الوحيدة تزوجت وسافرت هي أيضًا منذ عام واحد فازدادت وحشتي وراحتي في البيت.

أبي يقول إن هذا العام هو آخر عام من الغربة منذ أن وعيت أنا على الدنيا، حاول أن ينقل حياتنا إلى هناك لكنني عدت أنا وأختي لدخول الجامعة في مصر، يريدني أن أنهي هذا العام وأذهب لأعمل هناك معه.. لا أريد أن أفعل مثله، لن يعود حيًّا.. أعرف ذلك، لم يعد أي من أصدقائه إلا مفصولًا أو مصندقًا.. الغالبية لم تعد على الإطلاق. الحياة هناك أجمل وأنظف وأكثر أناقة لكنها أيضًا أكثر جفافًا وقسوة، دائمًا ما كنت أعامل على أنني من الدرجة الثانية.. المصري الوافد، لم تشفع لي كل سنوات الدراسة، ظللت دائمًا أنا الوافد مع أبيه من أجل المال، الآن أعرف أن المال ليس هو العامل الوحيد الذي يجعل أبي وأصدقاءه يذهبون.

منذ عودتي من هناك وأنا أشعر بشيء من الغربة والغرابة في مصر، فأنا لا أتكلم ولا أتحرك ولا أمزح مثل أصدقائي، هناك شيء ما تغيره الغربة في تركيبة الأطفال المصريين.. رأيتها فيهم جميعًا. مع الوقت اعتدت الحياة في مصر واعتادتني، لكن لم يفارقني شعور الغربة بمرور الأيام.. على العكس.. يتزايد، من حسن حظي أنني أشغل وقتي بالكتابة لمجلة الكلية لكنها لا تكفي، أرسلت مقالاتي وقصصي إلى عشرات الجرائد لكن لا شيء، أعتقد أن بدايتي ستكون من هنا.. من المرحوم، لا أدري ما الذي سأصيغه بعد لقائي معه، قد يكون قصة أو رواية أو تحقيقًا صحفيًا.. أو حتى مقالًا، لكنه مادة مختلفة حتى إذا لم آخذ منه موضوعًا.. الحكاية تستحق.

نزلت من بيتي نشيطًا مثل كل صباح رغم أنني عدت متأخرًا بالأمس، فكان دوري أن أركن سيارتي إلى جوار الصندوق المعدني المفتوح.. والذي تخرج منه عشرات الأسلاك، آخر من يصل إلى

الشارع يركن إلى جواره وينزل بحرص لكيلا يلمس أحدها وهو لا يعرف ما سيفعل فيه، أو يفعل مثلي ويعكس اتجاه السيارة ليصبح بابه بعيدًا عن الأسلاك، إذا كان هذا يحدث هنا في الدقي.. كيف الحال إذن في كفر «أبو حطب»؟! أول مرة رأيته فيها أبلغت عنه شركة الكهرباء، أجابوني أنه يخص شركة التليفونات، اتصلت بشركة التليفونات فأخبروني أن يخص شركة الكهرباء، مع الوقت اعتدته كما اعتدت أشياء أخرى كثيرة، المهم أن تبتعد عنه لكيلا يؤذيك، لا مشكلة في أنه يبدو خطرًا.. خطورته تبدأ عندما يقتل أحدًا، كان التأقلم في البداية صعبًا لكني تأقلمت، أصبحت أقول مثلما علموني:

ـ مصر!!

كان الجو غائمًا والشتاء شديد البرودة هذا العام ـ غير كل سنة ـ كما يقول كل الكبار الذين أعرفهم كل عام منذ أتيت إلى مصر، صدقتهم أول سنة فقط، بعدها عرفت أن هذه الجملة موروثة مثل الأمثال الشعبية ومثل المزاح المصري المزمن.

وصلت إلى الكلية مبكرًا.. وجدت المرحوم جالسًا على السلالم أمام باب المشرحة، قام واقفًا عندما رآني وابتسم في ود، أول تعليق كتبته في أوراقي أنه كان يبدو سعيدًا ومرحبًا أكثر من المعتاد، تفهمت الأمر جيدًا.. فأنا طالما عانيت من الوحدة وأنا أملك أهلًا وجيرانًا وأصدقاء، كما قلت الغربة لها ثمن. ضحكت ساخرا وهو يستقبلني كما لو كنت أزوره في بيته:

ـ أهلًا أهلًا.. نورت.

أشرت إليه ليتبعني إلى مطعم الكلية.. كان المكان خاويا تقريبا في تلك الساعة من الصباح، عرضت عليه إفطارًا فرفض، طلبت له كوبًا من الشاي وأخذت أنا قهوة الصباح، قمت لاستلامهما بنفسي طبقا للنظام المعتاد. عدت إلى المائدة على مهل وأنا أتفحصه جيدا، اعترفت لنفسي أن هناك شيئًا ما في شخصيته وملامحه وطريقة كلامه كان جذابًا بالنسبة لي أكثر من المتوقع، أرحت ظهري على الكرسي ضغطت على زر جهاز التسجيل وأنا أقول له:

ـ احكِ لي يا مرحوم.

نظر إليَّ في سعادة وهو يشير إلى «الكاميرا» التي أضعها أمامي على المائدة:

ـ وستأخذ لي صورة؟

ابتسمت في شفقة، أوقفت التسجيل وأخرجتها من جرابها.. التقطت له عدة صور عشوائية متتالية؛ واحدة وهو ينظر إلى أعلى والأخرى وهو يخفي وجهه بين كفيه وثالثة وهو يأخذ رشفة من كوب الشاي وأخرى وهو ينظر فيه محاولًا استبيان ما تبقى، تأملت الصور في شاشة الكاميرا، كان يبدو طيبًا وإن كان عجيب الملامح؛ قامته القصيرة وأسنانه البارزة المتباعدة المصفرة مع النظارة الطبية الصغيرة التي يلبسها، أبرز ما فيه نظرته الحادة، عيناه دائمًا فيهما درجة من الضيق كما لو كان ينظر مباشرة في اتجاه الشمس، تدوران طوال الوقت في المكان كما لو كان يبحث عن شيء ما، قمحي اللون يميل إلى السمرة، شعره القصير المجعد ممتد ليغطي جزءا لا بأس به من جبهته، كل هذا يمكن أن يظهر في صوره، ما لن يظهر ومن المهم

أن أذكره أنه كان نفاذ الرائحة.. نفس رائحة المشرحة، ليست رائحة كريهة لكنها مميزة، ربما مثل روائح المطهرات التي ترتبط في عقل الكثيرين بالمستشفيات لكن رائحة المشرحة كانت دائمًا أكثر نفاذًا وأكثر حدة وأكثر غموضًا بالنسبة لي، كنت أظنها رائحة الموتى.. لكن على ما يبدو أنها رائحة المكان وما ينبع منه، ملابسه عبارة عن «تي شيرت» أحمر باهت وبنطلون «جينز» أسود.. نفس ما كان يلبس بالأمس، تخلى فقط عن المعطف الأبيض المهترئ الذي يرتديه في المشرحة، لا بد أنه موروث من واحد من الطلبة، ليس من السهل أن تحكم على نظافته لمجرد كثرة البقع المنتشرة على ملابسه.. قد تكون مصادفة، وقد تكون من ضرورات العمل.

أريته الصور واحدة تلو الأخرى، لدهشتي صمت تماما وهو يتفحصها في دقة، كان يميل رأسه يمينا ويسارا ويقربها ثم يبعدها عن الكاميرا، بدا لي كما لو كان يرى نفسه لأول مرة، كانت هذه أولى بشارات الجنون، ظننته سيظل هكذا إلى الأبد أو سيسألني عن الشخص الموجود في الصورة، لأجيبه: أنت؛ فيحطم الكاميرا على رأسي، لزمت الصمت تماما في ترقب وقلق، لحسن الحظ تكلم بعد برهة، فهز رأسه في استحسان وهو يقول:

- هذا أنا.. يااااه والله زمان؟

واصل هز رأسه عدة مرات ثم انفجر مقهقها وهو يشير إلى الصور ضاحكا:

- انظر إلى هذه الابتسامة، والله حلوة.. لماذا تنظر في السماء؟ بص هنا.. يا طفس عينك خرمت كوب الشاي!!

جلست أراقبه في حيرة، في تلك اللحظة تحديدا أذكر جيدا أنني أردت أن أغادر ، لكنني لم أفعل، غالبا لأنه كان يمسك بالكاميرا. ولم أغادر بعد أن أعطاني الكاميرا لأنه قرأ على وجهي شيئا جعله يعاجلني معتذرا:

- لا مؤاخذة يادكتور.. سنين لم آخذ صورة واحدة، ولم أفكر أبدا كيف أصبحت أبدو في الصور، لهذا سرحت.. لا تقلق مني، أنا فقط محدث تصوير!!

انقلب قلقي في لحظة إلى شفقة من جديد، كان يتحدث بهدوء شديد وهو يقول لي ما أردت أن أسمعه: أنا لست مجنونا لكن عندي أسبابي لأني مسكين ولم أجد من يأخذ لي صورا من قبل، عذر بدا لي مقبولا، ابتسمت وضغطت زر التسجيل مرة أخرى وأنا أقول:

- براءة ياسيدي.نبدأ الحكاية.

أشار لي بالصبر وهو يقول بنفس لهجته الهادئة:

- أنا فقط لي طلب واحد عندك يا دكتور.

نظرت إليه في تساؤل.

ابتسم وهو يقول:

- ألا تنشر شيئا في مجلة الكلية إلا بعد أن تخبرني!!

بادلته الابتسامة:

- أنت تعرف أنني سأكتب عنك؟

هز رأسه مؤكدًا:

- عندي مقالاتك.. (حكايات من هنا).

ابتسمت وأنا أقول:

- أنت خطير يا مرحوم.

هز كتفيه في لامبالاة وهو يقول:

- لا خطير ولا حاجة، صورتك منورة في المجلة.. وحكاياتك جذابة، وأنا قلت لك إني أحب القراءة، وطبعًا عندما وافقت على لقاء اليوم عرفت أنك تريد أن تنشر شيئًا عني، وأنا موافق لكن بشرط الميعاد.

نظرت إليه في بساطة وأنا أقوم من مكاني:

- بص يا مرحوم.. الموضوع لا يحتاج لشروط، أنت طلبت مني أن آتي وقد أتيت، وسأسمع منك لكني لست محتاجًا لحكايتك والحقيقة أنني لم أكن أنوي نشرها، وإذا كان على الكاميرا لو أنك راقبتني ستجد أنني أحملها معي دائمًا، أنت لست عبد الحليم حافظ!!

أدهشتني ثقته وهو يقول:

- ستنشرها يا دكتور.. ستنشرها وستكون أهم حكاية في كل الحكايات التي كتبتها، لكن من فضلك انشرها بعد أن تسمع مني القصة كاملة لكيلا تفسدها عليَّ وعلى نفسك.

لم أجد ما أقوله له.. كنت أريد أن أغادر لكن الفكرة كانت قد

بدأت تسيطر عليَّ تمامًا، هناك عالم آخر يجلس أمامي، رغم نيتي في أن أنصت إليه حتى النهاية لم أتقبل فكرة أن يُملي هذا الشخص شروطه عليَّ، لذلك قلت له في حدة:

- بدون شروط.. أنت تحكي وأنا أحدد ما سأفعله، أنا حتى هذه اللحظة لم أقرر إذا ما كنت سأكتب شيئًا عنك أم لا، لا تضيع وقتي يا مرحوم.. قل ما تريد ودعني أفعل ما أريد.

بدا عليه التفكير العميق، تشاغل بميدالية المفاتيح الملقاة على المائدة، بدأ يتكلم في صوت عميق كما لو كان يتذكر، كأنه يتحدث مع نفسه لا معي أنا، المدهش أنني شعرت أنه يسترجع كلامًا قاله عشرات المرات كما لو كانت أسطوانة يحفظها، أدرت جهاز التسجيل.. بدأت أكتب نقاطًا صغيرة للتعليق.

- ماذا أريد أن أحكي لك يا دكتور محمود؟ من أين أبدأ.. من الأول أم من الآخر؟ سأبدأ من المنتصف، هذا سيجعل الحكاية أكثر تشويقًا لك وللجميع، نحن الآن على ما أعتقد في المنتصف.. وأنا دائمًا في المنتصف، أنا روحٌ معلقةٌ في منتصف الطريق بين الأرض والسماء، وجسدٌ محشورٌ في وسط الطريق بين سطح الأرض وبطنها، كل شيء يؤكد لي ذلك.. أنا عالق في المنتصف. اسمي عبد الحي وكنيتي المرحوم، أعيش وأتحرك كالأحياء في عالم الموتى من أول يوم في عمري، لم أستطع أن أتحرر منه، ذهبت إلى المدرسة لتتغير حياتي، كنت أذاكر أكثر من كل زملائي، قرأت كل الكتب التي وجدتها أمامي.. القراءة في المقابر ضخ للحياة التي ذهبت، متعة أفضل كثيرًا من مراقبة رجال نصف أموات

وهم يرقصون على مقابر لا تزال طرية، أصبح كل المدرسين في المدرسة يعلنون أن المرحوم هو أفضل طلبة المدرسة على مدى عشرات السنوات، تنبأ الجميع بأنني سأكون طبيبًا وتمنى أبي أن يراني ضابطًا. لكنني لم أرغب في ذلك.. كنت أريد أن أبتعد تمامًا عن لعبة الحياة والموت، لا أريد أن أكون طبيبًا ولا ضابطًا، لا أريد أن أجد نفسي مسئولًا يومًا عن إنقاذ جسد يموت أو عن طلقة أقتل بها عدوًا ولا لصًا، أريد أن أحيا ولا أتعامل إلا مع الحياة.

قاطعته في هدوء:

- هؤلاء يصنعون الحياة يا مرحوم. إذا اختفى الضابط والطبيب لن يختفي الموت بل سيزيد.

تابع دون أن يرفع رأسه إليّ:

- للحظات داعبني الغرور وجعلني أفكر في أن أصبح طبيبًا للولادة.. رابط الحياة، لكن النساء يمتن بحملهن وولادتهن أحيانًا، سميحة ماتت بيد طبيب وعلى يد آخر، ألا يُثبت لك ذلك أنني كنت على حق؟ لم أكن أريد أن أرى الموت إلا في المرآة وأنا ميت، لذلك قررت أن أكون مدرسًا، لم أسمع من قبل عن مدرس قابل الموت في عمله، أعلم أنني محظوظ وقد يموت على يدي عشرات الطلبة لكن على الأقل سأكون قد حاولت الابتعاد قدر الإمكان، كما أن المدرس يتعامل مع غرف مليئة بالأحياء.. أصوات وضحك ومشاجرات وغناء وضرب وبكاء من نوع آخر غير الذي أعرفه أنا، أصبح التعليم بالنسبة لي هو الأمل الوحيد والأخير، كنت أمسك بكتبي طوال الوقت طالما أنه لا يوجد لدينا دفنات جديدة، ألتهمها

التهامًا، وكنت أطلب من كل المدرسين الذين أحبوني أن يحضروا لي كتبًا أقرؤها، هل تريد أسماء الكتب؟ كل من قرأت لهم أصبحوا من الأموات الآن، أسماء الأموات لا تهم.. لا أحد يخلد.. ولا أحد يريد أن يخلد، أي عذاب ستشعر به عندما تصبح عالقًا إلى الأبد في هذه الحياة، حتى إذا كنت تحبها سيقتلك الملل.. عذاب ألَّا يوجد جديد لتفعله في الأيام القادمة.. عذاب الأيام المتشابهة التي تتكرر كما لو كانت ذنبًا عليك، لا يفوق هذا العذاب سوى عذاب أن ترحل دون أن تؤدي شيئًا كنت تريد أن تفعله بشدة، أن ترحل بعد أن عشت أعوامًا تتساءل هل كان يمكن أن تفعله أم لا، ستجد الإجابة دائمًا أنك لا تعرف.. ولن تعرف، وسيظل عذابك نابعًا من التساؤل الذي لازمك إلى أن قتلك، لا أعرف إذا كنت تعلمت هذا من الحياة أم من الكتب. نظرت إليه في دهشة.. كان يتحدث عن نفس الفكرة التي كنت أكتبها في الصباح.. الحماس الذي نفقده عندما لا يوجد لدينا الجديد.. أضاف إليها بعدًا آخر.. البحث عما لم تفعله في حياتك نتيجة التردد.

ابتسم ساخرًا وهو يقول:

- لا تنظر لي بدهشة فأنا قارئ جيد مثلك. هل تريد أن ترى مكتبتي؟ عندي مكتبة ضخمة كلها هناك تحت الأرض.. كنت ألِفُّ كل كتاب أقرؤه في كيس بلاستيكي وأدفنه إلى أن أحتاجه مرة أخرى، لا مكان لمكتبة في الحوش ولا أستطيع أن أخاطر بفقدان مثل تلك الثروة، تعال معي إلى هناك وسأريك، مكتبتي أكبر من أي مكتبة تعرفها، خططتها على الأرض وعلمت كل قسم منها بعلامة

مختلفة؛ كتب الدين.. كتب السياسة.. كتب الأدب، وكتب قلة الأدب أحرقتها جميعًا.. أتعبتني وشغلت عقلي لسنوات هذه الأجساد العارية؛ كانت تغريني في الصور أكثر من كل الأجساد العارية التي كانت تقع تحت يدي ميتة، ليس في الأكفان فقط بل أثناء الغسل، الوظائف مترابطة في المقابر.. قد تضطر إلى أن تؤدي دور الحانوتي والمغسل والتربي والمقرئ في يوم واحد.. المهم أن تؤدي كل الأدوار بسرعة وجودة وكفاءة.

قاطعته مرة أخرى:

- كيف كنت تضع علامات لكتبك فوق الأرض؟

هز كتفيه في لا مبالاة:

- شواهد قبور خشبية.. مثل التي نراها في الأفلام الأجنبية. لا بد أنني سآخذك لتراها كاملةً يومًا ما، هي ما جعلتني أفضل من الجميع، وهي ما بقيت لي بعد أن عجزت عن دخول الجامعة، لم يكن ذلك بيدي.. كاد أبي يرقص فرحًا عندما جاء ترتيبي الأول في الابتدائية، وأعلن بوضوح أنه سيفعل كل شيء ممكن لأستكمل تعليمي الجامعي بعد أن جاء ترتيبي الأول في الإعدادية، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا واحدًا.. أن يظل حيا، كالعادة كان لا بد أن أعلق. مات أبي وأنا في انتظار نتيجتي في الثانوية، تصدق أنني لم أعرف مجموعي فيها حتى الآن؟ لم أهتم، أو ربما لم أرد أن أزيد من حسرتي، كان لا بد أن نأكل ونشرب ونعيش.. لا يمكن لأمي أن تضحي وتقوم هي بعمل الأب لأستكمل تعليمي، لن تنجح فكرة عملها كلحّادة وهي

لن تحاول أن تعمل عملًا آخر، حتى إذا حاولت كان لا بد لأي لحّاد يأتي أن يسكن مكاننا في الحوش أو حتى في حوش آخر لكننا ستتحول إلى مستأجرين بغير دخل، الأمر كان واضحًا.. لن أستطيع الذهاب إلى الجامعة؛ لا يمكن أن تنتظر الأجساد إلى أن يعود الابن الأكبر، ولا يمكن أن أكون لحّادًا خدمة ليلية فقط، ولا يمكن أن يضيع ما آخذه من نقود على الإيجار، كان لا بد أن أنسحب وأعرف أن دوري الأكبر والأهم لم يكن مجرد أن أتعلم.. دوري أكبر من ذلك كثيرًا.

* * *

أدهشني المرحوم.. كان كلامه جذابًا، كنت أسترجع ما يقوله فأشعر أنه يأخذني إلى عالم آخر، أتذكر كلمات أبي عندما كان يكرر دائمًا أن المواهب يصقلها الفقر وتخنقها الرفاهية، نظرت إلى ما كتبته، وقعت عيناي على الاسم الوحيد الذي ذكره فسألته في إلحاح:

- من سميحة يا مرحوم؟

ابتسم المرحوم في خجل:

- لو كنا التقينا قبل ذلك لعرفتك عليها.. كانت معنا في المشرحة.

نظرت إليه في حيرة.. سألته في حذر:

- لا يوجد إناث يعملن في المشرحة.

لم يجبني مباشرة لكنه ابتسم وهو يقول:

- أنا لم أقل إنها تعمل في المشرحة.

أجيبه وأنا أضغط على الحروف كأنني لا أقبل ما أقوله:

- سميحة جثة من الجثث الموجودة في المشرحة؟

هز رأسه موافقًا:

- كانت.

- وماتت بخطأ طبي؟

هز رأسه مرة أخرى.

للحظة ظننت أن هذه هي نهاية الحكاية التي بدت لي مشوقة أيضًا، عامل المشرحة يحكي عن جثة يعرف قصة موتها؛ اسمها سميحة.. ماتت على يد طبيب وبيد طبيب كما قال، بقي أن نعرف تفاصيل القصة، لتنتهي الحكاية ببساطة في عدد واحد، وعدد آخر نتكلم فيه عن حكاية المرحوم نفسه، الموضوع بسيط لكنه شيق.

- وأنت تعرف حكايتها؟

ابتسم بفخر وهو يقول:

- أنا أعرف كل مَن في المشرحة.. وهم يعرفونني جيدًا، أنا الروح الوحيدة هنا؛ لذلك يتقاسمها الجميع.

لم أجد ما أقوله له.. نظرت إليه في حيرة أكبر وأنا أسأله:

- أنا لا أفهم ما تقوله يا مرحوم.

- أنا أفهمك.. أليست أرواحنا تصعد إلى السماء أثناء نومنا ثم تعود مرة أخرى في الصباح؟!

هززت كتفي مبتسما:

- لا أدري.

ضحك بصوت عالٍ وهو يقول:

- أنا أدري.. النوم موت مؤقت، الغريب يا دكتور أنني عندما أموت الميتة الصغرى لا تصعد روحي إلى السماء.. بل تصعد إلى السقف.

- السقف؟!!

- نعم.. أشعر بظهري ملتصقا بالسقف ووجهي إلى أسفل، أراقب كل ما يحدث في المشرحة، أرى نفسي وأنا نائم أتقلب يمينًا ويسارًا، وأرى الجثث الساكنة تمامًا، أظل أراقب كل ما يحدث حتى الصباح وعندما أستيقظ تعود روحي لجسدي، على حسب الاستيقاظ.. فمثلًا في المعتاد.. تنزل روحي من أعلى ببطء وأظل أتأمل جسدي قليلًا ثم أدخل فيه تدريجيًّا.. تمامًا مثلما يحدث لك عندما تظل تتقلب وتتثاءب إلى أن تستيقظ تمامًا.. إلا إذا استيقظت فجأة!!

- ما الذي يحدث؟

- آه يا دكتور.. شيء مؤلم، تسقط روحي من السقف في لحظة.. داخلةً في جسدي من أي مكان تسقط عليه، من السهل التسلل خلال الجلد فهو كالمصفاة والروح هواء، لكن المشكلة هي الاصطدام القوي مع العظام.. غالبًا ما تصدم بقوة بالضلوع أو بالعمود الفقري.. هل جربت هذا الإحساس؟

قاومت ضحكي ودهشتي باقتناعه بما يقول:

- أي إحساس؟

- إحساس أن تصحو من نومك فجأة فتشعر بآلام في صدرك أو ظهرك أو جنبيك من جراء اصطدام روحك بعظامك، وإحساس انحشار جزء من روحك بين عظامك وجلدك فتضطر إلى أن تتثاءب وتشد ذراعيك إلى أعلى وتشد جسدك لأقصى طول له لتتسلل بقايا الروح المحشورة خلف العظام إلى داخل الجسد فتشعر بالمزيد من الراحة في جسدك.. وبأن روحك ازدادت اكتمالا وطمأنينة.

أعجبتني نظريته.. هززت رأسي بعدها مبتسمًا وأنا أقول:

- ماشي يا مرحوم.

- عندما رأيت سميحة من أعلى دق قلبي في جسدي النائم على بُعد أمتار منها، شعرت بدقاته في روحي المعلقة في السقف، كان على وجهها حزن ونكد شديدان، من الواضح أنها تريد شيئًا، أنا أولى بتحقيق أمنيات سميحة، تشاغلت عنها قليلًا بجسدي الذي بدا قبيحًا وأنا نائم، كل هذه الحركات والتقلبات والأصوات، سألت نفسي: أليس هذا الجسد الجميل الطاهر أولى بهذه الروح العاقلة الذكية، وهل يمكن أن تكون كل هذه الحكاية المعقدة التي لم أرتب لها جاءت بجسدها إلى هنا بغير حكمة علوية؟ أغرتني الفكرة.. لماذا لا أتزحزح بروحي قليلًا في اتجاه جسد سميحة وأحاول أن أجد طريقة ما أهبط بها في الصباح على جسدها هي بدلًا من جسدي القبيح؟!! يوم واحد فقط، أقرأ ما كان في عقلها وما كانت تريده قبل أن تموت وأحققه لها، همست لنفسي.. يبدو أنني رسول.. رسول من عالم الموتى إلى عالم الأحياء ورسول من عالم الأحياء إلى

الموتى، إذا كان ذلك صحيحًا فلا بد أن روحي ستكون حرة، ولا بد أنني سأكون قادرًا على أن ألبس أجساد الموتى كيفما يتراءى لي.. ربنا عادل.. إذا كانت أرواح الموتى تلبس أجساد الأحياء، فلا بد أن أرواح الأحياء لها قدرة ما على لبس أجساد الموتى، أنا المختار لأبدأ هذه المهمة الطاهرة، وقد أكون الوحيد.. لا بد أن هذا هو ما جعلني منذ ولدت أدور حول الأموات ويدورون حولي، وربما يكون موت أبي هو عقابا لي وله لأننا لم نر هذه المقدرة الخارقة ولم نفعل التكليف الذي كلفت أنا به، لا بد أنني مثل سيدنا يونس؛ ابتلعه الحوت لأنه ظلم نفسه، للحظة شعرت بالجنون كما تشعر أنت أيضًا.. لكن قلت سأجرب، إذا نجحت في احتلال جسد سميحة سيؤكد هذا أنني صاحب رسالة، أما إذا لم يحدث ذلك فسأتأكد من أنني كنت أخرف، بقيت عندي مشكلة واحدة.. ماذا سأفعل مع جسدي الأصلي، وهل إذا أخذت جسد سميحة سيمكنني أن أعود إلى جسدي مرة أخرى أم لا؟ في الواقع لم يكن عندي مانع أن أستخدم جسد سميحة لباقي العمر لكن كانت تساؤلاتي مختلفة.. ما الذي سيحدث لعقلي وذاكرتي وأفكاري، وهل سيكون لي وقت محدد في هذا الجسد إذا كنت مرسلا من أجل العديد من الموتى؟ ما الذي سيحدث لي إذا تأخرت أو فشلت في المغادرة؟ لذلك تراجعت عن أن أفعلها.. أجلت الأمر ليوم الإجازة، اتفقت مع ميلاد زميلي أن يتسلل بعد منتصف الليل إلى داخل المشرحة بهدوء شديد.. يوقظني فجأة.. ثم ينقلني إلى المخزن ويغطيني تمامًا ثم يغادر المشرحة، اندهش لكنه لم يهتم بعد أن قبض مني مائة جنيه كاملة، أخبرته أنني سآخذ منومًا لأنام ليوم أو أكثر بناء على توصية

الطبيب تحت واحدة من المناضد، أراد أن يعيد لي النقود عندما عرف أنني أبحث عن علاج من مرضي العقلي الذي يتحدث هو عنه دائمًا لكنني رفضت واتفقت معه أن يسلم جثتي إلى واحد من أصدقائي في المقابر إذا مت، وأن يؤكد عليه أن يفتح مقبرتي رغم كل التحذيرات بعد اثنتي عشرة ساعة ليتأكد من أن جثتي لم تسرق.

في المساء أخرجت جسد سميحة، غسلته جيدًا.. حممتها وحلقت لها ما كان قد تبقى من شعر الإبط والعانة، اشتريت لها طاقمًا كاملًا من الملابس بما في ذلك روافع الصدر المبطنة لأن صدرها كان ضامرًا تمامًا، عطرتها بالمسك والعنبر ودخلت بعدها لأنام، جعلت نومي تحت المنضدة التي ترقد هي عليها.. هكذا يصبح جسدها في المنتصف بين جسدي وروحي، لم يكن النوم سهلًا.. ظللت أتقلب يمينًا ويسارًا، كان القلق يملؤني، وكان انتظار النوم يزيد من ابتعاده، لم أغف إلا قُبيل الفجر، عندما غرقت في النوم كانت روحي معلقة في سقف الغرفة، أخذت أنظر إلى جسدي ثم إلى جسد سميحة الذي بدا لي لامعًا ونظيفًا تمامًا، لأول مرة أشعر بالملل من مراقبة الجثث والأجساد في الليل والتي كنت قد اعتدتها تمامًا، اقتربت الساعة من الرابعة.. ميلاد الغبي لم يظهر، لا بد أنه قد نام كالعادة، لا أريده أن يتأخر، لا بد أن عملية ارتداء جسد آخر ستكون أضمن وأسهل أثناء الظلام، الوقت يمر، الأرواح أكثر مللًا من الأجساد، بلادة الجسد وكسله تقلل كثيرًا من حيوية الأرواح ورغبتها في الانطلاق، لو تأخر ميلاد أكثر من ذلك سأنتظر إلى الغد وأحاول أن أجد طريقة أتحرك بها من هذه المشرحة بدون جسد، ثم أذهب إلى بيت ميلاد وأركبه هو وجميع أهله انتقامًا منه، ليس من أجل المائة جنيه لكن من أجل هذا الانتظار الذي يكاد يقودني إلى الجنون.

في الثانية إلا الثلث دخل ميلاد إلى المشرحة.. بدأ يمشي متسللًا وهو يتمتم بكلام ما راسمًا صليبًا على صدره كل بضع خطوات، ظل يبحث عني في كل مكان وأنا أحاول أن أصرخ:

ـ تحت المنضدة أيها الغبي.

الحقيقة أنني كنت مختفيًا تمامًا تحت المنضدة وهو دار عشرات المرات بحثًا عني، وعندما بدأ في النهاية يبحث تحت الموائد من يأسه.. همس ساخرًا:

ـ يخرب بيت أمك يا مرحوم.. ما الذي يجعلني أسمع كلام مجنون مثلك.

تسمرت روحي في غضب وأنا أشعر بكلماته:

ـ يخرب بيت أمك أنت.. وحياة أمك حسابك عسير.

اقترب ميلاد من جسدي، ووضع يده على صدري ببطء.. ثم نادى باسمي بصوت عال وهو يهز جسدي بعنف في نفس اللحظة، فتح جسدي عينيه باتساع شديد محدقًا في ميلاد للحظة قبل أن يغلقهما مرة أخرى، شعرت بروحي تسقط بسرعة رهيبة من أعلى نحو جسد سميحة، محاولة اختراقها إلى جسدي القابع تحتها يتلوى في انتظارها، أعاقها المعدن الصلد وتشبثي بكل ما يمكن بجسد سميحة الذي انتفض بقوة بينما كان ميلاد يغادر المشرحة صارخًا:

ـ الله يخرب بيتك يا مرحوم.. الله يخرب بيتك يا مرحوم.

لم أهتم فقد كنت مشغولًا بمحاولة توفيق روحي على جسد غريب لم تدخله من قبل، أخذت سميحة تتلوى محاولةً طردي من جسدها

وأنا أحاول أن أبث الطمأنينة مؤكدًا لعقلها أنني لا أريد أذى لها على الإطلاق، بعد محاولات مضنية هدأت روحي في داخل جسدها تمامًا، شعرت بآلام شديدة في صدرها وظهرها وركبتيها فتأكدت أنني أتحول إلى سميحة عبد السلام، بدأت ذاكرتي تمتلئ بحكاياتها مختلطة بحكاياتي، لكن روحي أنا كانت هي الأقوى، عرفت الحقيقة.. لن أتحول إلى سميحة.. سأصبح روح المرحوم الحي في جسد سميحة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

مط شفتيه وهو يقول:

- بعد ذلك؟ استيقظت لأجد نفسي في جسد المرحوم مرة أخرى، شككت أن تكون الحكاية كلها حلمًا إلى أن رأيت ميلاد الذي احتضنني في فرحة وهو يقول: حمد الله على السلامة يا مرحوم، همس في أذني مؤكدًا لي أن جثتي ليست خالصة وأن مبيتي مع الجثث قد ألبسني واحدًا من الجان.. فأدركت أنني لم أكن أحلم.

- وأين جثتها الآن؟

هرش رأسه في حيرة:

- بحثت عنها في كل مكان.. اختفى تمامًا، لم يعد لدينا جسد يخص سميحة عبد السلام عبد المقصود.

- وماذا فعلت وأنت في جسد سميحة؟

ابتسم في خبث:

- لا أذكر.

غابت ابتسامتي الساخرة بمجرد أن غادرت المطعم.. شغلني المرحوم وتركني بعد أن نظر في ساعته كسندريلا، رغم رغبتي الشديدة في سماع المزيد منه لم أطلب منه البقاء، أنا أيضا كنت أريد الذهاب، ليس من أجل المحاضرة فقد كان من الممكن أن أضحي بها، لكن في الواقع لأنني لم أشعر بالراحة مع تزايد عدد الطلبة في المطعم، نظرات متسائلة فضولية أشعرتني بالتوتر. قررت ألا أجلس معه هناك مرة أخرى، لا يجب أن يكون المكان مزدحما لآخذ راحتي في استخراج كل شيء من المرحوم، تلك الشخصية المذهلة.. خليط الجنون والحكمة والسخرية والمرارة واليأس، خليط أعرفه جيدًا.. رأيته في مئات المصريين من قبل، ما الذي يجعله مختلفًا عن الجميع؟ ربما يكون اعتياد الموت، عِشرة الأموات ولّدتْ لديه لوثة غير قابلة للعلاج، هل من الممكن أن يكون صادقًا؟ طالما سمعنا عن أصحاب قدرات خارقة، فهل يكون القدر قد اختارني أنا أيضًا ليضعه في طريقي لأرى بعيني تجربة خرافية لن تتكرر مرة أخرى؟ أيًّا كان.. عاقلًا أو

مجنونًا، رسولًا مختارًا أو معتوهًا واهمًا.. هو لا شك تجربة فريدة، كل ما عليَّ أن أتابعه لأخرج على العالم بحكاية مذهلة.. حكاية الرجل العالق في البرزخ الفاصل بين الحياة والموت.. حكاية المرحوم.

تذكرت حواري معه بالأمس، كيف لم أتأكد وقتها أنه مجنون؟ على العكس شعرت أنه صاحب رؤية تختلف عن كل ما سمعته وقرأته، شاب صغير متوارٍ بين حوائط المشرحة خرج منفردًا بنظرية مدهشة تستحق التفكير، ربما هذا ما جذبني إليه، البشر يتشابهون والكلام يتكرر.. قلما تلتقي بشخص تشعر أنه النسخة الفريدة التي يصعب تكرارها في التاريخ، النسخة الأصلية الوحيدة التي صنعها التقاء بيئة خرافية بعقلية مختلفة ونفسية مركبة.. وجدت فيه ضالتي، مِن هذا الإنسان سأسمع وأرى عالمًا آخر قد لا ألتقيه مرة أخرى، لكن جنون المرحوم فاق توقعاتي، في نظري كان روحا ماتت في جسد لا يزال حيًّا، ربما لهذا كان يحاول أن يلعب دور الروح الحية في الأجساد الميتة.

ـ مجنون!!

قلتها بصوت عالٍ وأنا أمشي وحيدًا في طرقات الكلية.. نفس تعليقي عليه في نهاية حوارنا الأول، الفارق الوحيد أنني في المرة الأولى قلتها بصيغة الشك والتساؤل، أما هذه المرة فقد خرجت مني تقريرية صريحة:

ـ مجنون.

لقاؤنا الأول كان في المشرحة أيضًا.. عندما كنت أجلس كعادتي

بين أصدقائي أحكي لهم عن رواية ما قرأتها، أدهشني إنصات ذلك الشاب الذي رأيته في المشرحة حديثًا، كان أكثر إنصاتًا من كل أصدقائي، ترك كل ما ينبغي عليه فعله لتحضير الدرس ووقف صامتًا خلف العمود يسمع ويهز رأسه في تأكيد.

التفتُّ إليه فجأة وسألته:

ـ لماذا تقف هكذا؟

التفتَ إليه كل الجالسين.. بدا عليه الارتباك:

ـ لا شيء.. كل ما في الأمر أنني أحب هذه الرواية.

انطلق مبتعدًا بسرعة.. أوقفته:

ـ انتظر.. هل قرأتها؟

كنت أستعد في تلك اللحظة لأبدأ السخرية المعتادة من الذين يدَّعون دائمًا أنهم قرءوا أو يعرفون القصة كما يحدث كثيرًا، الزبون هذه المرة مناسب تمامًا.. عامل المشرحة. لم يجبني المرحوم بل وقف في مكانه صامتًا للحظات.. كررت سؤالي:

ـ هل قرأتها؟

تنهد المرحوم في حرج.. خرجت كلماته بطيئة ومترددة:

ـ قرأتها ما يزيد عن عشر مرات.

حيرتني الثقة التي أجاب بها.. عاجلته:

ـ تعرف اسمها؟

هز رأسه نافيًا.. ابتسمت ساخرًا:

-عشر مرات ولا تعرف اسمها؟!!

مط المرحوم شفتيه في لامبالاة.

- لا يهمني اسم الكاتب ولا اسم الكتاب.. يهمني المكتوب فقط.

شعرت ببوادر الانتصار، نظرت إلى أصدقائي وغمزت بعيني. بدأ الشباب في إطلاق التعليقات، والبنات في ضحك خافت، أعجبتني اللعبة فتابعت سخريتي:

- طالما قرأتها عشر مرات.. قل لي ما الذي أعجبك فيها؟

أجاب بدون تردد:

- بطلة الرواية.

انفجرت ضاحكًا حتى إن كل الجالسين حول المناضد الأخرى نظروا إلينا في دهشة، نظر إليَّ أصدقائي مستفسرين، خرجت كلماتي متقطعة بين الضحكات:

- هذه الرواية بالتحديد لا يوجد فيها بطلة.. ولا نصف بطلة، ولا أنثى واحدة تقريبًا.

ضج الجميع بالضحك.. وقف المرحوم ينظر إلينا في ثبات إلى أن انتهت نوبة الضحك والسخرية التي طالت وتصاعدت إلى أن انتهت ببعض النكات السخيفة.. انتظر إلى أن هدأ الجميع ثم تابع:

- لم أقل إنها امرأة يا دكتور.. بطلة هذه الرواية في الحقيقة هي

السمكة، أم لم يكن في الرواية سمكة أيضًا؟

نظرت إليه في دهشة وأنا أواصل الضحك:

- السمكة؟!

أجابني المرحوم بصوت منخفض ولكنه غاضب:

- نعم السمكة.. السمكة التي قاتلت العجوز الذي كان يريد اصطيادها، قررتْ منذ البداية أنها لن تكون طعامًا له ولا قِطعًا من اللحم يبيعها ليأكل ويشرب الخمر كالمعتاد، حتى بعد أن قتلها ماتت لكنها لم تستسلم، قررت أن تواصل جهادها معه حتى بعد موتها؛ لذلك أرسلت روحها في عشرات الأسماك الصغيرة التي أكلت جسدها لتحرمه من الفوز بها.. ما الذي خرج به العجوز؟ لا شيء، هيكل عظمي لسمكة ضخمة!! هيكل ضخم وقف أمامه الصيادون مندهشين لأنه لسمكة عظيمة، أما العجوز الذي أراد أن يحصل عليها فلم يحصل منها على قطعة واحدة، لم يتذوق لحمها ولم يبع منه جرامًا واحدًا، خسر مجهوده معها وخرج بجراح كبيرة وبخيبة أكبر، لو زاد الكاتب عليها فصلًا واحدًا لجعل العجوز يعود إلى حانته ويشرب المزيد من الخمر كل يوم إلى أن يموت محسورًا على السمكة التي هزمته بعد موتها، ولأصبح هيكلها معلقًا على بوابة حانة الصيادين الذين سيحنون رءوسهم احترامًا لها كلما مروا عليها، لماذا يصبح هو البطل؟ أنا أراها البطلة الحقيقية.

هستيريا الضحك اجتاحت كل الجالسين.. كلهم أغبياء يسخرون

من أجل السخرية، لا يعرفون شيئًا عما نتحدث عنه؛ لا يعرفون همنجواي ولا العجوز ولا حتى السمكة التي يعرفها هو، أما أنا فتشكلت في داخلي علامة استفهام كبيرة، كنت أظنه أقل من ذلك كثيرًا، تفكير عجيب لكنه مختلف، انطلقت التعليقات الساخرة السخيفة والضحكات الأسخف:

- لا تغضب.. اكتبها مرة أخرى وسمِّها حكاية السمكة.

- لا تشغل بالك به يا محمود.. إنه مسطول.. شارب القرش كله.

- أنت أكيد يا بني من مواليد برج الحوت.

- خلاص يابني.. حوت علينا بعد ساعة.

وتعالت الضحكات.. بدا الغضب على المرحوم.. ابتسمت له وأنا أسأله:

- ما اسمك؟

تردد المرحوم قليلًا، ربما كان يريد أن يقول إن اسمه المرحوم؛ لكنه لم يرد أن يسمع المزيد من السخافات، أحنى رأسه قليلًا وهو يقول بصوت خافت:

- اسمي عبد الحي.

قام واحد من الشباب ووضع يده على كتف المرحوم:

- إذن أنت من اليوم عبده سمكة.

زاد الضحك وهم يقولون جميعًا في سخرية:

- عبده سمكة.. عبده سمكة.

انطلق المرحوم مبتعدًا في حرج، دخل إلى الغرفة الصغيرة المخصصة للعمال، تبعته إلى الداخل.. اقتربت منه في هدوء:

- لا تغضب منهم.. إنهم يمزحون معك.

أجابني المرحوم وهو يشعل سيجارته:

- لست غاضبًا.. لكن لا أحب أن يسخر مني أحد.

مد يده لي بسيجارة فأشرت له بالرفض وأنا أقول:

- إنهم لا يسخرون منك.. كل منهم وراءه همٌّ ثقيل، مذاكرة ومصاريف ودروس، يبحثون عن أي شيء ليسخروا منه، أتدري لو أنك لم تكن موجودًا لسخروا مني أنا في نهاية الحوار، هذا يحدث معي كل يوم، شكرًا لك لأنك رحمتني اليوم من سخريتهم.

ابتسم المرحوم في خجل:

- تحت أمرك يا دكتور.

مددت يدي مصافحًا:

- أنا اسمي محمود يا عبد الحي.. وسنكون أصدقاء.

مد المرحوم يده، قال في تردد:

- طالما سنصبح أصدقاء نادني المرحوم.

- المرحوم؟!!

التفت المرحوم إلى قاعة الدرس وهو يقول:

ـ الأستاذ وصل.. اذهب إلى الدرس ومر عليَّ بعد أن تنتهي منه، وسأحكي لك حكاية الاسم.

تحركت في اتجاه قاعة الدرس ضاحكا:

ـ حكاياتك كثيرة يا عبد الحي.. وأنا أحب الحكايات.

أشار إليَّ المرحوم بسبابته وهو يبتسم:

ـ يا مرحووووم!

ذهبت إليه بعد انتهاء الدراسة، أنا لا أستطيع أن أقاوم حكايات أقل غرابة كثيرًا من هذه، حتى «أبلة عنايات» لم أقاومها وأنا أراها تدفع وتقبض جمعيات كما لو كانت صراف الكلية، كان المرحوم جالسًا في سكون وهدوء، يومها حكى لي حكاية لقبه في سعادة، اندهشت لاعتزازه بذلك الاسم الغريب واندهشت أكثر عندما عبَّر لي عن سعادته البالغة لأنه يعتبرني أول صديق له من الأحياء بعد رحيل صديق عمره الوحيد.. سألته في حيرة:

ـ من الأحياء؟! هل تصاحب الجن يا مرحوم؟!!

ـ لا مانع عندي يا دكتور، لكني لم ألق جنيًّا واحدًا في حياتي رغم أنني بحثت عنهم كثيرًا، أصدقائي هم هؤلاء البشر الذين من حولك.

تلفتُّ حولي.. لم أر سوى الجثث، سألته مرة أخرى:

ـ تصاحب الجثث؟!

هز رأسه نافيًا:

ـ أنصت إلى الموتى.. أعرف ما يريدونه ويعرفون ما أريد.

نظرت إليه في شك:

ـ وهل تسمعهم؟

نظر إليَّ المرحوم في عتاب:

ـ الموتى لا يتكلمون يا دكتور.. أنا لست مجنونًا لكني أشعر بهم على حسب قربي منهم.

نظرت إليه في حيرة:

ـ هل أنت متعلم يا مرحوم؟

ابتسم في مرارة:

ـ ما رأيك يا دكتور؟

ـ لو أنني أعرف ما سألتك.. لكن أظنك متعلمًا.

ـ أنا أيضًا أظنني متعلمًا.

ـ ما الذي ألقى بك في هذا المكان؟

ـ النصيب.. القدر.. الواجب.

ـ وما هي حكايتك؟

نظر المرحوم إليَّ في صمت، تحرك نحو نافذة المشرحة، مد يده إليَّ في ود وهو يقول:

ـ الشمس تغرب يا دكتور.. لا أظن أنك تريد أن يدخل الليل عليك

وأنت هنا.. مع كل هذه الجثث وشاب صغير يبدو لك مجنونًا، أنا عندي الكثير لأحكيه لك وأعرف أنك ستحب الحكاية، لكني أعرف أنك بعد خمس دقائق لن تسمع مني أي شيء وستبدأ في التلفت حولك كل بضع ثوانٍ في رعب، دعنا نتكلم في الصباح لو سمحت. سأنتظرك هنا الساعة السابعة صباحًا.. بعد أن تنتهي نوبتي، سيكون لدينا ساعة قبل محاضرتك الأولى.

نظرت إليه طويلًا.. حاولت أن أقول شيئًا ما، ما قاله بث في جسدي خوفًا مبهمًا، وجدت نفسي أمد إليه يدي وأنا أهز رأسي موافقًا وأنطلق مسرعًا لأخرج من ذلك المكان.

العلامة الرابعة

العقدة

لم أنم في تلك الليلة.. كنت أعرف أنني في الصباح سأدخل إلى غرفة الحفظ، مشاعري متضاربة كالعادة. لا أعرف وأنا أؤدي هذه المهمة لهؤلاء الذين يُحفظون من أجل تشريحهم، أأفعل خيرًا أم شرًا، الأكيد أنني عندما أفعلها لمن أعرفهم وأعرف ما سأفعله من أجلهم يكون ذلك هو الخير الخالص الذي لا شبهة فيه، لا أحد يدخل غرفة الحفظ من صبيان المشرحة سواي مع عباس، كان يقوم بها وحده.. من أول يوم رآني فيه قال إني أصلح لهذه المهمة، كان دوري ينحصر في تنظيف الجثث وغسلها، بعضها يأتي تغطيه الدماء وبعضها يأتي فوقه كَومة من التراب والأوساخ.. لا أحد يصل إلى هنا نظيفًا، أمسك بليفة صغيرة وأبدأ في دعك الجسد.. في اليوم الأول كان الطبيب الكبير الذي يلقبونه جميعًا بالأستاذ ينظر إليَّ في شك وهو يسأل عباس:

- جامد؟

أجبته أنا بثقة:

- جامد.

لكني لم أكن جامدًا كما تصورت، عندما رأيت الكومة المكونة من خمس جثث مختلفة انخلع قلبي، اعتدت رؤية الجثث موضوعة في صناديقها والناس يحنون لها رءوسهم في خشوع، هنا العالم يختلف.. لا أحد يتعامل معها على أنها أجساد كانت تمشي وتضحك وتبكي وتتألم منذ قليل، ولا يطلقون عليها الأمانة كما كنا نفعل في المقابر، الغصة الكبرى التي أصابتني كانت عندما لمحت جثة تلك الصغيرة بينهم، عمرها لا يزيد عن السنوات الخمس، كانت الدماء متجمدة في منتصف جبهتها وذراعها مقسوم إلى نصفين وقد ثقبت عظامها جلدها، الأمر واضح.. ماتت في حادث، ظللت متماسكًا إلى أن أمسكت بها وسحبتها من بينهم لأنظفها.. كانت تبتسم، شعرت أنها تبتسم لي ثقةً وأملًا، ابتسمت لها أنا أيضًا.. أمسكتها وفتحت خرطوم المياه وبدأت في دعك جسدها الرقيق، كان الكل يتكلم ويحكي ويضحك.. لم يكن الأستاذ قد دخل الغرفة بعد، وجدتها فرصة جيدة لأجد إجابة عن السؤال الذي كان يتردد في رأسي.. ما الذي يلقي بهذه الجثث إلى هنا؟ علا صوتي وأنا أتظاهر أنني منهمك في عملي:

- هذه الصغيرة ماتت في حادث.. أليس كذلك يا عم عباس؟!!

هز رأسه موافقًا وهو يسحب نفسًا عميقًا من سيجارته:

- هي وهو.. قالوا لي في المستشفى إن سيارة صدمتهما وجرت،
أشار بيده إلى رجل من الموجودين في الكومة وهو يتابع:

- لم يكن معه أوراق تدل على أي شيء.. لكن ملابسهما تدل على أنهما قادمان من الريف.

توقفت عن دعك جسدها للحظة.. واصلت عملي وأنا أشعر بالأسى، كنت مشفقًا على الصغيرة ومشفقا أكثر على الأم التي ستبحث في كل مكان عن زوجها وابنتها، ألحّ عليَّ هاجس أن الأم ستعيش بقية عمرها تبحث عنهما وتنتظر في كل يوم أن يفتحا الباب داخلَيْن عليها، لا بد أنها تبحث عنهما الآن في المستشفيات والأقسام والمشارح، لكنها لن تبحث في هذه المشرحة بالتحديد.. مشرحة الكلية، لعنة أصابت هذه الأسرة، أن تظل هذه الجثث حائرة لا تجد طريقها إلى الأرض وتظل الأم حائرة لا تجد طريقها إليهما، ستظل كل يوم إلى أن تموت تنتظر خبرا عما حدث لهما، لا بد أنهم فعلوا ما يستحقون عليه هذا.. راجعت نفسي سريعًا، قد يكون هذا الرجل يدفع ثمن خطيئة ما أيام حياته.. لكن ما الذي فعلته الصغيرة؟ هل هذا هو العدل؟

امتلأت عيناي بالدموع فجأة، نظرت إلى عباس فوجدت عينيه هو أيضًا مليئتين بالدموع، عباس أيضًا إنسان يفكر ويشعر.. فاجأني وهو يلقي إليَّ بكمامة بيضاء صغيرة:

- ضعها على وجهك.. الفورمالين سيهيج عينيك وأنفك.

واصلت عملي في خيبة أمل.. كانت عيناه تدمعان من الرائحة النفاذة، انتهيت من الصغيرة ووضعتها جانبًا، تعمدت أن أجعلها بعيدة عن باقي الجثث بضعة أمتار، ربما لأنني كنت أشعر أنها أطهر من أن تخلط بأجساد غالبًا ما أساءت؛ لذلك جاءت هنا، بدأنا في الضغط على الجثث وإفراغ ما فيها، خرج من كلٍّ منها ما خرج..

جففناها جيدًا، دخل الأستاذ وفي فمه سيجار نفاذ الرائحة.. لم يمد يده على شيء، كان واقفًا يراقب ويتأكد من ضبط الكيماويات التي كان يضعها عباس في إناء معدني ضخم يشبه البرميل إلا أنه كان يلمع من الخارج، كان يشير بيده وهو يذكر اسم المادة المطلوبة ويحدد كميتها.. يأتي عباس بالسوائل فيراجعها بنفسه متأكدًا من الاسم والكمية، كنت أستمع إلى الأسماء التي تأتي متتالية، لم تكن صعبة عليَّ.. ولم أعرف حتى تلك اللحظة لماذا كنت أكرر كل اسم في رأسي عدة مرات وأنا واقف على جانب الغرفة:

- فورمالين.

- جاهز.

- كلوريد زنك.

- جاهز.

- كلوريد زئبق.

- جاهز.

- كحول.

- حاضر.

إذن هذه هي خلطة الخلود الجسدي.. كنت منبهرًا وأنا أرى ما يحدث، وضعت الجثث على الأرض، مد الأستاذ يده ليغرس الإبرة في أعناق الجثث وهو يشرح كما لو كان يحادث طلبته.. ربما بحكم العادة:

- هذا الشريان أفضل لأنه كبير بما يكفي.

وقفت أتأمل السائل وهو يتدفق من أعلى إلى أسفل داخل الشريان الكبير، شعرت به ساخنًا حارقًا يخترق الجسد والروح حائرة ترى ما يحدث كما أراه أنا بالتحديد، فأنا روح أكثر مما أنا جسد، الأجساد تتغير وتفنى وتبلى أما الأرواح فلا، حتى في أحلامنا قد نرى أنفسنا في جسد آخر ولكن بنفس الروح، أربعة أوانٍ من المحلول تخترق أربعة أجسام، الجسد الأخير الذي لم يؤخذ كان جسد الصغيرة الذي أبعدته يداي أنا عن اختيارهم.. ابتسمت فخورًا، أنا أخَّرت قليلًا مصير الصغيرة، أنا هنا أصبحت لي قيمة جديدة.. أشرت إلى ذراع واحدة من الجثث بدأ في الانتفاخ فجأة.. ابتسم الأستاذ وهو يقول:

- جلطة.. ستصرف بعد قليل.

وقفت أراقب في دهشة.. ظل الذراع ينتفخ.. بدا كما لو كانت هناك عقدة في طريق انتشار السائل في الجسد، فجأة بدأ الذراع يعود إلى حجمه الطبيعي رويدًا رويدًا والسائل ينطلق أكثر سرعة، لماذا لم يحدث هذا معي.. العقدة التي أوقفت مسيرتي في الحياة وجعلت مسيرتي تتورم متعثرة مثل هذه الذراع، تفاءلت.. ربما يكون وجودي هنا وما حدث لي انفراجة في طريقي، كنت متأكدًا أن ما أراه الآن هو علامة لي لأرى طريقي.. خاطبني الأستاذ فجأة:

- ضع الجثة الخامسة في الثلاجة.

توجهت نحو الثلاجة الكبيرة.. وضعت الصغيرة بحنان، سألني

عباس عن النوع دون أن ينظر حتى إليها، دوَّن في دفتره أنها أنثى، بعد قليل بدءوا في المغادرة واحدًا تلو الآخر.. سألت عباس في حيرة:

ـ هل سنتركهم هكذا؟

هز رأسه وهو يشرح لي أن الأمر قد يستغرق يومين.. بعدها سيأتي دور الصغيرة.. طلب مني أن أبيت في هذه الغرفة إلى أن تتم العملية وأن أتصل به فورًا إذا بدأت واحدة من الجثث تخر سوائلها من أحد الأطراف.. ثم غادر هو أيضًا.

جلست أتأمل الجثث واحدة تلو الأخرى.. طولهم وأحجامهم، جروحًا قديمة، آثارًا لعمليات جراحية، أفتح أفواههم وأشاهد أسنانًا فُقد بعضها وتسوس بعضها، هذه الأجساد لا زالت صالحة للاستخدام، سألتهم واحدًا واحدًا عن أسمائهم وعناوينهم، انتظرت أن أجد الإجابة في عقلي لكن ذلك لم يحدث.. فتحت الثلاجة على الصغيرة، داعبتها وابتسامتها لم تغب عن وجهها.. كانت تزداد اتساعًا، ألحت عليَّ فكرة أنها تبتسم لأنها تريد مني شيئًا ما، ما الذي ستريده مني الصغيرة وهي على هذا الحال؟ لا شيء، فقط أن يستريح جسدها.. فكرت ألف مرة قبل أن أفعلها، لكن لم يكن أمامي شيء آخر، أنا هنا الآن لأمرٍ ما، بدا لي الأمر واضحًا.. أنا سأذهب بجسد الصغيرة إلى المكان الذي يجب أن تكون فيه؛ المقابر، من أقدر مني على أن يضعها هناك ليحفظها ويحميها من الأيدي التي ستمزقها بمجرد أن ينتهي إعدادها لذلك؟ لا أحد، سبحان الله.. إذن هذا هو العدل، أنا وجِدت هنا الآن من أجل هذه الصغيرة، سآخذها وأدفنها وليحدث ما يحدث حتى لو فصلوني أو ضربوني أو حتى ذهبوا بي إلى السجن؛

لا يهم.. أنا لم أوقِّع ورقة واحدة تثبت أنني استلمت هذه الجثث كما فعل عباس، إذن لن يذهبوا بي إلى الشرطة.. فقط سأُفصل، طالما سأفعل هذا من أجل العدل فلا بد أن الله سيرسم لي طريقًا آخر بعدها، لن أعود إلى المقابر لأنني لا أستطيع.. لكنني سأجد مكانًا جديدًا قد يكون هو الأفضل، عدت إلى استراحة المشرحة.. أخذت حقيبتي الجلدية الممزقة ووضعت فيها الصغيرة، قفزت من فوق أسوار الكلية خارجًا، خفت أن يفتشوا حقيبتي على الأبواب، دخولي وخروجي في البداية لم يكن بالسهولة التي أصبح عليها بعد ذلك. في الطريق كنت خائفًا.. لكنني كنت أفكر في هذه الجثث المحفوظة.. خلود ولا شك، ليتني أستطيع أن أحفظ جسد سميحة لتبقى معي إلى الأبد، تساءلت في دهشة: ولم لا؟ كررتها في نفسي وأنا أبتسم، هذه كانت هي البشارة.. هذا هو حل العقدة وتحقيق الأمنية، وضعت الصغيرة في نفس المقبرة التي تركت فيها جثة سميحة منذ أقل من يوم، برودة الجو حفظت جثتها، دخلت إلى الحوش متسللًا، لففتها في سجادة كبيرة، عدت بها ماشيًا لمدة تقترب من الساعتين، لا بأس؛ سميحة تستحق أكثر. في الصباح الباكر كانت هي مستقرة في الثلاجة التي كانت تحوي الصغيرة، وكانت الصغيرة مرتاحة في التراب، ومفتاح غرفة الحفظ في جيبي.. أنا سأحمي سميحة في المشرحة، سأجد طريقة أخفيها بها عن مشارطهم.. وإذا رحلت سآخذها معي.

بعد يومين جاءت جثث جديدة.. وبدأت عملية حفظ جديدة، أمرني عباس أن أخرج الجثة التي في الثلاجة، حملت سميحة ووضعتها إلى جوار الوعاء المعدني الضخم.. نظر إليها عباس في شك وهو يسأل:

- ألم تكن طفلة صغيرة؟

تكفل الأستاذ بالرد عني ضاحكًا:

- كبرت في الثلاجة يا عباس.. سلامة مخك.

ضحك عباس في حيرة.. نظر إلى أوراقه، تعلمت بعد ذلك القاعدة؛ طالما العدد سليم إذن كل شيء على ما يرام، لم أخطئ يوما في العدد، التبديل مسموح أما الإضافة فلا، يجب أن يختفي جسد أمام كل جسد يضاف.

أيام قليلة وأصبحت سميحة معي.. كنت أنظر إليها في الليل، ابتسم وأنا أفكر في الحكمة الإلهية في ما يحدث، سميحة التي لم أحفظها حية أصبحت بين يدي لأحفظها وهي على حالها الجديد، وأنا أصبحت مسئولًا عن التخلص من سوائل الحفظ التي كنت أجمعها في وعاء كبير وأخفيه تحت عشرات الأوعية الفارغة لسبب ما لم أكن قد استوضحته في حينه، ببساطة يمكنني أن أحفظ من يأتيني به تكليف أو تأتيني منه علامة، تنهدت في ارتياح عندما جاءني الوحي.. الآن انفرجت العقدة وستنساب حياتي في سهولة ويسر من أجل الآخرين.

العلامة الخامسة

الجسد

عندما ارتديت جسد سميحة اندهشت.. تجربة جديدة أن تجد نفسك في جسد امرأة بعد أن عشت عمرك كله رجلًا، شعور يختلف كثيرًا حتى عن أن تجد نفسك في جسد رجل آخر غير الذي عشته طيلة عمرك، ربما رجل برجل لا فرق، لكن رجل بامرأة.. حيرة كبيرة ولا شك.

طالما ظننت أجساد النساء عمومًا ـ وجسدها هي بالتحديد ـ مملكة للسحر والقوة. تلك الأجساد التي قد تجعل أشد الرجال يركع أمامها رغبةً وشوقًا، لماذا شعرت بضعف شديد، وقفت أمام المرآة عاريًا أتفحص جسدي.. كل شيء متهدل؛ صدرها الذي أصبح صدري أنا.. بطنها التي كانت منتفخة بجنين غادر وترك ثنيات من الجلد الممطوط.. شعرها الذي تركه الفورمالين كأسلاك رفيعة مثنية في اتجاهات متعددة، أخرجت من حقيبتي الملابس التي أعددتها لنا.. رافع الصدر الذي اضطررت لحشوه بالقطن ليبدو مشدودًا

جيدًا وجلباب أسود مهترئ، وضعت الحجاب على رأسي.. كلهن كن يغطين شعورهن، من المستحيل أن ترى امرأة مكشوفة الرأس في المقابر حتى سنية التي كانت تبيع جسدها في كل حي من أحياء القاهرة. كنت أراها وهي تخرج مرتدية حجابها، طالما تمنيت أن أعرف ما يحتويه الكيس الأسود الذي كانت تحمله في يديها دائمًا وهي تخرج في الظلام وتعود في النور، خطفته من يدها مرة وقلبته في لحظات.. كل ما فيه كان أحمر اللون، ملابس داخلية وقميص نوم و فستان قصير عاري الصدر، نظرت إليها وضحكت.. نَظَرَتْ إليَّ وبكت، فجمعت لها ملابس العمل وابتعدت عنها في صمت.

ألقيت على نفسي نظرة أخرى في المرآة قبل أن أنطلق.. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا، خرجت من المشرحة وأنا أمشي في خطوات متعثرة خجلى، هكذا كانت سميحة تمشي.. اختلط الأمر عليَّ فلم أعرف هل أنا الذي كنت أتعثر في مشيتي خجلًا من ارتدائي لجسد أنثى أم أن هذه الخطوات كانت خطوات سميحة حتى بعد أن أصبحت روحي أنا تسكن جسدها! لماذا كانت تمشي هكذا؟ فقر أم ضعف أم حاجة؟ أم عار تحمله لكونها أنثى مقبورة؟ لم أر غير مشيتين في نساء المقابر.. مشية من تلملم جسدها ومن تعرضه، فسرت ذلك لنفسي عندما كبرت قليلًا أن أجساد النساء هي محور الحياة في المقابر.. لا شيء آخر، عندما تصبح النساء هن المتعة الوحيدة المرغوبة من الجميع لا بد أن ينظرن لأجسادهن على أنها إما للحفظ وإما للعرض، نسيت تفسيري هذا عندما كبرت أكثر وقسّمت أنا أيضًا أجساد النساء في المنطقة بما فيها سميحة وفرحة إلى المعروض والمحفوظ. كنت أنتهز فرصة الدفنات لأنظر إلى

تشكيلات جديدة من الأجساد المعروضة، أحيانًا كنت أجد صدورًا مفتوحة أو ركبًا عارية أو أفخاذًا بيضاء أو سمراء تلمع، المدهش أن أغلبهن كن يمشين.. فقط يمشين.. لا يعرضن شيئًا ولا يلملمن شيئًا.. حمقاوات ولا شك، أغلب من كانوا يأتون معهن من الرجال كانوا يختلسون نظراتٍ أحدّ من نظراتي للأجساد المعروضة. لكني عرفت مع الوقت أن أجساد النساء ـ مثل أجساد الرجال.. مثل أجساد الموتى ـ لا تستدعي كل هذا التبجيل، لكن الرجال هم من يفسدون اللعبة غالبًا؛ يحولون المرأة من شخص إلى جسد ومن جسد إلى عضو.. أيهما أسهل؟ الدخول أم الخروج؟

تجربتي أنا تقول إن كلاهما سهل.. الأصعب هو الاستكمال.. الإتمام.. الوصول إلى كلمة النهاية المكتوبة في الكتب بعد أن تتم القصة والتي لم أصل أنا إليها أبدًا ولن يصل إليها أحد من البشر، فالقصص لا تنتهي بالفراق ولا باللقاء ولا حتى بالموت، بل يبدأ منها فصل آخر، في كل الحكايات التي قرأتها والتي رأيتها كانت حيرتي تزيد مع آخر فصولها وأنا أتساءل: وماذا بعد؟ ما الذي سيحدث للبطل الذي مات ولمن تبقى من بعده؟ هل ستظل النهايات السعيدة سعيدة والحزينة حزينة والمفتوحة مفتوحة أم ستغلق؟ لا شيء يغلق سوى الكتاب. لكي تنتهي الحكاية يجب أن يموت الجميع ولا يبقى واحد ليكمل أي شيء. ماذا فعلت يا مرحوم في سميحة؟ قتلتها بشكلٍ ما لأنك لم تكن مستعدًا لاستكمال الحكاية، هي كانت تريدها متعة كاملة تامة، طفل.. طفل صغير يحول حياتها إلى حياة امرأة كاللاتي كن حولها في كل مكان، طفل يجعلها جزءًا من حكاية يمكن أن تُستكمل بشكل ما أفضل من الجزء الذي ستشارك هي فيه، طفل يجعلها تشعر

أنها تملك جزءًا ـ ولو جزءًا واحدًا ـ طبيعيًّا من حياة البشر.. لكنك رفضت مائة مرة، وعندما فعلتها غضبت عليها وضربتها بقسوة، لم أعرفك يومًا تضرب بقسوة إلا في هذه المرة، ربما سميحة كانت غبية.. ما الذي ستفعله بطفل؟ يبدأ حياته مثلنا من التراب ويظل في التراب ويموت في التراب؛ إذن فليظل ترابًا من البداية، نحن فشلنا في الخروج من هذه المقابر تمامًا، لعنة لا مفر منها، ربما ما حدث كان الأفضل للصغير الذي لم يولد ولسميحة التي ارتاحت من حياتنا وسترتاح أكثر بعد دقائق، ولي ولسعيد.. فكلانا أخطأ وكان عليه أن يكفر عن خطئه، لكني سأظل أتساءل لفترة.. هل موتي أنا؛ جسدًا أو روحًا، كان هو الأمنية الأخيرة لسميحة.. أم أنها سامحتني؟

ـ تاكسي يا حلوة.

قالها سائق التاكسي وهو يقف أمامي.. أيقظني من شرودي، وددت أن أصفعه على وجهه وأنا أراه يتفحص جسدي من أعلى إلى أسفل.. المدهش أنني اضطربت، فامتدت يدي في حركة لا إرادية لتشد جلبابي إلى الأمام لتبعده من فوق صدري المتنفخ، الآن عرفت ما كانت تشعر به.. نفس شعورك عندما تركب أتوبيسًا مزدحمًا وجيبك مليء بالنقود ثم تسمع المحصل يحذر من وجود نشالين فتمتد يدك إلى جيبك لتتحسس المرتب، تحت هذه الملابس البالية جسد شهي يريده هذا الرجل، بدأت ألملم جسدي أنا أيضًا.. همست له بصوتٍ مبحوح:

ـ مستشفى الجامعة.

هز رأسه موافقًا فقفزت إلى المقعد الخلفي.. ابتسم وهو يقول:

ـ تعالي هنا إلى جواري.

خرج صوتي جافًا وأنا أجيب:

ـ هنا أحسن.. المستشفى بسرعة الله يسترك.

نظر إليَّ في المرآة بحيرة وهو يغمغم:

ـ يا ساتر.

رفعت عينيَّ ناظرًا إليه فتابع:

ـ استرها علينا كلنا يارب.

لم يأخذ الطريق أكثر من بضع دقائق، أعطيته ما طلب ونظرت إلى ساعتي وتحركت في اتجاه بوابة المستشفى، كان المكان مزدحمًا كالمعتاد، شجارات وصراخ وبكاء.. أجساد ملقاة على أرجل أهلهم ينتظرون السماح لهم بالدخول. البوابة كبيرة لكن الدخول صعب.. اخترقت الأجساد بصعوبة ووصلت إلى الحارس.

ـ في دورك يا أختي.

تعمدت أن أخفض صوتي وأنا أسأل:

ـ الدكتور فوزي أبو النور موجود؟

هز رأسه مؤمِّنًا وهو يقول:

ـ موجود لكنه في العمليات.. من أنت؟

ابتسمت وأنا أجيب:

ـ لن يعرفني.. سأنتظره إلى أن يخرج.

أجاب بخشونة:

ـ إذن قفي بعيدًا عن البوابة.

تحركت مبتعدًا عن البوابة، اتجهت إلى ساحة الانتظار التي لم يكن فيها الكثير من السيارات في مثل تلك الساعة، جلست فوق سيارته التي أعرفها جيدًا، راقبته بعد موت سميحة أكثر من ثلاثين مرة.. سيخرج في الساعة الثالثة تمامًا، وسيمر بين المرضى والمصابين بلا مبالاة وهو يتظاهر بأنه زائر خارج من المستشفى.. وإذا عرف أحدهم أنه الطبيب سيجيبه في غضب:

ـ الساعة الثالثة والربع.. انتظروا الدكتور قاسم.

وقاسم سيتأخر ساعة أو ساعتين.. والناس ستبكي وتتوسل، وبعضهم سيجري إلى مستشفى آخر، ربما سيحدث لهم فيه نفس الشيء.

انسابت دموعي من عيون سميحة وأنا أتذكر يوم موتها، لم يبقَ لي منها سوى هذا الجسد وذكريات مضطربة متداخلة لا تنتهي، مسكينة سميحة.. لا بد أن هذه اللحظات كانت أصعب عليك من كل السواد اللانهائي الذي عشتِه في حياتك، لم أفكر كيف كنت ترين ما حدث إلا بعدما ارتديت جسدك ورأيت الدنيا بعينيك، تذكرت ما حدث عشرات المرات إلا أنني هذه المرة أراه كما رأيتِه أنت.. حياتك بأكملها كانت صعبة وصاخبة ومؤلمة حتى النهاية، ما أراه من عينيك أصعب ألف مرة من كل الزوايا الأخرى.. أصعب مما رآه المرحوم ومما رآه سعيد ومما رآه كل البُله الذين كانوا يقفون ويحدقون ويتألمون بلا فائدة، الآن

أشعر بفزعك وأنت ترين الدماء الداكنة تسيل بغزارة، لا بد أن الألم كان يعتصرك.. أحب اثنين إلى قلبك يجريان في هلع.. الرجلان اللذان عشت تتفاخرين بحمايتهما لك لم يقدما لك أي حماية، يحملانك ويسقطانك.. يسلمانك لطبيب جاهل في عيادة عفنة ليُنزل جنينًا في شهره الخامس، يظنك عاهرة محترفة ولا يصدق أن هذين النطعين هما أخوك وزوجك، كالعادة مظلومة.. النزيف والجنين المعلق المتدلي تحت الجلباب يصيب الجميع بالرعب، المدهش أن الطبيب أيضًا بدا عليه الرعب.. فعل كل ما يعرفه لكنه لم يكن يعرف الكثير، ميت بعيادته المقبورة إلى جوارنا، الشيء الصحيح الوحيد الذي فعله هو أن أحضر سيارة أجرة من على الشارع وهو يصرخ فزعًا، السيارة تنطلق إلى المستشفى العام الكبير وأنت تبكين في صمت، نظرات عينيك تخترق عينَيْ زوجك الذي يحملك على فخذيه في عتاب قاس، تصرخين في ألم.. فيُخرجان كل ما كان معهما من المال ليسمح لهما الحارس بالدخول بها، وضعوكِ على «الترولي» المتهالك وجروا إلى الداخل ونادوا على الدكتور فوزي الذي جاء بتكاسل، تمتد يدكِ في ضعف محاولة ستر جسدك بعد أن رفع جلبابك في طرقة المستشفى وهو يفحص الدماء التي تسيل والمولود الميت فيدفعها الطبيب غاضبًا:

ـ أبعدي يدكِ.

لا أعرف إذا كنت لاحظتهما وهما يتحركان ليسترا جسدكِ بأجسادهما ونظرات عيونهما في عيون كل المتطفلين ألا تحدقوا هكذا.استروها يستركم ربنا.. ترك الطبيب طرف الجلباب وهو يقول في امتعاض:

- هذه حالة حرجة.. في الواقع مصيبة، لا أستطيع استقبالها هنا.. اذهبوا إلى مستشفى آخر.

لا أعرف كيف كانت مشاعرك.. لا بد أنك شعرت أن النهاية تقترب، لم يترك هذا الكلب حتى بضعة أمتار من الأمل لتعيشيه قبل أن ترحلي، بدلًا من أن تستريحي كان لا بد أن تصرخي وأنت ترين الشجار والضرب، تشعرين بالخوف كالمعتاد ولا تملكين شيئًا.

تنادين المرحوم الذي أمسك بتلابيب الطبيب.. وتصرخين لسعيد أن يحترس من ضربة ستأتيه من أحد الممرضين.. ويخرج صوتك واهنًا:

- يا مرحوم.. اتركه يا مرحوم.

تستنجدين بالممرض العجوز الذي سيُسكت الجميع ثم يصيح غاضبًا:

- لن يفعل لكم شيئًا ولن يستقبلها أي مستشفى حكومي.. اذهبوا بها إلى مستشفى خاص قبل أن تموت.

أنفاسك تتسارع.. يوقفنا عجوز طيب على باب المستشفى ويشير إلى سيارته التي أنزل منها بعض أقاربه منذ لحظات، ترددين في الركوب وتهمسين:

- خائفة أبقع الكنبة.

تنامين كالرضيع فوق جسديهما.. والدماء تسيل عليهما وأنت تعتذرين، لم تقولي الكثير:

- أنا لا أريد أن أموت.. أنا لم أعش بعد.

تصمتين لحظة ثم تواصلين:

- أنت السبب يا مرحوم.. استخسرت فيَّ أعمل مثل باقي الناس.

لم تقولي بعدها شيئًا.. خرجت منك شهقة واحدة عميقة، ربما شعرت بعدها فقط بسعيد والمرحوم وهما يتشاجران، وبالرجل الذي أوقف السيارة، نزل منها وفتح الباب وأمسك بيدك ثم قالها صارمة:

- خلاص يابني.. حرام عليكما.. الله يرحمها.. ثم سأل في خشوع:

- على البيت أم على المستشفى؟

- على المقابر.

- يابني البيت الأول.

- المقابر هي البيت.

صمت قليلا وهو يفكر:

- منها وإليها.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

تمتلئ عيناي بالدموع وأنا أتذكر موتها.. الآن سأحقق لسميحة أمنيتها، هي كانت ترى أن موتها كان ذنبًا في رقبة المرحوم، أنا الآن أرى أنه في رقبة «فوزي أبو النور»، أقسم إنني رأيته يأتيني بعد لحظات، يشير إليَّ في عجرفة لأنزل من على السيارة، نفس العجرفة.. نفس حركة يده المقيتة، تلفت حولي لأتأكد من خلو الساحة تمامًا.. نظرت إليه بغضب:

- ألا تذكرني يا دكتور؟

نظر إليَّ متفحصًا.. أجاب ببرود:

ـ لا.

أجبته بابتسامة باهتة:

ـ سميحة عبد السلام.. سميحة التي تركتها أنت تنزف إلى أن ماتت وطردتها خارج المستشفى من شهر.

بدا عليه الخوف وهو يجيب:

ـ ماتت؟ أنتِ مجنونة؟

عاجلته بلكمة في وجهه فسقط على الأرض.. ركلته في وجهه عدة مرات، جلست على صدره وهو يحاول أن يقاوم.. كنت جالسًا على صدره ووجهه خلفي وبطنه وساقيه أمامي وهو يصرخ في خوف، أخرجت المشرط الذي كان في جيبي ومزقت بنطاله بالعرض، عريت نصفه السفلي تمامًا، مزقت لباسه الداخلي، تعالت صرخاته فالتفت إليه وضربته عدة لكمات في وجهه، لم أكن أتكلم ولا كنت أسمع ما يقوله.. كنت منهمكًا في تنفيذ مهمتي.. أريد أن أعريه كما عراها وأن أتركه ينزف كما تركها، كان من الأسهل أن أطعنه وأجري لكن الحق حق.. والواجب واجب مهما كلفنا الأمر، لم أكن مستمتعًا.. لكن هذا قدري، من منا يستمتع بكل ما يحكم به عليه القدر؟

كنت أتجنب النظر إلى وجهه أثناء استكمال مهمتي.. شعرت للحظة بأن قلبي يرق له وأنا أرى دموعه تسيل بين الدماء التي على وجهه، استدرت وعدت لأجلس على صدره وأوليه ظهري مرة أخرى، استجمعت قواي وجرأتي.. غرست المشرط في أعلى فخذه

وقطعت بالعرض عدة مرات وهو يصرخ، لا أدرى كم مرة قطعت في فخذه إلى أن بدأت الدماء تتفجر في ضخات متتالية فتأكدت أنني قطعت شريانه الفخذي، أخذت أحدق في الدماء وهي تغطي نصفه السفلي كما حدث مع سميحة تمامًا.

استدرت إليه دون أن أقوم من فوقه وأنا أهمس:

ـ سمعتهم يقولون إن هذا الشريان صعب الإصلاح.. ستنزف كثيرًا إلى أن تموت، اعتبر أننا ذهبنا إلى المستشفى في ورديتك ورفضت دخولنا كما فعلت معي.. أنا أيضًا مت بسببك، العين بالعين والسن بالسن.

جلست أحدق في وجهه وهو يحاول أن يدفعني بعيدًا.. كانت قواه تخور رويدًا رويدًا إلى أن توقف عن الحركة في عجز، أخذت أنفاسه تتسارع ووجهه يشحب، قمت من فوقه.. انحنيت لألتقط مفاتيحه، استجمع قواه بصعوبة وقام يستند إلى سيارته، وقفت أراقبه وهو يأخذ بضع خطوات مترنحة بصعوبة سقط بعدها على الأرض فابتسمت، حملته بين يدي ودخلت به إلى السيارة، وضعته على المقعد الخلفي وهمست في أذنه:

ـ هكذا ماتت سميحة.. مثلما تموت أنت الآن، ظلت تنزف بين يدي لأنك رفضت أن تدخلها المستشفى.

جلست في المقعد الأمامي أراقبه مبتسمًا في هدوء، سألته بعد دقائق:

ـ هل تتذكر الآن؟

بدا عليه خوف شديد وهو يهمس بضعف:

- لا أريد أن أموت.

هززت كتفي ببرود:

- ولا هي.. كنت ساعدتها، الطبيب الذي كان في عيادة منتهية الصلاحية حاول.. تعاطف.. جرى معنا، أما أنت فكنت ترانا كلابًا، ذلك اليوم يا دكتور فوزي كان النهاية.. نهاية كل الأحلام التي كنا نحلم بأن نحلم بها.. أنا وسميحة متنا بسببك أنت يادكتور.

بدأ يهذي.. كان يبكي بأنفاس متقطعة، كلامه لم يكن مترابطًا أو أنا لم أكن أسمع كل شيء، كان يقول إنه ليس ذنبه .المستشفى والعناية المركزة.. بنك دم.. المدير.. وردية في مكان آخر.. قاسم يتأخر.

وضعت يدي على شفتيه وأنا أقول ببساطة:

- هششششش.. مت الآن في هدوء، ربما أفكر بعد ذلك في ارتداء جسدك لنعود سويًا ونحاسبهم جميعًا؛ قاسم زميلك ومدير المستشفى.. وربما وزير الصحة إذا كنت تريد، المهم الآن أن يرتاح جسد سميحة لترتاح روحها في السماء.

أغمض عينيه في يأس، ظللت جالسًا أحدق في وجهه لوقت لا أستطيع تحديده، ملامح الموت والخوف تتشابه على كل الوجوه.. القوي والضعيف والغني والفقير.. وسميحة وفوزي أبو النور، كنت أريد أن أنتظر إلى أن أتأكد من موته، أصابني فجأة هاجس شديد بأنني أظلمه، فوزي لم يقتل سميحة.. فوزي تركها تنزف وطردنا بها من المستشفى، نظرت إليه فزعًا وأنا أتأكد أنه لم يمت، كنت متحيرًا في تلك اللحظة.. فأنا لم أكن أعرف هل أنا

مكلف بالقصاص أم فقط بتحقيق أمنية سميحة، اعترفت لنفسي أن سميحة كما عرفتها طوال حياتي لو كانت حية لما انتقمت منه هكذا، لا زلت حتى الآن أعترف لنفسي أن ما حدث فيما يخص سميحة كان محاولة انتقام مني لها أو لنفسي، ولم يكن أبدا تحقيقًا لأمنية ما كانت لديها؛ لهذا ربما كانت جثتها هي الجثة التي فارقتني ولم أرها بعدها مرة أخرى.

وجدت نفسي أعود إليه مرة أخرى.. تنهدت مرتاحًا عندما وجدت أنه ما زال حيًا، خبطت على وجهه عدة مرات إلى أن فتح عينيه.. همست له:

- سأعطيك فرصة أخيرة.. سأتركك حيًا، جررته مرة أخرى خارج السيارة، وضعته على الأرض على بعد أمتار منها، تركت بابها مفتوحًا وقلت له قبل أن أبتعد:

- ازحف حتى سيارتك.. قد تصل وقد لا تصل، إذا استطعت أن تضغط نفيرها قد تجد من ينقذك، فتح عينيه مرة أخرى.. بدأ يزحف ببطء، مسحت أنا يدي في جلبابي الأسود الذي لم يظهر فيه لون الدماء، ابتعدت مسرعا، وعندما انطلق النفير عاليًا كنت قد ابتعدت بما فيه الكفاية لأسمعه ضعيفًا فأتنهد في ارتياح، لكني ربما أجد أنه كان يستحق القتل.أعود إليه مرة أخرى، أجره من السيارة جرًا وأعود به إلى المكان الذي كان فيه.. أطعنه عدة طعنات متتالية إلى أن أجهز عليه تمامًا، لا أدري أيهما أفضل.. أن أقتله أم أن أتركه؟

الأكيد الآن أنني وجدته أمامي بعد قليل.. يطلب مني بلهجته

المتعالية أن أبتعد عن السيارة، تلفت حولي مندهشًا.. إنه هو بالفعل، كل ما سبق كان من محض خيالي؟! ربما.. وربما أعاد الله لي الكرة لأقرر الأفضل، ربما أنا سبقت بروحي الوقت ثم عدت مرة أخرى إلى الحاضر، المهم أنه عندما طلب مني أن أبتعد عن السيارة نظرت إليه بغضب.. كورت قبضتي جيدًا ثم لكمته لكمة قوية أسقطته بالفعل على الأرض وهو يصرخ بغضب:

- أنتِ مجنونة؟ ماذا فعلت لكِ؟

التفت إليه وبصقت على وجهه بكل الغضب الذي كان كامنًا في صدري.. شعرت بالراحة وأنا أراه يخفي وجهه بين كفيه في رعب، أضفت إلى وجهه بصقة أخرى وأنا أصيح غاضبًا:

- أنت قتلتها وأنهيت حياتي، جعلتني شخصًا آخر في مكان آخر وعالم آخر، بصقت عليه الثالثة.. سمعت أصوات رجال الأمن يقتربون فانطلقت مبتعدًا وأنا أمسك بطرف الجلباب في يدي، بعد دقائق كانت مشيتي في الشارع أكثر ثقة وهدوءًا مما سبق، لم تكن هذه مشية سميحة.. بل مشية المرحوم.

العلامة السادسة

العقـــل

لا أدري عدد الأيام التي مرت بالتحديد إلى أن كنت جالسًا أمام المشرحة، لكن الوقت بعد كل مهمة يمر عليَّ ببطء شديد أو بسرعة شديدة على حسب ما حققت.. في الحالتين لا أستطيع أن أحصيه، كان مشهد الطبيب الذي كاد يموت بين يدي يريحني ويقلقني ومشهد الطبيب الذي لم أقتله يريحني أكثر مما يقلقني، تداخلت الصور في عقلي ولا أستطيع أن أؤكد لنفسي ما فعلته تحديدًا، غالبًا لم أقتله.. في الحقيقة لا أهتم كثيرًا، انتقامي من فوزي لم يكن أمرًا مباشرًا واضحًا، الأكيد أنني فعلت ما كان ينبغي عليَّ فعله من أجلها، كانت هذه هي خطوتي الأولى في عالم الفاعلين، تغيرت الأمور بعد ذلك.. أعتقد أن حالتي كانت ستسوء كثيرًا لو أنني قتلت الطبيب، الآن أقولها بثقة.. أخِّروا عمل اليوم إلى الغد إذا كنتم غير واثقين من أنكم تريدون عمله.. يمكنكم أن تفعلوه غدًا، أما ما تفعلونه اليوم فلن يمكنكم أن تمحوه مهما فعلتم، كذلك

الكلام.. يمكنكم دائمًا أن تقولوا ما لم تقولوه لكن لن يمكنكم أن تمسحوا ما قلتم من عقول كل من سمعوه، ميلاد وخليل وتريزا وفؤاد قصة ضخمة بنيت كلها على بضع كلمات، عندما يكون من يسمعون بلا عقول.. تتضخم الكلمات في رءوسهم الفارغة إلى أن تصبح عالمًا منفصلًا بذاته يتحكم في رأس صاحبه، لماذا أذكرهم جميعًا الآن؟ ربما لأنني لم أنسهم من الأصل.. تركوا في قلبي علامة كبيرة مؤلمة، عباس كان أفضل منهم رغم أنني لم ألحظ ذلك في البداية.. دخل حياتي وخرج منها بدون ضرر، بل على العكس، يمكن أن أكتب عنه علامة منفصلة أسميها.. عندما يغيب العقل ويبقى الجسد والفم.

عباس هو كبير عمال المشرحة منذ ما يزيد على عشرين عامًا، يقترب من الستين وإن لم يبد عليه سنه، طول قامته وضخامة جثته وملامحه الغليظة يعطيانه هيبة لا يستحقها عقله الذي لا يعرف سوى التخطيط لبيع وتأجير الجثث والبحث عن حبات الفياجرا مع كل من يعرفه من أطباء وطلبة من أجل أن يقضي ليلته في المتعة الوحيدة التي يعرفها.. أو غالبًا لا يعرفها.

عندما جاء عباس في الصباح كنت جالسًا على السلم أمام بوابة المشرحة، نظر إليَّ باشمئزاز اعتدته منه وهو يقول:

ـ صباح الخير يا دود الأرض.. رتبت المشرحة؟

هززت رأسي موافقًا وأنا أقول:

ـ خليل في الداخل.. يرتبها.

أجابني بحدة:

ـ وسيادتك رئيس القسم؟ ادخل ساعده.

نفخت وأنا أدير وجهي:

ـ يا فتاح يا عليم.

نظر إليَّ بغضب وهو يقول:

ـ فتح نافوخك.قم فز.

ظهر خليل فجأة وهو يقول:

ـ أنا خلصت يا عم عباس.. استرح يا مرحوم.

عاجله عباس بصوته الأجش:

ـ إلهي يرتاح على طول، وأنت يا خليل القرد.. شغال عنده؟ تعال دلك له ظهره طالما خلصت.

أجاب خليل باضطراب:

ـ لا شغال عنده ولا حاجة.. كلنا نساعد بعض يا عم عباس.

نظر إليه عباس نظرة مليئة بالقرف:

ـ طيب يا روح أمك.. أين الإفطار.

أجاب خليل على الفور:

ـ خمس دقائق فقط يا ريس.. ميلاد سيحضره وهو قادم.

نظر إليه في غضب:

- الله يلعنك أنت وميلاد في يوم واحد.. ألم أقل لك أن تأتي أنت بالإفطار؟

أفلتت مني ضحكة ساخرة.. كنت أعرف جيدًا عباس وما يدور في رأسه الأحمق الكبير.. التفت إليَّ غاضبًا:

- تضحك يا ظريف.. أعجبتك؟ داهية تأخذكم كلكم في يوم واحد.

تلعثم خليل وهو يقول:

- ميلاد هو الذي أصر على ذلك.. يريد أن يكرمك يا عم عباس.

مال عليه وهو يقول في حذر:

- ميلاد طيب يا عم عباس.. لماذا لا تحبه؟

امتلأت ملامحه بالامتعاض وهو يجيب:

- لا أحبه والسلام.. أنت شريكي؟

- يا عم عباس.. إنه يحاول أن يرضيك من أول يوم جاء فيه هنا وأنت لا تلين.

- ميلاد جاء هنا بالخطأ.. هذا المكان لا يصح أن يكون فيه عامل مسيحي، عورات مسلمين يا خليل.. صح؟

هز خليل رأسه موافقًا:

- صح.

وجهت كلامي إلى خليل:

- لا خطأ.. العورات كلها مكشوفة في المشرحة يا خليل، مكشوفة للجميع والطلبة والأطباء فيهم المسلمون والمسيحيون.. هل ميلاد هو المشكلة بين كل هؤلاء؟ طبعًا لا.. صح يا خليل؟

هز خليل رأسه نفس الهزة:

- صح يا مرحوم.

بدا على عباس الغضب وهو يقول:

- صح يا حمار؟ وأنت يا خريج المدارس.. لماذا تدافع عنه هكذا؟ كان من بقية أهلك؟ ميلاد هذا لو جاءت له الفرصة ليسيطر على المشرحة لن يبقي عليَّ ولا عليك، سيحضر جرجس ومايكل ومينا بدلًا منا.

قاطعه خليل في رجاء:

- ميلاد يحبك يا عم عباس.

علا صوت عباس وهو يشيح بيديه:

- عرفت إنك حمار.. هم لا يحبوننا ولا نحن نحبهم، ما الذي فعله الدكتور إدوارد عندما أصبح رئيسًا للقسم؟ نقلوني إلى قسم الكيمياء، ما دخلي أنا بالكيمياء؟ بعد عشرين عامًا من العمل في المشرحة أجد نفسي وسط زجاجات الحمض والبول! ماذا فعلت أنا للدكتور إدوارد؟ لا شيء، في أول يوم جاء فيه ذهبت وأخبرته أنني سأفعل كل ما يريده، قلت له إنني سأكون رَجُله في المشرحة.. هز رأسه وهو يقول: طبعًا طبعًا يا عباس.. ابتسامة صفراء وحديث ناعم، بعد ثلاثة أيام فقط كنت قد نقلت وجاء مكاني جرجس،

وجرجس طبعًا أحضر طقمًا كاملًا «أربعة ريشة»، تخيلوا يا عيال.. عمال المشرحة بالكامل أصبحوا مسيحيين.. والأولاد الذين لم يكونوا مثبتين تم الاستغناء عنهم، إلى أن ذهب في ستين داهية هو وكل الذين جاءوا معه بعد أن جاء الدكتور عمر وأعادني مرة أخرى، الوحيد الذي لم أتخلص منه هو ميلاد.. ذهب إلى الدكتور عمر ويدأ في المسكنة والاستعطاف ـ وهم أساتذة فيهما ـ وافق أن يبقيه وسمح لي بعاملين فقط غيره، يعني ثلاثة عمال فقط لكل هذه المشرحة، لا.. وأصر على أن يكون هناك عامل حراسة في الليل.. أول مرة نسمع عن مشرحة الكلية يحرسها عامل في الليل.. أتدري لماذا؟ لأن دكتور إدوارد أخبرهم أنه تخلص مني لأن بعض الجثث تختفي في الليل، هو من جعلني أبحث عن عامل يقبل المبيت هُنا ليلًا.. دخت شهورًا طويلة لأجد مجنونًا يرضى بذلك.. منك لله يا صادق أنت الذي ألقيت هذه البلوى في طريقي، قال المرحوم قال، يا أخي يا رب تموت أكثر ما أنت ميت، قلبت المشرحة رأسًا على عقب.. لم أعد أعرف أي شيء فيها، وما يغيظني أن راتبك يقترب من راتبي، تأكل وتشرب وتنام وتأخذ نقودًا، تغيب وتظهر وقتما تريد وطبعًا في المساء ترتع كيفما تريد.. بيت أبيك!! وحياة أمك يا مرحوم عندما أُجري الجرد إذا وجدت شعرة ناقصة من جثة سأخرب بيتك وبيت صادق في طلعة واحدة.

قمت من مكاني وأنا أضحك ساخرًا:

ـ تعال معي نعد الآن يا عم عباس.. ولو على المبيت.. تعال ونم أنت هنا بالليل وحلال عليك المرتب.

هز رأسه رافضًا في غضب:

ـ أنا مجنون مثلك؟ لكن من ناحية العد سأعد.. لكن على غفلة يا خفيف.

جلست مرة أخرى وأنا أقول:

ـ براحتك يا عبس.. لكن هدئ أعصابك.. أخاف يطق لك عرق.

بدأ يسب ويلعن بصوت غير مفهوم وأنا أبتسم ساخرًا.

ـ صباح الخير.

قالها ميلاد وهو يدخل علينا حاملًا كيسا بلاستيكيا كبيرًا.. أدار عباس رأسه في امتعاض وهو يقول:

ـ صباح الزفت على دماغك أنت الثاني.

وقف ميلاد محرجًا.. أنقذه خليل الذي قام ليأخذ منه الكيس وهو يقول:

ـ ما كل هذا؟ وليمة يا ميلاد؟

هز ميلاد رأسه في سعادة وهو ينظر لعباس في فخر:

ـ طبعًا وليمة.. أقل شيء من أجل عم عباس كبيرنا ورئيسنا.

نظر إليه عباس بوجه جامد ولم يجب.. اختلس نظرة إلى الكيس فلانت ملامحه قليلًا.. غاب ميلاد داخل المشرحة، مال خليل على عباس مبتسمًا:

ـ هل رأيت؟

مصمص عباس شفتيه على طريقة الحريم وهو يقول:

ـ حركات!

عاد ميلاد بعد قليل يحمل أطباقًا وأكوابًا وضعها أمامنا، بدأ يفرغ محتويات الأكياس واحدًا تلو الآخر وخليل يبدو عليه الجوع وعباس يختلس النظر وهو يخفي اهتمامه، أخذ ميلاد يوزع الطعام ويضع طبقًا تلو الآخر أمام عباس:

ـ مسقعة باللحم المفروم.. عجة بيض.. فول بالزيت والليمون.. طعمية بالشطة.. جبن بالطماطم.. بطاطس محمرة.. ولتر كولا.

ـ يا عيني يا عيني.. الله ينور عليك يا ميلاد.. بسم الله يا إخوانا.

ظل عباس ساكنًا.. وقف ميلاد وخليل ينتظران.. شمرت ساعديّ ومددت يدي إلى رغيف وقطعته وأنا أقول:

ـ كلوا يا جماعة.. عم عباس شبعان.

بدا عليه الغيظ وهو يقول:

ـ آه يابن المفجوعة.. أكل ومرعى وقلة صنعة.

نظرت إليه بغضب للحظة.. مددت يدي إلى لقمة فول ودسستها في فمي قائلا:

ـ كُل يا عم عباس.. ولا دخل لك بأمي.. كُل.

ظل ينظر إليّ وأنا آكل في نهم.. تجاهلته تمامًا، فصاح بصوته الأجش:

ـ لا دخل لي بأمك.. صحيح.. لكن لي دخل بالمشرحة، أنت تقبض

راتبًا يفوق ما يقبضه زوج القرود الجالسان أمامك لتبيت في المشرحة، أنا عرفت أنك لم تقضِ ليلتين في الأسبوع الماضي.

فردت أصابعي الخمس في وجهه وأنا أغمغم:

ـ خرجت ورجعت.. كفاية قر يا عم عباس.. ارحمني، تأخذ خمسين جنيهًا وتسكت؟

زاد غضبه وهو يقول:

ـ لا يا روح أمك.. لكن ثلاثة بالله العظيم لو عملتها مرة أخرى...

قاطعته وأنا أقول بفم ممتلئ بالطعام:

ـ معك حق يا عم عباس.. لن أفعلها مرة أخرى، اخصم لي يومين ودعني آكل.

انقضضت على الطعام وحدي.. تبعني خليل وهو ينظر لعباس مبتسمًا، وقف ميلاد يشرف على وليمته، يضع لنا الكولا والماء في الأكواب، تردد عباس قليلًا ثم بدأ يأكل هو أيضًا في توحش.

تتابعت الأيدي على الأطباق.. دقائق وانضم إلينا ميلاد عندما وجدنا نأكل في شهية، لم يكن هناك أفواه فارغة بما يسمح بالكلام.. دقائق وكانت الأطباق على وشك أن تفرغ تمامًا.

ـ أكل ملوكي.. عليك نور يا ميلاد.

قالها خليل وهو يمسح فمه بظهر يده.. ثم يبلع كوبًا من الماء ليفسح طريقًا لما سيأتي.

ضحكت وأنا أقول:

ـ سلام عليك يا ولد يا ميلاد، تعلم يا خليل.. آخرك طبق فول وقرص طعمية.. تسلم يا ميلاد.

ابتسم ميلاد في فخر، سأل عباس في خجل:

ـ ما رأيك يا عم عباس؟

رفع عباس رأسه وهو يقضم قطعة كبيرة من العجة اختفت في فمه سريعًا.. نظر إلى ميلاد في تردد.. لم يستطع أن يرميه بواحدة من جُمَله السخيفة وفمه ممتلئ بطعامه.. قال ببرود:

ـ تمام يا ميلاد.. تمام.

التفت إلى خليل:

ـ وأنت يا خائب.. اعرف منه مكان المطعم الذي جاء منه بالطعام.. بدلًا من العلف الذي تأتينا به في الصباح.

ابتسم ميلاد في فخر وهو يقول:

ـ لا يا ريس.. لن يعرف.

سأله عباس وهو يلقي في فمه بلقمة كبيرة مليئة بالمسقعة:

ـ لماذا يا ميلاد.. بعيد؟

ـ لا يا ريِّس.. أم أبانوب قضت الليل كله تحضر هذا الطعام لكي أحضره لكم طازجًا وساخنًا.. لهذا تأخرت.

توقف فم عباس عن المضغ فجأة، نظر إليه في ذهول، سأله ببطء:

ـ من أم أبانوب؟

ضحك ميلاد سعيدًا:

ـ أمي.. ما رأيك ياعم عباس؟!! تصلح أن تكون طاهية محترفة.. أليس كذلك؟

ارتسمت علامات القرف على وجه عباس، بصق اللقمة التي كانت في فمه، التفت إلى خليل:

ـ أرأيت يا خليل الزفت.. الله يخرب بيتك.

سأله ميلاد بجزع:

ـ ماذا حدث يا عم عباس.

قام عباس غاضبًا، انطلق يجري في اتجاه الحمام وهو يصيح:

ـ أكلتنا أكل مسيحيين يا ميلاد الكلب.. الله يقرفك ويقرف أمك، طبعًا صلت عليه ووضعت زيت القسيس وماء المناولة وبول الراهب.

وقف ميلاد ينظر إليه في حرج وهو يجري، قام خليل خلفه ليلحق به، نقلت نظري بين الثلاثة.. انفجرت في الضحك.. ثم واصلت الأكل في استمتاع.

محمود سلمان

عندما وصلت إلى المشرحة في الصباح تفقدَتْ عيناي المكان سريعًا بحثًا عن المرحوم، لم أكن أريده بل على العكس.. كنت أتأكد من غيابه، سألت عنه ميلاد الذي بدا لي مهموما فأجابني بصوت مكتوم أنه نائم في الاستراحة.

اتجهت إلى عباس الذي كان يجلس أمام المشرحة.. كان ممسكًا بزجاجة مياه يتمضمض منها ويبصق ويتمضمض ويستغفر.. اقتربت منه في هدوء وأنا أبتسم ابتسامة واسعة.. ناديته بتملق:

ـ صباح الخير يا عم عباس.

ـ خير؟ عدي يا رب هذا اليوم الأسود على خير.

ـ خير إن شاء الله يا عم عباس، أنا اسمي محمود.. طالب في البكالوريوس ومسئول عن مجلة الكلية، وكنت أريد أن أجري معك حوارًا عن جثث المشرحة وعن العمال وعن حكاياتك في المشرحة.. لننشرها في المجلة.

أشاح بيده في وجهي وهو يقول:

ـ لا حوار ولا حكاية يا دكتور، لست في حالة أقول فيها أي شيء، عفاريت الدنيا والآخرة تقفز في وجهي الآن.. دعني بالله عليك.

تذكرت ما فعله المرحوم مع ميلاد، مائة جنيه جعلته ينفذ كل ما أراده..

هززت رأسي في أسى مصطنع وأنا أنهض متباطئًا:

ـ خسارة.. مجلة الكلية تعطي مائة جنيه لمن يُجري معها أي حوار، وأنا خرجت من ذمتي خمسون أخرى.. الأمر لله، سأجري الحوار مع أي واحد من الصبيان.. بعد إذنك يا عم عباس.

ـ انتظر.

قالها عباس وهو يشير إليّ في ود:

ـ أنا المعلم هنا.. لن تجد من يخبرك ما تريد معرفته سواي.

جلست إلى جواره، أخرجت من جيبي مائة جنيه أعطيتها له وأنا أبتسم:

ـ مائة جنيه للمعلم.. وخمسون أخرى في نهاية المقابلة.

دس عباس النقود في جيبه وهو يقول:

ـ اتفقنا.. تفضل.. اسأل كما تريد.

أخرجت أوراقي وبدأت في الأسئلة.. بدأت بالحديث عشوائيًا عن بعض البيانات الشخصية والتاريخ الخاص بعباس وأنا أتظاهر بالكتابة، ثرثار مثل المرحوم تمامًا، يبدو أن حياة الموتى تفجر لديهم رغبة الكلام، قاطعته فجأة وأنا أسأل باهتمام:

ـ ما رأيك في المرحوم يا عم عباس؟

نظر إليّ عباس في شك:

ـ ولماذا المرحوم؟!

استدركت سريعا:

ـ الحوار فيه فقرة عن عمال المشرحة.. سأسألك عنهم جميعا بالترتيب.

رسم الابتسامة التلفزيونية الصفراء على وجهه وهو يقول:

ـ اسمع يا سيدي.. أنا عندي حاليًا ثلاثة، وأرجو أن تكتب أنه رقم قليل على مشرحة فيها أكثر من مائة جثة، المرحوم مسئول عن وردية الليل وخليل وميلاد مسئولان عن وردية النهار، والثلاثة أغبى من بعض.. لكنهم يقومون بعملهم على أكمل وجه بعد أن بذلت مجهودًا كبيرًا في تدريبهم بنفسي، علمتهم كيفية المساعدة في حفظ الجثث وكيفية توزيعها على الثلاجات وكيفية تقسيم البقايا إلى ما سيتم عرضه مرة أخرى وما سيتم دفنه في مدافن الصدقة، نحن لا نهين الموتى.. الجزء الذي يهان ويتمزق نقوم بدفنه مباشرة كما تقول التعليمات.

نظرت إليه ساخرًا:

ـ عم عباس.. هذا الكلام الجميل سأنشره، لكن أخبرني عن رأيك الحقيقي في الثلاثة.

بصق على الأرض بجوار قدمي فسحبتها في امتعاض، أشار إليّ معتذرا:

- لا مؤاخذة يابني.. الله يجحمهم كلهم في يوم واحد، ثلاثة ملاعين يا دكتور؛ خليل مسكين. أبواب الدنيا مغلقة في وجهه، لا تعليم ولا صنعة ولا خبرة، من العيال الذين يتمنون أن يفعلوا لك أي شيء لترضى عنهم طالما أنك المعلم، طول النهار يمشي خلفي وطوال الليل يتصل بي ليحكي لي كل شيء حدث في النهار، لا مانع عنده من أن يفعل أي شيء ليرضيني، يخاف من الجثث ومن الطلبة ومن الأطباء بنفس المقدار.. جبان لكنه مريح.. على عكس الزفت المرحوم.

أجبته على الفور:

- ماله المرحوم؟

- المرحوم.. لسانه طويل وجريء ولا يخاف من كبير ولا من صغير. ميزته الوحيدة أنه يعرف عمله جيدًا، يتعامل مع الجثث كما تتعاملون أنتم مع المرضى، لا خوف ولا قلق ولا قرف كأنه واحد منهم.. صحيح اسم على مسمى، أنا والله في البداية كنت أخاف منه على الموتى، كنت أشعر أنه خطر.. هو من النوع الذي تظنه ينام معهم أو يأكلهم.. لكن على العكس مصيبته أنه يحبهم، يخاف عليهم أكثر من أي شخص في المشرحة.. أعتقد أن أهلهم لو جاءوا لن يتعاملوا معهم كما يتعامل المرحوم، ألم تسمع عن مشاجرته مع المعيد الذي سقط منه كوب ينسون الصباح على واحدة من الجثث، ظل يمسح الينسون ويغسل مكانه بالماء وهو يلوم المعيد.. لم يتركه المرحوم إلا بعد أن وعده أنه لن يشرب أي شيء فوق الجثث مرة أخرى.. خاف منه! معلوم.. أنت لو رأيته ستخاف منه.. شكله مجنون.

قاطعته:

- أنا رأيته يا عم عباس.

حرك يده إلى جوار رأسه وهو يسأل في سخرية:

- شكله مجنون.. صح؟

مططت شفتيَّ في حيرة ثم قلت:

- المجانين ليس لهم شكل يا عم عباس. لكن إذا كنت تراه مجنونا لماذا لم تبحث عن غيره؟

ضحك ساخرا:

- لأن العاقل لن يقبل هذه الوظيفة.. ثم قال بجدية:

- على الأقل هو أولى من ميلاد.

تذكرت على الفور أن ميلاد كان جزءا من حكاية المرحوم. سألته في اهتمام:

- ميلاد مجنون مثله؟

هز عباس رأسه نافيا، نظر إليَّ طويلًا.. بدا لي أنه يريد أن يقول شيئا ما لكنه متردد، عرفت ما كان يدور في رأسه عندما قال في صوت مليء بالكذب:

- ميلاد ممتاز.. والحقيقة أنا لا أجد فارقًا بين مسلم ومسيحي في العمل، المسيحيون إخوتنا وأحبابنا، والطلبة والأطباء كلهم مسيحيون ومسلمون على العين والرأس.

أفلتت مني ضحكة شك فضحك على ضحكي وهو يقلب كفيه في استسلام. عدت إلى مايهمني مرة أخرى:

- كيف اخترتهم لهذا العمل؟

تنهد عباس وهو يقول:

- النصيب يابني. ميلاد عينه رئيس القسم السابق، وخليل قريبي من بعيد.. أما المرحوم فأرسله إليَّ الشيخ صادق؛ مقرئ قرآن من المقابر.. معرفة قديمة.

أخرجت من جيبي الخمسين جنيهًا الأخرى، أعطيتها له وأنا أسأل بصوت خافت:

- هل تعرف حكايات الموتى الموجودين في المشرحة يا عم عباس؟

فرد الخمسين جنيها في النور ثم وضعها في جيبه وهز [illegible] في فخر:

- طبعًا يا دكتور.. أنا الذي أتسلمهم جميعًا.. من ثلاجة المستشفى ومن مشرحة زينهم.. أعرف كل جثة جيدًا.

شعرت بدقات قلبي تتسارع وأنا أسأله:

- جميل.. أريد أن أسألك عن جثة.

نظر إليَّ في تساؤل:

- أي جثة؟

ملت عليه وأنا أهمس:

- جثة سميحة عبد المقصود.

نظر إليَّ عباس طويلًا في صمت ودهشة.. ثم انفجر فجأة في الضحك.. ضحكات متتالية خشنة ينبعث منها صوت الحشاشين، صبرت عليه إلى أن انتهى من الضحك وهو يقول بين ضحكاته:

- سميحة عبد المقصود.. آه.. موجودة في غرفة سبعة بجوار السلم، هل تظن أنك تزور مريضًا في المستشفى يا دكتور؟ وكل جثة لها اسم وملف؟

سألته في حيرة:

- ألم تقل إنك تعرفهم؟

واصل عباس الضحك:

- أعرفهم جثثًا ولا أعرف أسماءهم.. أعرفهم بالشكل والتاريخ يا دكتور، أعرف من أين أتت الجثة وهل كانت مريضًا مجهولًا في المستشفى أم جاء ميتًا في حادث ولم يُستدل عليه، لكني لا أعرف مَن سميحة ومَن مروة ومَن صفاء.. صباح الخير يا دكتور!!

العلامة السابعة

البشـــارة

كانت المقابر مظلمة تمامًا وأنا أحمل الجاروف المعدني الضخم داخلًا في المساء، مشيت على أطراف أصابعي لكيلا أوقظ أحدًا من الأحياء النائمين فيها، الأبواب مغلقة بأقفال كبيرة بعضها لامع وأغلبها صدئ.. سمعت أصواتًا عن بعد فارتعبت على غير عادتي، فكرت في الرجوع لكنني تذكرت أنني لا أملك ما أخاف عليه، كانت الأصوات آتية من الجزء الخلفي في المقابر.. عند مقابر الصدقة، الجزء الذي لا توجد فيه غرف.. فقط آلاف الشواهد المتجاورة في متتالية تزيد ولا تنقص، اندهشت عندما وجدت عشرات اللحادين الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم يحفرون في آن واحد.. والسيارات الضخمة تقف محملة بمئات الجثث، كنت أريد أن أسألهم عما يحدث لكني ترددت، فتحوا اللحود وتركوها مفتوحة ثم جلسوا جميعًا في ارتياح مَنْ أنهوا عملهم.. تسللت إلى واحد من اللحود المفتوحة واختبأت فيه، أشعلوا نارًا ثم أخرجوا من إحدى السيارات بضع جثث ألقوها

على الأرض.. بدأوا بجثة الصغير، شووها على النار وبدءوا يأكلون منها في تلذذ.. كان أحدهم يشرح أن جثث الأطفال ألذ ما يمكن أن يؤكل من لحم.. سريع النضج ولحمه طري كقطعة الملبن الأحمر، المهم ألا يكون طفلًا سمينًا لكي لا تفسد الدهون طعمه.. ضحك الآخر وهو يخبره أنه لا يوجد طفل سمين واحد في أي من تلك السيارات، كانوا يأكلون في سعادة، اندهشت لأن لحم الصغير لم يكن ينتهي، بل كان ينمو له لحم جديد مكان كل قطعة لحم تختفي لتكفي الجميع.

أتوا على كل ما كان فيه من لحم.. عاد الطفل مكتملًا مرة أخرى، جرى إلى السيارة ففتح الباب وتعالت الزغاريد من داخل السيارة، التفتوا إلى جثة المرأة.. كان بياضها شديدًا حتى إنها كانت تشع نورًا في الظلام، خلعوا ملابسهم وبدءوا في مضاجعتها بالتناوب.. لم يكن الأمر يستغرق طويلًا، كان جسدها يقفز طائرًا من فوق واحد إلى الآخر، طعنة واحدة من كل منهم كانت تكفيه لينقلها إلى الآخر وعلى وجهه علامات الرضا التامة، انتهوا منها جميعًا فعادت إلى السيارة، التفتت إليَّ في غضب، صرخت في أسى عندما عرفتها، سميحة.. ناديتها فأدارت وجهها بعيدًا، ناديتها فالتفتت إليَّ باكية بوجه فرحة، صرخت وناديتها فاستدارت مرة أخرى.. كانت بلا وجه، جرت سريعًا وعادت إلى السيارة فتعالت الزغاريد، خرج عشرات الرجال وناموا ممددين على الأرض ووجوههم إليها، قام اللحادون من مكانهم ليجلسوا على أجسادهم لتحميهم من التراب ومن جفاف الأرض.. لم أستطع الاحتمال، قمت من مقبرتي غاضبًا وأنا أصرخ.. تدافع اللحادون للهرب جميعًا، كانوا يصرخون في خوف: الميت صحي..

الميت صحي، فُتحت أبواب السيارات فتدافع الموتى خارجين في غضب، أمسكوا عشرات المعاول والفئوس والجواريف وجروا وراء اللحادين، كانت أصوات الرءوس التي تتحطم تصيبني بالامتعاض والدماء تتطاير لكني لم أكن أريدهم أن يتوقفوا، لم يعد هناك لحّاد واحد حي، نظروا إليَّ في حيرة.. ثم نظر بعضهم إلى بعض في حيرة أكبر، لم أكن خائفًا منهم.. ربما لذلك تجاهلوني تمامًا، ظلوا يتلفتون حولهم، أشرت إلى القبور ليُخرجوا أصحابهم ويرحلوا بهم بعيدًا، تحركوا مع إشارة يدي متدافعين.. قفز كل منهم في مقبرة مفتوحة وأغلقها عليه الآخر، حاولت أن أناديهم لكنهم لم يجيبوني، لحظات وكانت كل القبور ممتلئة ومغلقة على من ينامون فيها باطمئنان وكنت أنا جالسًا أمام النار وفي يدي فخذ طفل أقضم منه في تلذذ.

ارتفعت صرخاتي وأنا أستيقظ للمرة المائة مرتعبًا من كابوسي المعتاد، أعتدل جالسًا متلاحق الأنفاس لأجد طعم اللحم في فمي ورائحة الشواء تملأ المكان، أنظر إلى السماء هامسًا:

- يا رب.. لا أفهم شيئًا!! كل مرة أحتاج إلى ما يزيد على الساعة لأتمالك نفسي بعد ذلك الكابوس العجيب، بعدها أنتقل من الفزع إلى الحيرة. لماذا يخاف الأحياء من الأموات؟ المفروض أن العكس أصح، أصحاب الحياة أقوى من أصحاب الموت، لماذا رمشة واحدة من ميت قد تخيف آلاف الأحياء رغم أنها لا تساوي شيئًا؟ لماذا يهرب اللحّادون من الموتى؟ ولماذا أعتقد أنني شخصيا لو رأيت ميتا يتحرك ويجري عليَّ لفزعت وهربت؟ أعرف ما سيحدث الليلة، ستكون ليلة كئيبة وسأقضيها في

تساؤلات لا تنتهي، لا أستطيع أن أتحرر من جسدي في الليالي التي تأتيني فيها كوابيس كهذه، أشعر بأنني ملتصق بجسدي نعذَّب سويًّا، التفت إلى الجثث لأتفحصها واحدة تلو الأخرى بحثًا عن جسد سميحة، أين ذهبت؟ هل كانت هي بكل ما فيها كابوسًا آخر؟ لا.. ميلاد شاهد على وجودها في المشرحة، أين ذهبت؟ لماذا لا أجدها؟ هل يمكن أن يتحول جسد بشري مكتمل إلى مجرد كابوس؟ هذا أسوأ بالطبع.. فالأجساد يمكن أن تدفن.. أما الكوابيس فلا.

ألقيت الجثث على الأرض واحدة تلو الأخرى وأنا أسألها:

ـ أين سميحة؟ لا بد أن أحدكم يعرف.

انتظرت أن يأتيني الجواب من أي من الجثث الملقاة من حولي، كررت سؤالي بضع مرات، لا جواب ولا حركة، جلست على الأرض صامتًا لدقائق، أخذت نفسًا عميقًا من سيجارتي.. لا أدري لماذا ألحت عليَّ تلك الفكرة، ألقيت السيجارة على الأرض، وقفت أنظر إلى الجميع في تفكير عميق.. لماذا لا نصنف الجثث هنا في المشرحة؟ قررت أن أصنفها بنفسي.. لا يوجد لدينا جرد واحد يوضح الأصناف والأنواع.

ألقيت كل الجثث على الأرض.. جررت المناضد المعدنية وجعلتها صفًّا واحدًا في المنتصف، قسمت المشرحة إلى قسمين وضعت كل الذكور في ناحية والإناث في الناحية الأخرى، استغرق الأمر ما يقرب من الساعتين، كتبت على الحائط:

ـ ثلاثة وثمانون ذكرًا وست وعشرون أنثى.

مشيت بينهم في هدوء، أغلبهم لا أعرفه ولا يعرفني.. جثث مهترئة، ربما لأنها أقدم كثيرًا من جثتي أنا، بدأت أضعهم في مجموعات أصغر، كتبت على الحائط:

ـ أربعون ذكرًا عجوزًا، تسعة وثلاثون شابًّا، أربعة أطفال.. وست إناث عجائز وعشرون شابة.

درت بينهم دورة أخرى أتفحصهم في حيرة، ضممت أصابعي كما لو كانت منظارًا أدرته على وجوههم، اقتربت منهم مرة أخرى.. جمعت الأطفال ووضعتهم متراصين على مائدتين متجاورتين، أجلست الرجال وظهورهم إلى الحائط وأجلست النساء صفًّا وظهورهم إلى الحائط الآخر، ضحكت وأنا أنظر إليهم، شعرت بالارتياح.. هؤلاء عزوتي، أنا محظوظ.. لا يوجد في عمري من يمتلك أسرة كبيرة كهذه يعيش معهم تحت سقف واحد، ليتني أستطيع أن أهبهم جميعًا روحي ليعيشوا بها، فكرت في ذلك لكن أخاف.. أتذكَّر حلمي، من قال إنهم إذا أخذوا روحي لن يعودوا بها إلى هنا مرة أخرى؟! نومة المناضد المعدنية مريحة.. ربما عليهم أن يتحملوا تمزيق أجسادهم إن آجلا أو عاجلا، لكنهم في راحة واطمئنان بلا شك، لا يمكن أن يأتي صاحب مقبرة ليطردهم منها في الصباح ولا يمكن أن تقرر الحكومة تحويل مقابرهم إلى إسكان شعبي.. راحة، راحة واستقرار.

أعجبتني فكرة التقسيم والترتيب، التفت إلى الدواليب المغلقة فجأة، أخرجت منها كل القطع المنفصلة ورصصتها هي أيضًا، ابتسمت وأنا أكتب مرة ثالثة:

ـ أربعون رِجلًا وسبع عشرة ذراعًا وخمسة رءوس فقط.

جمعت القلوب والأكباد والرئات والأمخاخ في كومة واحدة.. فكرت أن أقسمها لكني كنت قد مللت.. تنهدت في ملل:

- كلها أحشاء.

وقفت في المنتصف على المنضدة متسائلا في استعطاف:

- هل يمكن أن يخبرني أي منكم أين سميحة؟

لم يأتني أي رد، كان الكل عاريًا والسخونة تجتاح جسدي، خلعت ملابسي كلها.. نزلت إلى المنتصف، جلست بين الرجال وأسندت ظهري للحائط مثلهم فشعرت بالكثير من الارتياح وشعرت أنني بالفعل واحد منهم، لم أكن قد حكيت لهم قصتي قبل ذلك، خفت أن تكون سميحة حكت لهم ما حدث من وجهتها هي فقط، لا أعرف اللغة التي يتحدث بها الموتى.. ربما بالصمت وربما بالأرواح، كان لا بد أن أدافع عن نفسي.. حكيت لهم كل شيء، سميحة ماتت وهي تنظر في عينيَّ، تتهمني أنني كنت شريكًا في قتلها، هي التي أحبت وهي التي تزوجت عرفيًا.. كانت تخاف الحرام، أبوها لم يكن يريد لابنته أن تتزوج من ميت حي اسمه المرحوم، ما الذي حدث؟ زواج عرفي وجماع بين غرف الدفن وشواهد القبور، المكان مفتوح.. والكلاب تعوي كل خمس دقائق، أقدام تمر حتى ولو كنت اخترت مكانًا خفيًا لن يراك فيه أحد، حاجة تقصر العمر.. وتقصر كل حاجة والله، لا أعرف من أي داهية جاء الحمل! نصيب.. وسعيد كان هو الناضورجي، كان يرى أن زواج سميحة من المرحوم هو أسعد يوم في حياته.. أخته وصديق العمر، في النهاية دفع الجميع الثمن، لم يبق سواي.. لا يعني هذا أنني أتحمل ما حدث لهما، إنه القدر.. ربما

ادخرني لأنني عليَّ واجب كبير، وربما كان ما حدث لهما هو أول خطوة على طريق رسالتي، الضحايا الأولى على مذبح الرسالة.. أبوها كان يتهم ابنه بأنه ديوث لكنه لم يكن كذلك، هو بنفسه كان شاهدًا من شهود العقد.. سنة الله ورسوله، كان يحبها مثلي وأكثر.. وأعرف أنه كان يحبني مثلها وأكثر، عندما عرف أبو سميحة من سيدنا الشيخ.. انتظر العريس والعروس ونزل عليهما بالشومة وسط المقابر، سعيد كان يحوش عن الجميع بما في ذلك هو نفسه، والله كان أصيلًا، أبوه كان مفتريًا - الله يرحمه - يضرب بمنتهى الغل، ما الذي أغضبه؟ كان ينتظر العريس الغني؟! داهية تأخذه، قرفنا طوال عمره، أخذته داهية فعلًا بعد ثلاثة أشهر من ضربه لنا.. صدمته سيارة وهو يعبر الطريق جريًا ليلحق الأتوبيس، لماذا لم ينتظر الأتوبيس الذي يليه.. نصيبه، لحقت به زوجته بعد أيام، لا أحد يقتل أحدًا.. أعمار، لماذا لم تعرف سميحة ذلك؟ أنا لم أقتلها؟ هي التي أخلّت بالاتفاق، ربما نريد كلنا أبناء لكنهم لن يريدونا.. لماذا؟ ماذا أخذنا نحن لنعطيهم؟ حتى النومة النظيفة لن يجدوها، المصيبة.. سيعيش الصغير عمره كله في مقبرة لا تصلح للحياة لكن تصلح للموت، لكن يوم الموت لن يُدفن فيها.. ليس لنا إلا مدافن الصدقة التي لا تصلح للموت ولا للحياة.. تخيلوا، أنتم تعرفون معنى أن تموت ولا تجد أرضًا تلم جسدك؟!! وبروح أمها راحت تحمل.. أخفت الحقيقة إلى أن تخطت الشهر الرابع.. لم أكن أريده، أصرت على أن تحتفظ به فتأخرنا أكثر، لم نطلب منها أن تتخلص منه بمعرفتها.. ذهبنا إلى عيادة طبيب على ناصية المقابر، لم أكن راضيًا عما يحدث لكني الآن أفهم، الغريب أن هذا الطبيب بالتحديد كان يُجري في اليوم عشرات الجراحات لنساء حملن في

الحرام ويعشن، أما سميحة فماتت ولم تتحمل.. قالت لي وهي تتألم إن ما حدث كان عقاب ربنا لأن ما حدث كان حرامًا.. أيهما الذنب الأكبر؟ التخلص من الحرام في الحرام أم التخلص من الحلال في الحرام؟ لا تعرف؟! لا أعرف، ولا سميحة ولا الطبيب ولا أحد، الخلاصة سميحة ماتت.. لكن أين ذهبت جثتها الآن؟

قمت غاضبًا أدور باحثًا عن جثتها في كل مكان وأنا أصيح:

ـ يا سميحة.. يا سميحة.

الجثة لم تعد في المشرحة.. اختفت ولا شك، المصيبة أنها قد تكون سُرقت، لكن من؟! ميلاد أم خليل أم عباس؟ لا رابع لهم، لا أستطيع أن أواجههم لكني سأعرف، وأيًّا كان من أخذها.. لن أرحمه، شعرت برغبة عارمة في الخروج من المشرحة، انطلقت خارجًا.. كنت أحتاج إلى مكان مزدحم، الزحام يجعلني أشعر بحياتي، أخذت أتفحص الوجوه في الشارع، وأنا لا أعرف إلى أين سأذهب.. تعبت.. جلست على الرصيف منهكًا، الحيرة تملؤني، كنت مشتتًا بين الحلم الذي يراودني من آن لآخر وبين الحقيقة التي تقول إن سميحة ضاعت، هل يمكن أن أجد جثتها غدًا أو بعد غد على واحدة من مناضد المشرحة؟ ما معنى الحلم الذي يأتي؟ رؤاي ليست كرؤى البشر، طالما جاءني الحلم فله مغزى، فكرت طويلًا في معناه، الموتى يظلون موتى مهما حاولت معهم.. سيعودون إلى المقابر ليسكنوا فيها ولن يأخذوا ما فعلته من أجلهم ليصنعوا حياة جديدة، كل ما يريدونه في النهاية هو العودة الهادئة إلى قبورهم وأن يهال عليهم التراب في سلام.. ربما تكون سميحة قد فرت وعادت

إلى التراب كما فعل كل هؤلاء الذين كانوا في الحلم، الموتى يظلون موتى.. الموتى يظلون موتى.. الموتى يظلون موتى، لو تحركوا معك أو فعلوا شيئًا سيكون ذلك من حلاوة الروح، سيتبعها موتٌ طويلٌ مرةً أخرى، كررتها عشرات المرات.. هذه علامة جديدة، تمامًا مثلما حدث معي في بدايات أيامي في المشرحة؛ صباح واحد هناك رأيت فيه كيف يعدون الجثة ويحولونها من جسد فانٍ إلى جسد باقٍ، كنت منبهرًا وأنا أرى بساطة الأمر.. من هؤلاء البشر الذين وقع عليهم الاختيار ألا يأكل الدود جثثهم؟ محظوظون.. ومن هؤلاء الذين وقع عليهم الأمر بأن يقطع جسدهم بعد أن خرجوا به من الدنيا قطعة واحدة؟ ملعونون.. إذن من هؤلاء الذين سيقعون في طريقي لأحفظ أجسادهم من الدود ومن التقطيع؟ هؤلاء هم المختارون.

سهولة كل شيء أغرتني بما يكفي لأعود في الليل وأفتح المقبرة لأضع جثة الصغيرة وأستخرج جسد سميحة لآخذه معي، كان لا بد أن تكون البداية سميحة.. كنت فقط أريد أن أحتفظ بها معي كما كنا دائمًا معًا، لم أحتج إلى أن أحمل جثة أخرى على كتفي بعدها، كنت أتحدث يومًا مع عبده ـ سائق سيارة الموتى ـ وأخبرته أنني نقلت شقيقتي المريضة من المقابر إلى المستشفى منذ بضعة أيام، ضحك وهو يقول لي لو تريد نقل جثة أبيك الله يرحمه تحت أمرك.. مائتي جنيه في النقلة والدفع بعد تصريف الحاج، اندهشت.. عبده فهم أنني أسرق جثثًا أو أشتريها لأتاجر فيها، وسيأخذ مني بالآجل، كل شيء يزداد سهولة.. هكذا يوجهنا القدر إلى ما يجب علينا فعله، ألح عليَّ هاجس أن ذلك لن يكونَ هباء.. لا بد أن وجود جسد سميحة معي وراءه غاية، عندما أضفت إليه قدرتي على الخروج والعودة إلى

جسدي.. وقدرتي على دخول المقابر والخروج منها وعلى دخول المشرحة والخروج منها وعلى الانتقال في سيارة آمنة من الباب إلى الباب والراتب الكبير الذي لن أحتاج إلى الإنفاق منه إلا على ما يساعدني في مهمتي.. بدا الأمر وبدأ.. هذه رسالتي مع الموتى، وتلك الرؤيا التي تأتيني كانت هي علامتي الأولى للبحث في أماني الأحياء، لكن كيف؟ أنا لم أستطع أن أنقذ نفسي.. أنا شخصيًا حتى أعجز من أن يعيش حيًّا، لكن قد تكون هذه هي رسالتي.. أبث من روحي وعقلي في نفوس الأحياء والأموات لأصنع منهم شيئًا آخر، شيئًا أفضل مني ومنهم، أصحاب الرسالات هكذا.. أميون صنعوا علماء.. مسالمون صنعوا محاربين، لا بد أنني من الممكن أن أعطي شيئًا ما.

المدهش أن عيني في تلك اللحظة بالتحديد وقعت عليه هو، وسمعته وأنصت إليه هو، لم يكن من الممكن أن أعتبر ذلك مصادفة، وأن هذه الكلمات التي كانت تتردد فيَّ لم تكن تكليفًا، استغفرت لغبائي.. إنها البشارة، أستطيع أن أبدأ رسالتي الحية معه هو.. طالما فكرت فيه قبل حتى أن يأتيني الأمر، أنا الوحيد بين كل المارة الذي بدا مهتمًا بما يقوله، حتى أكثر منه هو، ما الذي جاء بي وبه إلى هذا المكان الآن، هو أيضًا كان مأمورًا بلقائي اليوم لكنه كان أجهل من أن يعرف ذلك، قلتها لنفسي صريحة.. رسالتي ليست فقط لمن يأتيني من الموتى بل من الأحياء أيضا، عليَّ ألا أنساهم طالما جاءتني البشارة.. وربنا هو المعين.

ـ لا توجد سميحة يا مرحوم.

قلتها للمرحوم وهو جالس إلى جواري في سيارتي في ذلك الصباح، كان ينتظرني أمام المشرحة مرتديا الملابس نفسها المعتادة. بدت عليه السعادة عندما أشرت إليه ليركب، غابت ابتسامته تماما عندما سمع ما قلته، نظر إليَّ في دهشة.. تابعت:

ـ أنا سألت عم عباس.. أجابني أن كل الجثث هنا مجهولة، يعني هذا الاسم ليس موجودًا وغالبًا قصتك بأكملها لم تحدث، أو ربما سميحة كانت فعلًا موجودة في حياتك.. لكنها ماتت وأنت تظنها لازالت موجودة أمامك.. حالة نفسية.. مجرد تهيؤات.

عاد يبتسم ساخرًا:

ـ ما هي التهيؤات التي تتحدث عنها؟ الجثة التي كانت هنا؟ أم ميلاد الذي جاء في النوم وأيقظني؟

- ربما كنت تحلم.

- وميلاد؟ هل كان يحلم هو أيضًا؟!

تنهدت في حيرة:

- على الأقل تلك الجثة لم يكن اسمها سميحة، سميحة هي مجرد كابوس يأتيك من وقت لآخر؛ ولذلك لا تجدها الآن.

- اسمها سميحة.. وكانت موجودة هنا.. وأنا أعرفها أكثر منك يا دكتور.

فتح باب السيارة غاضبا:

- لا تضيع وقتك يا دكتور.. إذا كنت لا تصدقني فما فائدة هذا الحديث؟

أمسكت بيده:

- انتظر يا مرحوم.. أنا لم أقل إنك كذاب.

مط شفتيه في امتعاض:

- لا فارق.. كاذب أو مجنون أو مصاب بتهيؤات.. في النهاية أنت لا تصدقني فكيف ستساعدني؟

تنهدت مستسلما:

- معك حق. لكن أنت قل لي كيف عرفت اسمها إذا كانت كل الجثث مجهولة؟

هز المرحوم كتفيه:

- سميحة عبد السلام كانت زوجتي يا دكتور.

- زوجتك؟!

نظرت إليه في دهشة.. نزلت من السيارة وأشرت إليه فمشى خلفي، اتجهنا نحو المقاعد الموجودة في واحد من الجوانب الخالية في مثل هذا الوقت من الصباح.

أجلسته وأنا أسأل في صوت خافت:

- وماذا تفعل زوجتك في المشرحة يا مرحوم؟

أجاب بأسى:

- مهمومة.. لا تريد أن تستريح في الأرض.. كان لا بد أن أريحها أولًا.

نظرت إليه في حذر:

- أنت قتلتها يا مرحوم؟

صاح بفزع وهو ينظر إليَّ بعينين دامعتين:

- أنا أقتل سميحة.. تنقطع يدي.

- إذن كيف كانت في المشرحة؟ هل ماتت هنا؟

هز المرحوم رأسه نافيًا.

بدأ المرحوم يتحدث بصوته الهادئ، حكى لي حكاية طويلة عن وفاتها أثناء نزيف حدث أثناء الحمل، المشكلة التي فهمتها أنه كان حملًا متقدمًا.. لم يكن هناك مجال لنزول الجنين بالطرق التقليدية،

كان لا بد من إجراء جراحة بحد أدنى من التجهيزات، طبعًا فشل طبيب العيادة الأولى، وطبيب المستشفى الحكومي لم يقم بمثل هذه الجراحة ولن يقوم بها إلى أن يتقاعد لأن المستشفى غير مجهز؛ لذلك اعتبر المرحوم نفسه شريكا في قتلها.. قتلها بجهله وخوفه من المستقبل ورؤيته للطريق على أنه سواد خالص، طريقه بالفعل كان يبدو كذلك إذا صح ما قاله. لا أستطيع أن ألومه أو أن أشرح له ما جاء في كتاب «The secret» عن دور التفاؤل والتفكير الإيجابي الذي يحقق المستحيل.. لا أعرف هل إذا جاءت الكاتبة وأقامت في الحوش الذي كان يعيش فيه المرحوم ستصر على موقفها أم لا؟ غالبا السر الوحيد الذي سيخرج منها بعد ليلة واحدة في الترب أو المشرحة هو السر الإلهي. أحيانًا يكون كل الكلام الحكيم والمنمق مجرد أساطير عندما يوضع على أرض واقع في منتهى القسوة. يقولون إن القطط تأكل أولادها إذا خافت عليهم.. تأكلهم أحياء.. ما الفارق الجوهري في الحياة التي عاشها المرحوم وحياة القطط الضالة؟ ربما العقل.. النعمة الإنسانية المنفردة، والتي بنيت عليها كل النعم الأخرى، في أشخاص مثل المرحوم قد يكون العقل نقمة، يجعنه يشطح بعيدا من آن لآخر. هو الذي قيّم خبرته وتجربته فقرر أنه لا يريد أن يعيشها طفل من بعده، هو الوحيد الذي يعرف كيف ولد ونشأ وعاش وتربى، لا أدري لماذا وجدت نفسي أسأله في تردد:

- كنت تخاف من الموتى في طفولتك يا مرحوم؟

ابتسم في هدوء وهو يجيب:

- بالطبع لا.. كنت أحبهم، كان يوم الدفنة بالنسبة لنا هو يوم عيد؛

نقود وطعام وناس أشكال وألوان ستأتي لنا، فرحة وانفراجة في البيت، لا أذكر متى بدأت أنزل معهم القبر وأضع الجثة وأساعد في الدفنة لكني كنت طفلًا أعمل معهم سعيدًا بدعوى أنني كبرت وأصبحت رجلًا رغم أنني لم أكن كذلك بعد، عندما كبرت قليلًا كنت أعتبر أن كل ميت في مقابرنا بلدياتي مثلما تعتبر أنت دفعتك في الكلية حتى لو لم تعرفه، أتدري يا دكتور.. أطفال المقابر يزحفون على الأرض كأطفالكم.. ويلتقطون منها ما يضعونه في فمهم مثل كل الأطفال، أتعرف ما هو أكثر شيء موجود عندنا في الأرض؟ الدود.. هل تتخيل كم صغير من عندنا كان يزحف وَضَعَ دودة في فمه وابتلعها؟ هل تعرف ما أكلته هذه الدودة؟ واحد من الأموات، خلدته في داخل الصغير.. وتقول أخاف من الموتى!! أنا عندما كنت صغيرًا وأخاف في الليل كنت أخرج لأنام على مقبرة ميت دفن حديثًا لأستأنس به.. هذه هي علاقتي بالموتى وأنا طفل.. هل تريد المزيد؟

الحقيقة أنني كنت قد اكتفيت.. منظر الصغير وهو يبتلع الدودة كان يتراءى لي ويشعرني بأحاسيس مختلفة أغلبها مقزز، أشرت له أن يتوقف.. قررت تغيير الموضوع، المرحوم لم يعش طفولته وكفى:

- وسميحة متى ماتت؟

غابت ابتسامته وهو يقول:

- سميحة بالذات طول عمرها ميتة يا دكتور، الطفولة نفسها مع بعض الاختلافات.. أقول لك ما أتذكره؟ عندما كانت في السابعة من عمرها ماتت عندما جاءوا لها بامرأة قبيحة قطعت جزءًا من

جسدها من أجل الطهارة، واحتفل أبوها وأمها بها وهي تصرخ من الألم ومن الدماء التي سالت منها، لم تفهم وقتها ولا بعدها كيف أصبحت طاهرة.. فلا شيء تغير فيها سوى ذكرى الألم، رائحتها النفاذة لازمتها إلى أن دخلت المدرسة ودفعتها المُدرسة بعيدًا عنها لأنها اشمأزت من رائحة لم تمنعها الطهارة، أمها وأبوها اللذان قطعا من جسدها لم يفكرا يومًا في إزالة الأوساخ التي كانت تكسو جسدها، ولا في تغيير فستانها الوحيد وملابسها الداخلية المهترئة، لم تكن سميحة طاهرة.. كانت رائحة البول تفوح منها في طفولتها، هي التي بدأت تنظف نفسها بنفسها بعد أن علّمتها مُدرسة الدين كيف تفعل ذلك، سميحة وأمثالها لا يذهبن إلى المدرسة ليتعلمن.. يذهبن فقط لأنه أصبح صيحة في المنطقة.. وجاهة، كما أنه مهم من أجل الزواج.. لذلك عندما تزور المقابر يجب أن تفرق بين من «يذهبون» إلى المدرسة ومن يتعلمون.. مشوار التعليم طويل وصعب، أما مشوار الذهاب فمن السهل إيقافه سريعا بمجرد الحصول على اللقب.. لماذا؟! من أجل الزواج.. العمل.. الملل.. أي شيء! لا يهم، يكتفى بمسمى الذهاب إلى المدرسة، تسمع عندنا صغيرة تقول معي ثانية ابتدائي.. معي رابعة ابتدائي، خرجن لا يعرفن كيف يكتبن أسماءهن لكن في السن التي ذهب الجميع فيها إلى المدرسة ذهبن ثم سحبن أو انسحبن والحجة موجودة؛ ذهبت لكنها لم تنفع.

أمها لم تهتم بأن تراها إنسانة بعقل.. لأنها لا تعرف أن المرأة لها عقل، كلهم يعرفون أن المرأة لها شيء آخر أهم.. مع ذلك أمها لم تخبرها شيئًا عن الدماء التي ستتدفق من جسدها يومًا ما من ذلك

الأهم، ولم تخبرها شيئًا عن الطهارة الحقيقية التي تحتاجها بعد أن تجري دماؤها، بكت ليوم كامل وهي تظن أن مكان الجرح ينزف مرة أخرى بعد عامين من المرة الأولى، لم تجد أحدًا يخبرها شيئًا عما يحدث، لجأت إلى ذكر.. الذكر الوحيد الذي كان يسمعها والوحيد الذي سألها لماذا تبكي، هو الذي مد يده ونظر ثم خلع قميصه ليمسح دماءها ومزقه ليصنع لها «فوطة» تحتفظ بها إلى أن تتوقف الدماء، تركت له كل حقوق الاطلاع على هذا الجسد الذي كان يكتمل يومًا بعد يوم، له على هذا الجسد كل حقوقه.. يدعك صدرها ويتحسس فخذيها ويعبث كيفما يريد، المهم ألا يخترق الحد الوحيد الفاصل بين الطهارة واللاطهارة، لا أحد يعرف سواها. من اطلع على جسدها غيره، قد يكون أباها؛ الذي أخبره واحد من أصدقائه أن بناتكم مما مملكت أيمانكم.. وأن من حقه أن يفعل فيها ما يشاء طالما لم يمس غشاء بكارتها، وقد يكون واحدًا من أصدقائه الذين يسهرون معه يسحبون عشرات الأنفاس من الحشيش ويخرجون ليتبولوا خارج الغرفة فيجدونها نائمة وقد تكور جسدها وانكشفت فخذاها ولم تجد ما تتغطى به.. فيعبثون بجسدها وقد كتموا فمها وهم يهمسون في أذنها:

ـ لا تخافي فلن أوذيك.. يتركونها بعد أن يكتفوا أو يسمعوا صوتًا يقترب لآخر يخرج من الغرفة، فيهرولون وهم يهمسون في أذنها ألا تخبر أحدًا.. قد يتسلمها الآخر فيفعل نفس الشيء، وأخوها الصغير كان عاجزًا عن فعل أي شيء سوى أن يقذفهم بالحصى من بعيد، كانوا يَجْرُون دون أن يلتفتوا.. أما هي فلم تكن تستطيع أن تصرخ خوفًا من الفضيحة، فالفضيحة ستكون من نصيبها

وستكون عقبة كبيرة في طريق تحقيق الأمل الوحيد لها للنجاة من هذه الحياة.. الزواج. الخير الذي لم تكلمها أمها منذ سنوات عن أي شيء سواه ولم تدعُ لها أمها بأي دعوة غيره، كل البنات اللاتي عرفتهن كن يحلمن فقط بالزواج، تخيل يا دكتور.. جمال محدود ومال معدوم وأهل يجلبون العار، من يرضى أن يتزوج سميحة وهي على هذه الحال؟!! لا تملك من مؤهلات الزواج أي شيء سوى أنها أنثى.. أنثى تثير الرجال، كل البنات يفعلن ذلك، حتى هنا.. الفارق أن بناتكم يمكنهن أن يُثرن الرجال بطرق متعددة؛ الملابس ضيقة ومفتوحة وعارية.. العطور التي تغطي رائحتها على رائحة الفورمالين هنا في المشرحة.. المشية الراقصة الرقيقة، كل هذا سيكون مقبولًا لأنكم أولاد ناس.. أما فرحة وأمثالها.. فليس لها سوى طريق واحد لإثارة رَجُلها.. أن تتركه يعاين البضاعة، والمهارة أن تعرف متى توقف الزبون ليأتي إلى البيت من بابه، إذا فشلت في السيطرة على الزبون ومنحته عينة مجانية سيطير من يدها إلى الأبد، وسيكون عليها البحث عن زبون آخر، والبضاعة أصبحت معيوبة.. فلا بد من بياع شاطر، لماذا تبدو ممتعضًا؟ هل لديك أفكار أخرى؟ أمها ستضطر أن تتركها تخرج مع شباب المنطقة واحدًا تلو الآخر وستغض الطرف عن ذلك، وستنهر أخاها وربما تصفعه إذا ضرب أخته وصاحبها عندما يراهما وسط المقابر.. تسأله سؤالًا حقيرًا:

ـ كانا بملابسهما أم لا؟

سيرد بالإيجاب، فتبتسم في رجاء:

ـ خلاص.. يبقى إن شاء الله خير، هو تقدم لي، يعني هما في حكم المخطوبين.

وسيرحل بعدها.. لأنه لم يكن يفكر في الزواج منها، وسيظهر خاطب آخر، وآخر.. وفرحة تحاول أن تقتنص واحدًا منهم، وأمها تداري عليها وهي تقارن في كل ليلة بين قسوة اللقبين.. تتخذ قرارها على مضض.. لقب العاهرة يُمحَى سريعًا بمجرد الزواج، أما لقب العانس فيدوم.. والله غفور رحيم، وأخوها يبكي من الغيظ كل ليلة رغم أنه لا يبكي أبدا.. لكنه هو شخصيًا ضعيف لأنه يتمنى أن تتزوج فرحة وتستريح من حياة المقابر، ويخاف أن يمنعها مما تفعل فيكون هو السبب في أن يوقف سوقها في المنطقة؛ فهو يعرف جيدًا أنها لا تملك شيئًا آخر، وهو شبه متأكد من أن زوج أمها الكلب يراودها عن نفسها كلما ابتعد هو؛ لذلك فهو يلازم البيت.. ويتشاجر مع زوج أمها يوميًا والأم تبكي وفرحة تبكي لكنها لا تتزوج؛ سُمعتها أصبحت تسبقها.

قاطعته مستفسرا:

ـ يا مرحوم.. أنت تتكلم عن سميحة.. من هي فرحة؟

ارتسمت على شفتيه نصف ابتسامة وهو يقول:

ـ أنا قلت فرحة؟!

سألته في حرص:

- فرحة أختك؟

لم يجبني.. تجاهلني وهو يواصل الحديث:

- فرحة مثلها مثل سميحة ومثل فاطمة وسنية وتريزا زوجة ميلاد التي تنغص عليه حياته، الفروق بسيطة.. سميحة تزوجت، فما الذي جد عليها؟!! ذل من نوع مختلف.. بالطبع تزوجت من كلب من الفصيلة نفسها، فصيلة الكلاب البلدي التي تعيش في التراب وتنام عليه، يضربها حسب مزاجه.. وينام معها حسب مزاجه ويطردها من الحوش حسب مزاجه، وطبعًا هي لا ترحل.. لأنها إذا رجعت البيت ستُضرب بالحذاء وتعود له ذليلة، فرحة كانوا يعيرونها بأنها لم تتزوج وسميحة كانوا يعيرونها بأنها تزوجت المرحوم ويعيرونها بأنها لم تنجب، عالم وسخ.. كل من فيه يبحث عن عيب يعير به الآخر، لكن سميحة كانت تنجب.. ابن الكلب هو الذي كان يجبرها على أن تأخذ الأقراص.. يأتي لها بها من الصيدلية.. يضعها في فمها بالقوة، كل شيء كان يفعله بالقوة.. الله يخرب بيته ضيعها.

- أبوها؟

نظر إليَّ في مرارة:

- لأ يا دكتور.. المرحوم، وأنت تقول إن سميحة وَهْم!! سميحة لم تكن وهمًا، كانت لها أمنية راحت ولن تحققها، بقيت لها الأمنية بعد الأخيرة.. هي أول واحدة سخَّرتُ روحي لخدمتها.. لكني فشلت؛ لهذا رحل جسدها عني.

- كيف رحل يا مرحوم بدون روحك؟ أنت قلت إن الموتى لا يتكلمون.. إذن تعرف أنهم لا يتحركون أيضًا!

هز المرحوم رأسه:

- أنا في حيرة أكثر من حيرتك.. لكني سأجدها.

لم أجد ما أقوله له بعد ذلك.. ألقيت عليه نظرة طويلة فوجدته قد أغمض عينيه، لا أدري هل آلمه ما قاله أم كان يفكر في شيء ما، نبهته أنني لا بد أن أغادر، فتح عينيه وهو يقول:

- انتظرني لحظات.

قام يجري في اتجاه المشرحة، عاد بعد لحظات ممسكًا مظروفًا صغيرًا أعطاه لي وهو يهز رأسه في استنكار:

- أنا لست مجنونًا يا دكتور.

العلامة الثامنة

اللســان

بعد أن غادر محمود كنت أشعر بخليط من الغضب والحزن والإحباط، قدري ألا أكون مصدقًا ولا مقدرًا.. ربما أكثر ما كان يضايقني هو ترددي في إنجاز المهمة المتعلقة بأشرف باشا، أعترف الآن أن الخوف كان عاملًا رئيسيًا في ذلك، طلبه صعب.. أكبر مني ومنه حيَّيْن وميتَيْن، هؤلاء الناس يعمل لهم الشيطان ألف حساب، ربما لهذا قررت أن أنهي كل ما أريد فعله قبل أن أبدأ في المهمة الكبرى، فكرت في أن أصبر قليلًا وارتحت لذلك، عندي مهمتان تتعلقان بالأحياء.. الأولى هي فرحة، الثانية تخص ذلك الرجل الذي جاءني هاتف منذ عدة أيام يأمرني بأن أذهب إليه، لم أكن واثقًا من حقيقة تكليفي به.. لكنه فجأة أصبح يلح عليَّ، الإنسان الحي الذي يمكنني أنا المرحوم أن أساعده، قلت لنفسي إذا وجدته فهي علامة وإذا لم يكن هناك فهي علامة أيضًا، كانت الساعة قد تخطت العاشرة، الشوارع هادئة لكنها لا تزال حية، اتجهت إلى

الميدان، رأيته واقفًا في مكانه المعتاد، وقفت أراقبه من بعيد وأنا أبتسم في رضا تام عن نفسي.

تأملته لوقت لا أستطيع تحديده، كان جالسًا وظهره إلى الحائط على جانب الطريق.. قليل الحركة ولا شك، نفخة طويلة يعقبها بضحكة ساخرة وهو يقول:

- دنيا..

ثم يسكن تمامًا مرة أخرى، ثم يعود ليفعل نفس ما فعله.. ربما ثلاث أو أربع مرات لا أذكر تحديدًا.. لكنه قام واقفًا فجأة وأشعل سيجارة سحبها من فوق أذنه ووقف في منتصف الطريق على حجر كبير رافعًا كفيه إلى السماء وهو يقول:

الضبع لما حكم خلى الجميع.. ضبَّع
ونعجة ولدت خروف بطبعها.. اطّبع
خدوه على حجرهم.. قعد كتير.. ربَّع
ولما ظهر الأسد.. يسبه ويصبَّع

لا زلت أذكر انبهاري عندما سمعت هذه الكلمات منه لأول مرة.. أعجبتني وبقيت محفورة في رأسي، الضبع لما حكم.. أول مرة سمعته ظللت أضحك وأنا أراه واقفًا فوق حجر أسمنتي في منتصف الطريق كما لو كان يلقي خطبة عصماء، ضحكت كثيرًا.. ثم سكت فجأة وأنا أرى كل من حولي لا يسمعونه ولا ينظرون حتى إليه!! حتى ولو كان مجنونًا.. ليس كل ما يقوله المجانين حماقة،

سمعته بضع مرات بعدها.. كنت الوحيد الذي يهز رأسه مؤمنًا.. ما الفارق بيني وبينهم؟ الآن أرى نفسي أسوأ، وقتها كنت أرى أنني أفضل منهم لأنني أسمعه، الآن أعرف أن من يسمع ويفهم ولا يفعل ألعن ممن لا يسمع ولا يفهم ولا يفعل، من لا يفهم غير مكلف.. أما من سمع وفهم.. فهو آثم. اليوم أفعل.. لا بد أن هناك تكليفًا لي تجاه هذا المجذوب، أتمنى ألا يقف الأمر عند كيس فول ورغيفين أعطيهما له كل صباح.. أتمنى أن أفعل المزيد.

اقتربت منه بهدوء.. نظر إليَّ في دهشة.. بدا عليه الاضطراب.. تراجع قليلًا فضحكت أنا بصوت عالٍ:

- ثاني..

نزل من فوق الحجر وانطلق يجري مبتعدًا.. ناديته:

- انتظر.. لا تخف مني.. معي لك طعام.

توقف في تردد، أخرجت من الكيس الذي كنت أحمله رغيفًا وقطعة كبيرة من الجبن الأبيض.. وضعتهما على الأرض وأنا أقول:

- تعال.. تعال.. لا تخف.

وقف ينظر في حيرة، تراجعت أنا للخلف بضع خطوات.. تشجع هو واقترب، انقض على الطعام في نهم.. أتى عليه في لحظات.. ناولته زجاجة الماء وأنا أقول:

- خذ.. اشرب.

أخذ مني زجاجة الماء.. ألقى كل ما فيها في جوفه مرة واحدة،

كان خائفًا مني لكن جوعه وعطشه كانا أقوى من خوفه، وكنت أنا أيضًا خائفًا منه لكن رسالتي كانت أقوى من خوفي، رأيت من هم مثله كثيرًا عندنا في المقابر، لم نكن نخاف من المجاذيب كما يخاف هؤلاء البهوات، كنا نراهم بَرَكَة، ما الذي يجعلني أخاف من هذا.. لا بد أنها عِشرة البهوات، على أية حال هذا يختلف.. لم أسمع أحدًا منهم يقول مثلما يقول.. اقتربت منه وأنا أسأله دون أن أنظر إليه:

ـ اسمك؟

نظر إليَّ في حذر:

ـ ماذا تريد؟

ابتسمت وأنا أقول:

ـ اسمك.. لك اسم؟

بدأ جسده ينتفض مرتعشًا وهو يقول:

ـ ابتعد عني.. أنا لم أفعل شيئًا.

ضحكت بصوت عالٍ وأنا أقول:

ـ اسمع.. المجانين لا يقولون الضيع لما حكم.. هذا استعباط.

حتى تلك اللحظة لم أكن متأكدًا إذا كان مجنونًا أم لا.. كنت أجرب.. لم أندهش كثيرًا عندما توقف عن الارتعاش فجأة.. خرج صوته صوتًا جامدًا:

ـ ماذا تريد مني.

هززت كتفي في بساطة وأنا أقول:

ـ لا شيء.. سمعت كلماتك فأعجبتني، قلت إن من الصعب أن يحفظ هذا الكلام عبيط.

كرر مرة أخرى:

ـ وماذا تريد مني؟

اقتربت منه أكثر.. كانت رائحة عطنة كريهة تفوح من جسده كما لو كان يشعها من كل جزء في جسده.. تحاملت على نفسي لكي لا يبدو عليَّ القرف وأنا أقول له:

ـ تقدر تقول إنني جاءني هاتف وقال لي أن أساعدك.. إذا كنت لا تريدني سأذهب، قل ماذا تريد وأنا سأفعله لك.

نظر إليَّ في صمت.. أعتقد أنه كان يرى أنني مجنون، حتى أنت يا مجذوب الشوارع.. لا بأس، كل أصحاب الرسالات اتُّهموا لكنهم صبروا.. وأنا أيضًا سأصبر.

صمت طويلًا وهو ينظر لي بحيرة وتردد ثم قال مستعطفًا:

ـ ماذا تريد مني؟

قمت في غضب:

ـ لا شيء.. أنا ماشي، إذا أردت أن تأتي معي سأجد لك مكانًا تنام فيه ولقمة تأكلها.. وملابس بدل الخرقة التي تلبسها.. سلام عليكم.

لم يتحرك من مكانه.. سألته في حيرة:

ـ هل ستأتي معي؟

لم يجبني.. أشحت بيدي وغادرت متباطئًا، تبعني عن بعد.. لم أكلمه ولم يكلمني، دخلنا الكلية من البوابة الخلفية الصغيرة.. أعرف أنه لا توجد عليها حراسة في الليل، كان يلتفت حوله في دهشة مستكشفًا المكان لكنه لم يقل شيئًا.. دخلنا المشرحة، كانت الأنوار مطفأة.. فضلت أن أتركها، أشعلت شمعة مثبتة على واحدة من المناضد الفارغة أستخدمها عند انقطاع الكهرباء.. سحبته من يده إلى الحَمَّام.. أعطيته طاقمًا كاملًا من ملابسي شاملًا الملابس الداخلية وأنا أقول:

ـ تعرف تستحم؟

لم يجبني.. دفعني إلى الخارج في خشونة، جلست أسمع صوت المياه في الداخل.. بعد قليل بدأ صوته يعلو بإنشاده:

الديب نكح الخروف.. وخروفنا مابيرمش

الكلب جه ينجده.. قال له الخروف هش

قال له يا مأمأ قوم.. لو حتى تاكل مش

قال له ده حكم القوي.. لو قلنا لأ.. مانعش!!

لم أستطع أن أكتم ضحكاتي.. طرقت على الباب وأنا أضحك وأقول:

ـ الله الله.قل ياسيدي.

جاءني صوته من الداخل:

ياللي كسيت البرص بالفروة أهو برصك صبح دبة

صبح أكله بميت قنطار.. وكان في الأصل بالحـ

واصلت ضحكي.. كدت أسقط على الأرض من كثرة

وأنا أطلب منه المزيد.. وكان هو يبدو منتشيًا في الداخل، كنت

على الحائط وهو يغني في الداخل.. وأنا أكتب.. وهو يتابع

كان فيه زمان طراطير كتير وتاج وحيد تحتيه ملك

والكل ماشي وراسه تحته.. وشعب ماشي بزمبلك

قاموا الفوارس قالوا فوقي.. يا بلد بيحكم تنبلك

قمنا رقصنا وقلنا فرحة.. يا عيشة آه ما أجملك

صحيت لقيت طراطير كتير.. وألف ميت مليون ملك

لا لقينا حد يعلّي راسنا.. ولا حد يملى الزمبلك

فتح الباب خارجًا.. وقد ارتدى ملابسي، كانت قصيرة وضيقة عليه تجعل شكله مضحكًا، لكن كان يبدو عليه النظافة بما يكفي ليسعدني.. همست ضاحكًا:

ـ بسم الله ما شاء الله.. النظافة بانت عليك.

ابتسم هازًّا رأسه، أول مرة أتبين ملامحه؛ وجهه طويل مثل قامته.. أنفه حاد وطويل وعيناه عسليتان، نظر إليَّ بسعادة.. كان يبدو عليه شيء من الامتنان.. نظرت إليه مبتسمًا، اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- تسمع حاجة في الحب؟

أومأت موافقًا..

خمسين سنة باهوى وأنا في الهوى عيل
وكل ما أكبر سنة.. بختي بيتنيل
وست حُسن الغرام بتقول يا واد ميِّل
وكل ما آجي أرُوح ألقى النهار ليِّل
ولما حالي اختلف بقى مالي يتكيل
فتجتلي هي الباب على كتفها.. عيل

نظرت إليه في دهشة دون أن أتوقف عن الضحك.. ملت عليه وأنا أسأله:

- هل هذا كلامك؟

بدا أكثر ألفة واطمئنانًا.. ابتسم بهدوء وهو يقول:

- كلام أبي.. وأبي ورثه عن جدي.. وجدي ورثه عن جد جدي.. وأنا ورثته عنهم لكن أنا خائب.

- كانوا شعراء؟

هز رأسه نافيًا:

- كانوا سارحين بالربابة في الموالد وعلى المقاهي.

- لمن غنوا هذا الكلام؟

هز كتفيه بحيرة:

- أبي حكى لي أنهم يقولونه منذ زمن بعيد.. غنّوه أيام الخديو وأيام الإنجليز وأيام الملك وقبل الثورة وبعد الثورة.. كلها أيام.

- وأنت؟

هز كتفيه وهو يقول:

- أنا أغنيه الآن لكن الدنيا تغيرت.. لم يعد أحد يسمع ولا يفهم، حتى أنا.. لم أجد من يسمعني، بعت الربابة وبعت ملابسي.. وبيتنا وقع على كل من كانوا فيه.

سألته في عتاب:

- لهذا تتظاهر بأنك مجذوب؟

نظر إليَّ في غضب:

- أنا لا قلت «مجذوب» ولا «مجنون».. ما الذي يجعلك تقول هذا؟

أشرت إلى ملابسه الملقاة على الأرض في حرج.

بصق على ملابسه وهو يقول:

- بص يا عم.. لامؤاخذة يعني، كل ما فعلته أنني كنت أحاول أن أعيش.. آكل من صفائح الزبالة وأنام على الرصيف وألبس هذه الخرقة الوسخة، أنت أحضرت لي لقمة.. هل قلت لك لا؟ الناس يريحون أنفسهم يقولون «مجذوب»، تصدق بمن؟؟ أنا نمت أمام مستشفى المجاذيب شهرا، جريت خلف الأطباء

والممرضين.. حتى المدير، كنت أريدهم أن يأخذوني.. قلت ألاقي لقمة ولبسًا، لم يأخذني أحد.. وتقول لي «مجذوب»، أنا كنت أبحث عن أي مكان يلمني.

تلفت حوله وهو يسأل:

- بمناسبة المكان. هل هذا بيتك يا أستاذ؟ وإذا كان فيه نور شغله، لا أحب الظلام.

ابتسمت وأنا أقول:

- حاضر.

أدرت مفتاح النور.. تلفت حوله في دهشة تحولتْ إلى فزع وهو يرى الجثث على الموائد.. صرخ في رعب:

- نهار أسود.. أنا قلت الحكاية فيها إن، أنت قتلتهم وستقتلني؟.

ضحكت ببساطة:

- أقتلك؟ أنت ناقص؟ لا تخف.. أنا أعمل هنا.

- هنا؟

هززت رأسي مؤمِّنًا:

- هنا.. المشرحة.. لا تخف.

اتسعت عيناه رعبًا:

- طبعًا أخاف.. أنت لا تخاف؟!!

اقتربت منه بهدوء:

- ما اسمك؟

دفعني بعيدًا وهو يقول:

- اسمي زفت محروس.. دعني أمشي من هنا الله لا يسيئك، سواء كنت إنسا أم جنًّا.. سلام قولا من رب رحيم.. خد حاجتك ودعني، أنا سآخذ ملابسي وأغادر.

بدأ يخلع الملابس.. صحت فيه غاضبا:

- خلاص.. لن تبيت هنا، نم على السلالم في الخارج.. وأنا في الصباح سأجد لك حلًّا لتعيش عيشة نظيفة بدلًا من عيشة الكلاب التي تعيشها.

قال بصوت مرتعش:

- عيشة الكلاب أحسن من عيشة الموتى يا أستاذ.

نظرت إليه باستياء. غبي، مجرد لسان كبير متحرك بلا عقل، دخلت المشرحة، أحضرت له غطاء وتركته ينام في الخارج، عندما تحررت روحي بعد قليل تحركت بها نحو نافذة المشرحة.. كان نائمًا في الخارج يبدو عليه الاطمئنان والسعادة، تسللت بروحي خارجًا.. حاولت أن أقتحم جسده.. أول محاولة لي لدخول جسد حي، كان شعوري هو شعور من يحاول النفخ في أنبوب مسدود، حاولت مرة ومرة، بعدها تأكدت.. لا يُسمح للمرحوم بدخول جسد الأحياء.. لا بد من أجساد خالية، مساعدة الموتى تختلف عن مساعدة الأحياء،

ظللت أدور حول جسده إلى أن جاء الصباح، بمجرد أن عدت إلى جسدي انطلقت إلى الخارج.. اكتشفت أنه ليس موجودًا، تلفتُّ حولي بحثا عنه، كان الغطاء الذي أعطيته له بالأمس لا يزال موجودًا في الحقيبة نفسها بطياته، لولا أني رأيته بنفسي لظننت أنه غادر بمجرد خروجه من المشرحة.. الغريب أن كل شيء يؤكد أنه لم يكن نائمًا هناك.. هل كنت أتوهم؟ أنا ناقص محروس!!

محمود سلمان

A case of psychotic disorder characterized by presence of delusions, grandiosity, black outs and brief attacks of absence combined with amnesia

عزيزي محمود:

مرفق التشخيص المبدئي للحالة التي أرسلت أعراضها إليَّ.. علمًا بأنه من المفترض أن تتم مناظرة الحالة لمعرفة حقيقة المرض.. غالبًا سينكر حاجته لطبيب.. عمومًا أنصحك بإلقاء نظرة سريعة على بعض المراجع النفسية واستخدام الأسئلة الموجودة فيها لمعرفة حقيقة الحالة.. مع الاهتمام باحتمالية ميل هذا الشخص للانتحار إذا كان مريضًا بالفعل.. وعدم التأخر في تقديم المعاونة

تحياتي

أ.د/ مختار عزام

رئيس قسم النفسية والعصبية

كان هذا ملخص الرد الذي تلقيته من رئيس قسم النفسية بالكلية، كنت قد أرسلت له بريدًا إلكترونيًا في اليوم نفسه الذي أعطاني فيه المرحوم المظروف وهو يقول لي إنه ليس مجنونًا فتأكدت أنه مجنون، ما لي أنا وهذه الأوراق؟! ما العلاقة بين مجموعة إيصالات لطالب في الابتدائي وبين ما نتكلم عنه.. شرحت لأستاذي الحالة دون أن أخبره أي شيء عن مكان المريض ولا تاريخه، قلت له فقط إنني طالب في الكلية وإن هذا هو أحد معارفي وإنني أحتاج لاقتراحاته، من المعروف عندنا في الكلية أنه يهتم بالرد.. قرأت التشخيص على مهل، نسيت الكثير من هذه التعريفات وتداخلت في رأسي.. جلست لأراجع الأعراض المكتوبة ومعناها وأضع علامة صح عندما أجد أنها تناسب المرحوم مع وضع تفسير لذلك حتى لا أنسى لاحقًا.

✓ الخلل الذهني: (Psychotic disorders): مجموعة أعراض مركبة يعاني فيها المريض من انعدام التواصل مع الحقيقة.. (ماشي).

✓ التوهم (delusions): اعتقاد خاطئ مع إيمان المريض به.. رغم أن الدليل والمنطق يصلان إلى العكس.. (المرحوم يرى أن روحه تغادر جسده وتعود إليه مرة أخرى)!!

✓ توهم أو جنون العظمة (grandiose delusions): اعتقاد الشخص بأنه أعظم من باقي البشر.. بعض المرضى كانوا يظنون أنهم آلهة.. بعضهم يظن نفسه ملكًا.. بعضهم يظن نفسه أغنى أغنياء العالم.. (المرحوم يظن نفسه رسولًا)!!

✓ المريض غالبًا مرتفع معدلات الذكاء (هو المرحوم).

✓ المريض غالبًا يعمل في مهنة صعبة ومحتمل انخفاض المستوى الاجتماعي (هو المرحوم)!!

✓ المريض قد تعرض لصدمة عصبية كبيرة (لو حكاية سميحة حقيقية يبقى ماشي)!!

✓ المريض قد يصاب بحالات فقدان وعي تام من آن لآخر (black outs) (النومة التي يدخل فيها).

✓ المريض قد يصاب بحالات فقدان للذاكرة (amnesia) (أين سميحة؟)!!

كان هذا هو مختصر جلسة عمرها أربع ساعات على مراجع الطب النفسي.. الأمر يبدو في منتهى البساطة:

المرحوم مختل.. مصاب بمرض ذهني واضح وصريح، الحقيقة أن هذا لم يخيب أملي وإن كان سيجعل القصة أقل إثارة، فقط سيتغير عنوان المقال إلى «في بيتنا مريض ذهني!!»، القصة ما زالت مثيرة.. مريض نفسي يتحرك بيننا بخيالاته وأوهامه، الجميل أنني وأنا أقرأ في الأعراض المختلفة وجدت تشخيصًا لعشرات الأصدقاء والصديقات والشخصيات العامة والخاصة، المهم.. هذه هي خلاصة حكاية المرحوم.. مجرد مريض.. تبقى الاحتمالات الأخرى للحالة.. والتي لا يجب أن تُنسى:

أولها: أن أكون أنا مجنونًا أعاني من هلاوس سمعية بصرية وأتخيل وأتحدث مع شخص غير موجود (لا يوجد مرحوم).

الثاني: أن يكون المرحوم عاقلًا وواعيًا لما يفعله، ويفعله بنية ما (طيبة أو خبيثة).

أما الاحتمال الأخير والبعيد والذي ترددت ألف مرة قبل أن أضعه على أوراقي: أن يكون المرحوم صادقًا.. ويملك قدرة خارقة بالفعل، ومكلفا بمهمة من السماء!!

التحذير الذي تلقيته فيما يخص احتمالات انتحار المرحوم مع جو التقرير والأعراض أثار فيَّ شيئًا آخر، أنه ليس مجرد قصة بل هو مريض.. معتل العقل يحتاج إلى مساعدة وقد أكون أنا طبيبه، واجبي أن أقدم العون لذلك المسكين الذي قادته الحياة إلى الموت وأفسد عليه الموت حياته.. بدأت أراه جريمة كاملة الأركان فعلها المجتمع بلا دافع، قد يكون الدافع الوحيد أن المرحوم وأمثاله من الملايين هم كائنات دقيقة غير مرئية للسادة، لا يحق لهم في الأصل الحياة بينهم.. لذلك يجب أن يختلسوا حياتهم بعيدًا عن عالم الأحياء وليكن ذلك في المقابر، مقابر الموتى أو مقابر الأحياء التي يسمونها بالعشوائيات؛ لذلك قررت أن أصبر عليه حتى النهاية، لم أكن أريد أن أكون شريكًا في تلك الجريمة، جريمة الترك الكامل لإنسان يستحق المساعدة، في ذلك اليوم بالتحديد كان اهتمامي به قد بدأ يتغير.. لا سيما بعد حديثي مع عباس.. فجأة.. شفقتي عليه أصبحت أقوى من فضولي، لم أعد أهتم بكتابة قصة المرحوم بعد أن تأكدت من أنه مجنون، أصبحت خطتي هي أن أعالجه ثم أجد له عملًا مناسبًا لمؤهله وثقافته بعيدًا عن الأموات، أن أجعله يفهم أنه حي وأنه يمتلك جسدًا وروحًا ولا يحتاج إلى استبدالهما مع احتفاظي جزئيًا بالحق في نشر قصته إذا استحقت ذلك في النهاية.. من أين سأبدأ؟

قررت أن أبدأ من الأوراق التي أعطاها لي.. قد تكون هي الدليل

المباشر على جنونه، آخذها له وأجعله يقرأها ليكتشف أنه أعطاني بضعة إيصالات سداد مصاريف الدراسة في واحدة من المدارس الحكومية، لا بد أنه تصور أنها خطابات تكليف من السماء أو خريطة حركة روحه في الأيام القادمة.

ألقيت نظرة ساخرة أخرى على تلك الأوراق، عليها اسم المدرسة ومكتوب عليها اسم الطالب، لا بد أنها أوراق قديمة وجدها هنا أو هناك، نظرت إليها في حيرة.. التاريخ يسبق اليوم الذي أخذته فيها من المرحوم بيوم واحد، قلبت ظهر الإيصال.. كانت هناك رسالة قصيرة منه يرجوني فيها أن أذهب إلى المدرسة وأتأكد، جميل خط المرحوم، منمق ومتوسط الحجم، اكتشاف جديد يستحق التسجيل، ربما سأنشر هذا السطر بخطه مع الموضوع لأضيف المزيد من عناصر الجذب. عموما هو يعلم أنها إيصالات مدرسة. ويريد مني الذهاب للتأكد. لم أفهم بالتحديد ما سأتأكد منه.. لكن المدرسة قريبة ولا أعتقد أن هناك مكائد يمكن أن تحدث لي في مدرسة ابتدائية، أعتقد أنني ذهبت بدافع رغبتي في إثبات شيء ما للمرحوم.. هو أنه مريض ويحتاج العلاج.. واجبي، مع بعض الفضول مرة أخرى!!

وقفت أمام باب المدرسة أتأكد من الاسم.. مدرسة العلوم الحديثة الابتدائية، لم أعرف ما يمكن أن أفعله بإيصالات لا أعرف لها أي معنى، قررت أن أدخل للمدير وأخبره أنني أخذت هذه الأوراق من مريض وطلب مني أن أعرف ما فيها.. لا بد أن الرجل سيتفهم أنني أجري خلف مصلحة واحد من المرضى، حتى وإن لم يكن لها معنى فسيتفهم حُسن نيتي، طلبت مقابلته.. أوقفوني لدقائق، وقفت

أراقب عددًا من التلاميذ الصغار وهم يقفزون من على سور المدرسة خارجين.. على بُعد أمتار من مكان الحارس.. نبهته في اهتمام:

ـ الطلبة يقفزون من على السور.

نظر إليَّ بلامبالاة:

ـ أحسن!!

لم أفهم ما يعنيه.. عندما دخلت ورأيت أكوام القمامة والرءوس البارزة من النوافذ وأصوات المشاجرات والضرب والغناء والصراخ.. احترت فيما كان يعنيه الحارس، هل كان يعني أن هذا أحسن لهم أم أحسن للمدرسة؟ أما أنا فقد اقتنعت بشيء واحد غمغمت به لنفسي في صوت خافت:

ـ أحسن.. لهم!!

دقائق في متاهة طويلة، المسافة من باب المدرسة وحتى غرفة المدير حكاية في حد ذاتها. ما الذي تنتظره من نفوس تربَّت في مدرسة مثل هذه؟ بالتأكيد ليس النظام ولا النظافة ولا الهدوء.. تذكرت المرحوم وهو يقول إن الذهاب إلى المدرسة يختلف عن التعليم. اللعنة عليه، لأول مرة أجد نفسي متأثرا بكلمات من شخص أعرفه. أنا عاشق الأدباء والكتب، الدائم الاستشهاد بالعباقرة أستشهد بيني وبين نفسي بالمرحوم!

دخلت مكتب المدير. تعجبت وأنا أتأمله، المكتب نظيف ومُرتب رغم صغر مساحته، والرجل الجالس أمامي يبدو أستاذًا فاضلًا كالذين نراهم في الأفلام القديمة، ملابس أنيقة ونظيفة رغم بساطتها، وجه بشوش

ونظارته الطبية تضيف وقارًا إلى وقاره.. قام الرجل من مكانه مُرحبًا:

ـ أهلًا وسهلًا يا أستاذ.. تفضل.

ابتسمت بود:

ـ أهلًا بحضرتك.

ـ تحت أمرك.. أخبروني أنك تريد مقابلتي.

دسست يدي في جيبي.. أخرجت الأوراق التي أعطاها لي المرحوم بالأمس:

ـ أنا أتيت من أجل هذه الإيصالات.

أخذها الرجل من يدي.. استبدل نظارته الطبية بنظارة القراءة، تغير وجهه فجأة وضغط الجرس المثبت في مكتبه وهو ينادي:

ـ يا سمير.. يا متولي.. تعالا بسرعة، أمسكوا بهذا الرجل.

فتح الباب في عنف وانقض عليَّ اثنان من الفراشين الضخام.. نظرت إليهما مندهشًا، دفعتهما بعيدًا في غضب:

ـ أنزلوا أيديكم.. ما الذي يحدث؟!

أشار إليهم الناظر فوقفوا في ترقب.. أجابني وهو يتفحصني جيدًا:

ـ أنت الذي يجب أن تخبرني ما الذي يحدث؟ ومن أين أتيت بهذه الإيصالات؟

أجبته في توتر وأنا أمد يدي له ببطاقة الكلية:

ـ أنا طالب في كلية الطب، يوجد عندنا في قسم النفسية مريض مجهول.. وجدنا معه هذه الإيصالات وأردت أن أعرف إذا كانت تخص أحدًا من أسرته، ما المشكلة الآن.. هل هي مزورة؟

نظر في بطاقتي جيدًا.. بدا عليه الفهم وهو يعتذر:

ـ أنا آسف جدا يا دكتور.. استرح.

أشار إلى فراشيه ليغادرا الغرفة.. تابع في لهجة أكثر احترامًا:

ـ لا يا سيدي ليست مزورة.. لكن الذي جاءني منذ بضعة أيام دفع لي مصاريف هذا الطفل لكل سنوات دراسته هنا، ودفع لي مقابل مجموعات التقوية في كل المواد وطلب مني أن أشتري له ملابس بمقاسات متدرجة تكفيه لمدة ثلاث سنوات قادمة حتى ينهي دراسته الابتدائية، عندما رفضت وأخبرته أن هذا مستحيل أخبرني أنه سأل عني وعرف أنني رجل أمين وأمّنني أن أعطي أمَّ الولد راتبًا شهريًّا مقابل أن ينتظم في المدرسة، وعندما رفضت أيضا بكى.. وقال إنني إذا لم أفعل ذلك سيضيع مستقبل الولد، فوافقت على مضض.. وحولته على شاب محترم يعمل معنا في الحسابات ليفعل له ما يريده، أنا لا أضمن ما سيحدث لي غدًا.

نظرت إليه في تساؤل:

ـ وما المشكلة إذن؟

ـ المشكلة يا أستاذ أنه أخبرني أنه أبو الولد.. وأنه سيسافر بعيدًا عن أمه التي طلقها والتي لا تريد أن تُعلِّم الولد من أجل النقود،

وعندما أرسلت في طلب الولد عرفت أنه انقطع من المدرسة.. اتصلت بنفسي بالأم وجاءت بالولد أول أمس.. وعرفت أن زوجها الأسطي صالح الإسناوي لم يطلقها ولم يسافر.

سألته في حيرة:

ـ إذن لماذا قال لك ذلك؟

هز الرجل كتفيه وهو يعدل من وضع نظارته:

ـ هو غالبًا لم يقل شيئًا.. لأنه مات منذ ما يقرب من شهرين!!

صمت قليلًا.. بدا لي أنه كان يتوقع دهشتي.. تابع:

ـ يعني أن هذا الذي جاء إما أن يكون فاعل خير وإما نصابًا سينفذ خطة ما، قلت لنفسي إنه لو كان فاعل خير لن أراه مرة أخرى، وإن كان نصابا سيظهر أو سيرسل واحدًا من رجاله، لذلك عندما وجدتك تحمل هذه الإيصالات شعرت بالقلق.. فهمت يا دكتور؟

هززت رأسي موافقًا.. مد يده إلى ثلاجة صغيرة أخرج منها عبوة صغيرة من العصير.. وضعها أمامي وهو يقول:

ـ أنا آسف يا دكتور.. لكن الموضوع غريب والبلد لم يعد فيه أمان، عندنا ولدان خُطفا من أمام المدرسة بسبب خلافات عائلية.

أجبته بهدوء:

ـ ولا يهمك يا حضرة الناظر.

مد الناظر رأسه إلى الأمام في اهتمام:

- لكن مَن هذا الرجل.. وما علاقته بالمريض الذي تتحدثون عنه؟

مططت شفتيَّ قائلًا:

- لا أعرف.. هل تطلعون على إثبات شخصية قبل سداد النقود؟ أو على الأقل هل تستطيع أن تصفه لي؟

نظر إليَّ للحظات.. اتسعت ابتسامته فجأة وهو يقول:

- ممكن أحضر لك الفيلم الذي صورناه بكاميرات المراقبة لتتعرف عليه.. هل تحب ذلك؟

أجبته بلهفة:

- هل توجد لديكم كاميرات مراقبة؟

ضحك الناظر ساخرًا بصوتٍ عالٍ:

- أنت شاب طيب يا دكتور.. أنت صدقت؟ هنا مدرسة العلوم الحديثة الحاصلة على جائزة التفوق في العام الماضي.. لا يوجد عندنا جهاز كومبيوتر واحد، نستخدم طباشير من الجير وسبورة سوداء اختفت منذ القرن الماضي، وأنت تصدق أن عندنا كاميرات مراقبة؟! والله رجل طيب، الأخ الذي تتحدث عنه شاب سحنته مثل سحنة كل أولياء الأمور هنا، رجال رفيعون مثل الفاصوليا الخضراء ووجوههم مليئة بالبقع البيضاء التي يتساءلون منذ ولدوا عن مصدرها ونساء يشبهن الكرنبة، يقفن سويًّا فيشبهن رقم خمسة عشر، أنا لم أبحلق فيه، عمومًا.. إذا كان هذا الأخ مجنونًا ويريد أن يدفع مصاريف الأيتام في

المدرسة أنا عندي أكثر من مائة طفل.. نصفهم تقريبًا انقطعوا عن الدراسة، قلت له هذا واقترحت عليه أن يدفع مصاريف ثلاثة طلاب بدلًا من أن يدفع مصاريف طالب واحد ثلاث سنوات.. لكنه أجابني: أنا لا يهمني سوى ولدي.. وولده ليس ولده.. ناقصة تخريف.

قاطعته مستفسرًا:

- عادة هل هناك من يأتون لدفع مصاريف الطلبة الفقراء أو الأيتام في المدرسة؟ شيء مثل كفالة اليتيم مثلًا؟

هز رأسه نافيًا:

- لأ، لكن عندنا العكس.. أولياء أمور يأتون لسحب أوراق أولادهم من المدرسة لكي يبحثوا لهم عن مستقبل أفضل.. سمكري.. ميكانيكي.. سباك، ناس فهمت الدنيا صح، أنا والله عندي فكرة لصاحبك إذا كان هو.. قل له إذا كان يريد تأمين مستقبل الولد بدلًا من حكاية السنوات الثلاث يشتري له «كشك صغير» يبيع فيه حلويات وسجاير، أنا أعرف «كشك» عند مبنى الحزب.. أحسن، إذا حسبت مكسبه في السنة ستجد أنه عندما ينهي زملاؤه الدراسة الثانوية سيكون اشترى محل بقالة كبيرا.. ويمكن حتى «سوبر ماركت».. وسيدعو له بقية العمر.

لم يدهشني ما قاله، فقد سمعت ما يشبهه كثيرا، لكني تعمدت أن أتصنع الدهشة لغرض في نفسي:

- معقول يا حضرة الناظر؟ كشك أحسن من التعليم؟!

أجاب الرجل بجدية:

- طبعًا أحسن.. اسألني أنا، بقيت لي ثمانية أشهر على المعاش.. قضيت ما يقرب من أربعين عامًا في التعليم؛ مدرس ومدرس أول ومفتش ووكيل ثم ناظر مدرسة ومرتبي الآن يساوي حوالي مائتي كرتونة بيض، أو خمسة عشر كيلو لحم، عارف.. مرتبي عندما بدأت كان حوالي ثلاثين كيلو لحم.. يعني أنا صغرت.. لم أكبر، لا تجعلني أتكلم يا بني.. دعني في حالي أنا على آخري!!

ابتسمت في ارتياح. أدركت على الفور أن الجالس أمامي سيكون موضوعي في العدد الجديد.. لم أكن قد أعددت شيئا للنشر أثناء انشغالي بحكاية المرحوم.. جميل أن تجد شيئا كنت تحتاجه أمامك رغم أنك لم تبحث عنه.. أن تمد يدك في جيبك فتجد عشرة جنيهات منسية في وقت أنت فيه مفلس تماما.. أجبته باهتمام وأنا أهز رأسي معجبا بما يقوله:

- لا يا أستاذ.. تكلم براحتك، كلام حضرتك مهم جدا.. أنا محرر في مجلة الكلية ولو سمحت لي سأنشره.. على فكرة الطالبة عندنا محتاجة إلى آراء من هم في سن وخبرة حضرتك.. وإذا كنت لا تريد النشر يكفيني أن أتعلم أنا منك على الأقل.

ابتسم الرجل في زهو.. اختفت ابتسامته فجأة وهو يسأل في شك:

- أنت طالب ولا صحفي؟

أخرجت بطاقة الكلية مرة أخرى وأنا أقول:

- يا فندم والله طالب. لكن عندنا مجلة للكلية أكتب فيها مقالات.

وكل من يكتبون فيها من الطلبة وتقريبا كل من يقرءونها أيضا.

أشار بيده في ارتياح ساخرا:

- خلاص يابني.. فهمت.. تريد أن يوجه حضرة الناظر كلامه لفصل المتفوقين؟!

هززت رأسي نافيا وأنا أضحك:

- لا يا حضرة الناظر.. سأكون صادقا معك. أنا أكتب عن الشخص.. المقال سيكون عن حضرة الناظر وليس من حضرة الناظر.

أشاح بيده محبطا وهو يقول:

- لن تجد ما تكتبه عني يابني.. وأنا لا أريد أن أحبطكم. أنتم في البداية ربما يكون حظكم أفضل من حظنا.. أنا لو تكلمت سأقول لك إن التعليم الذي راهنت عليه في هذا البلد جعلني أخسر كل شيء.

نظر إليَّ ليرى ردة فعلي.. تعمدت أن أصمت تماما وأتركه يتكلم.. خبرة اكتسبتها مع الوقت.. هذا الرجل مرحوم ثالث يريد أن يتكلم مثلما كان عباس من قبله.. كلهم يريدون أن يتكلموا، سيندفع بعد قليل ليضخ كل ما أريد أن أسمعه في أذني.. لم يخب أملي. لحظات وجاء الفرج:

- طبعًا الموضوع ليس نقودًا فقط.. نجاح واحترام ذات وتحقيق ذات وتربية أولاد الناس وتربية أولادك أيضًا.. لم أحقق أي شيء من هذا، ما قيمة ناظر شَريف في بلد يحكمها الجهل؟! لا شيء،

لا أحد يعرف شيئًا عن عيد العلم، وسام الجمهورية يذهب لمن أحرز هدفًا في نهائي الكأس وأنا آخذ ألفي جنيه مكافأة للمعلم المثالي ترسل لي مع مفتش المنطقة.. هل هذا نجاح، يبقى احترام الذات.. جرب أن تعيش يومًا معي.. اركب الأتوبيس في عز الظهر ثم حدثني عن احترام الذات، أنا عشت طوال عمري أدَّعي الشرف ولا أقبل أن أعطي دروسًا خصوصية.. احترمت ذاتي طويلًا.. إلى أن كبر أولادي، بسم الله ما شاء الله؛ ثلاثة شباب كل واحد منهم يسد عين الشمس.. علمتهم وكبّرتهم؛ أحمد خريج سياسة واقتصاد يجلس على ماكينة الحساب في الهيبر ماركت، وعمر خريج علوم.. يجلس على الماكينة التي تجاور ماكينة أحمد، أما آخر العنقود بلال.. فتخرج من كلية الزراعة قسم إنتاج حيواني.. يجلس على الماكينة الثالثة في نفس الفرع، تدخل عليهم فتجدهم يجلسون على الماكينات الثلاث، شباب كالورد، خلاصة التعليم أنهم يعرفون الآن أسعار الجبن الرومي والبسطرمة والحلاوة (السبريد)، ويحضرون أنفسهم في المساء للعمل بتجهيز أرباع الجنيهات لكيلا يوقفوا الزبون في انتظار الباقي.. أحسن من غيرهم، أنا وأكيد أنت أيضًا نعرف أطباء لا يجدون عملًا ومهندسين يبيعون كروت شحن للمحمول، عندي هنا مدرس في المدرسة يعمل حلاقًا في الصالون الذي في الميدان، الوحيد الذي لا يعطي دروسا خصوصية، عيال المدرسة بأكملها يحلقون عنده.. سمعت أنهم يقولون له في نهاية كل حصة: «الله ينعم عليك يا أستاذ».. هل أستطيع أن أقول له لا؟ غصبا عنه.. أكل عيش والسلام.

كنت أكتب وراءه والكلام يتدفق من فمه أسرع من المعتاد.. أنا المستفيد؛ خرجت بحكايته وبحكايتين جديدتين لا بد أن أمشي وراءهما.. الإخوة الثلاثة الجامعيون الذين يبيعون في الهيبر وحكاية المدرس الحلاق.. الأخيرة تبدو لي أكثر تشويقا.عشرة جنيهات أخرى أجدها بالصدفة في جيب آخر.. ملاحظة: ربما يكون هذا هو موضوع عدد قادم.. أفلتت مني أثناء انشغالي بكتابة هذه الملاحظة جملة محفوظة:

ـ المهم إنه عمل شريف يا حضرة الناظر.

شعرت بسخافة الكلمة.. رفعت رأسي وعلى وجهي ابتسامة اعتذار وأنا أسأل:

ـ ممكن أعرف اسم هذا المدرس؟

تجاهل السؤال تماما وهو يضحك في عصبية:

ـ اسم الله عليك.. هذا هو ما يقوله أولاد الكلب ـ لامؤاخذة ـ في التلفزيون ليل نهار، طالما عمل شريف والسلام إذن تحسبها جيدًا.. نعلم أولادنا سنينا طويلة وبعد ذلك يعملون بقالين أفضل أم يعملون في محل بقالة منذ البداية ونوفر وقتهم ومجهودهم ونقودنا ونقودهم؟! أنت أخبرني من أفضل في عيون أولادي، الحاج الذي يأتي في نهاية اليوم في سيارة فارهة يقودها سائق راتبه ضعف راتبي أم أنا؟ هل يحلمون أن يصبحوا مثلي أم مثله؟ من منا الناجح في نظرهم ومن الذي فشل؟ عارف يابني.. أكثر شيء جعلني أكره نفسي هو تعاطفهم الواضح معي.. يحضرون

الجبن واللبن واللحوم من مرتباتهم ويقولون إنها مجانًا من الهيير، يتكلمون معي دائمًا عن فضلي عليهم وعن امتنانهم لي من أجل تعليمهم وتربيتهم، رغم أنني السبب في أنهم محلك سر.. لم أعطهم ما يبدءون به حياتهم في بلد لا يمكن فيها البدء من الصفر، هنا في مصر من يبدأ من الصفر يظل صفرًا.. ومن يبدأ من الخمسة يظل خمسة، ومن يبدأ من المليون يصبح مائة مليون، أحمد تخطى الخامسة والثلاثين.. لا أحد منهم يتكلم عن الزواج.. ولن يتكلموا، لأنهم أولاد ناس ويريدون أن يتزوجوا بنات ناس.. والناس تريد نقودًا.. وأنا يا مولاي كما خلقتني.. قل لي بقى يا دكتور.. ماذا تختار؟ التعليم.. أم الكشك؟

لم أجد ما أقوله.. ظللت صامتًا أملا في أن يُخرج هو المزيد.. بدا لي أنه انتهى أو ندم على ما قاله.. قررت أن أبسط الأمور عليه إذا كان يريد أن يسحب شيئا من كلامه:

- تسمح لي أنشر كلامك هذا في مجلة الكلية؟

نظر إليّ وهو يفكر.. هز رأسه في استياء وهو يسأل:

- عندكم أولاد وزراء؟

تعجبت من سؤاله إلا أنني أجبته:

- عندنا كثيرون.. من ضمنهم - بالمناسبة - ابن وزير التعليم.

ضحك بصوت عال وهو يقول:

- خلاص انشره، ربما يقع في يد الوزير.. بشرط أن تجعل عنوانه

شهادة ناظر مدرسة العلوم الحديثة على عصر الفَساااااااااء!!

- الفَساء؟!

- أيوة يابني.. خليط الفساد والغباء، أصل كل الحكومات عندنا بما في ذلك التي سبقت والتي أتت والتي ستأتي - خليط من الفساد والغباء!!

ابتسمت وهززت رأسي مؤمِّنًا، حاولت أن أسأله عن اسم المدرس مرة أخرى فنظر إليَّ بعتاب. ربما لأنه فهم ما أريده فشعر أنني كنت أستدرجه والآن أبحث عن غيره. أو لأنه كان يرى أنه ليس مقبولا منه أن يكشف اسم المدرس لينشر في مجلة.. بالرغم من ذلك مد يده في ود، صافحته في احترام حقيقي ثم انسحبت، خرجت وفي يدي مجموعتان من الأوراق، الأولى فيها موضوع العدد القادم، والثانية فيها إيصالات المرحوم، لم يعد تقرير الدكتور مختار ساريًا، فالأكيد أن هناك شخصا ما جاء إلى هنا ودفع نقودًا لهذا الرجل من أجل ابن الأسطى صالح الإسناوي.. وكان من الجرأة الكافية بأن يعرض نفسه للقبض عليه، أي أنه باختصار.. صالح الإسناوي شخصيًا.. أو شخص يظن نفسه صالح الإسناوي.

العلامة التاسعة

العـادة

ـ لأني مسيحي..

عندما سمعتها توقفت عن الكلام والتفت إلى خليل الذي كان يجلس إلى جواري على الأرض خلف واحدة من المناضد العالية، أدرنا رأسينا في اللحظة نفسها لنرى ميلاد يقف بين ثلاثة أو أربعة طلاب وهو يبكي، مدت واحدة منهم يدها له بمنديل.. وربت آخر على كتفه وهو يقول:

ـ خلاص يا ميلاد.. الموضوع لا يستحق.

نظر إليهم ميلاد وواصل البكاء:

ـ لا يستحق.. أنتم لا تشعرون بما أشعر به لأنكم تجلسون سويًا وتخففون عن بعض.. أما أنا فوحدي بينهم.

سألته البنت برقة:

- من الذي يضايقك منهم بالتحديد؟

- الزفت عباس.

قاطعه أحدهم:

- يا بنتي كلهم واحد.

هزت رأسها في إصرار:

- لأ طبعًا فيهم وفيهم.

ضحك ساخرًا:

- لا يمكن يا بنتي.. طالما مسلم إذن هو مأمور بقتلنا ومضايقتنا.

- ربما يريدون من ميلاد أن يدفع لهم جزية عن وجوده في المشرحة!

ارتفعت ضحكاتهم جميعًا. قاطعه أحدهم:

- لا أدري علام نضحك، على ما يفعلونه فينا؟

- بالراحة يا أخي.. الأمر ليس لهذه الدرجة.

أجابها بغضب:

- أكثر.. في الماضي كان الموضوع يقتصر على التضييق علينا في الوظائف وفي الأعمال والسخرية عيني عينك، الآن أصبحوا يقتلوننا بمنتهى البساطة؛ صديقي المسلم.. إذا شعرت بالإحباط أو الغضب فعليك أن تأخذ قنبلة أو رشاشا وتتجه فورا نحو أقرب كنيسة.. افتح النار على الأولاد والبنات والناس التي خرجت من بيتها من أجل الصلاة.. هكذا تصبح بطلًا، إذا أردت أن تموت شهيدًا فعليك أن

تستخدم الرشاش إلى أن يأتي رجال الشرطة ويقتلوك بعد أن تكون قد قتلت مائتين أو ثلاثمائة، أما إذا أردت أن تعيش لتواصل الجهاد فعليك استخدام التفجيرات.. حيث سيتم إلصاق التهمة بأكثر جثة تناثرت أشلاؤها، وسيتم إعلان أن القتيل مختل عقليًا وله أصول من أمريكا الجنوبية.. ويبقى يا دار ما دخلك شر.

- لكن أنا سمعت أن كل حوادث القتل تكون مدبرة من الحكومة.

ضحك في عصبية:

- نفرض.. الحكومة مسلمة في مصر.. وبالتالي الحكومة غير آثمة إذا قتلت ألف أو ألفي مسيحي كل عام من أجل الدعاية، لكن إذا قتل مسيحي مسلمًا.. فسترين ما يحدث، إذا اغتصب مسيحي مسلمةً.. تقوم الدنيا ولا تقعد.

قاطعته في دهشة:

- ياجورج. المسيحي لا يقتل ولا يغتصب، هل تريده الحكومة أن تسمح لك بذلك؟

- لا طبعًا.. أريد العدل؛ أن تكون هناك عدالة في الحكم.. جريمة المسلم مثل جريمة المسيحي.. حقوق المسيحي مثل حقوق المسلمين.. والمسيحيون قبلهم.. نحن أصحاب البلد.

- لا أصحاب البلد ولا حاجة، لا داعي لهذا الكلام الذي بلا فائدة، دعنا نرى موضوع ميلاد ولا داعي لإشعال الأمور، يا ميلاد.. أخبرني من منهم يضايقك وأنا سأخبر رئيس القسم.. وسأحضر لك حقك.

- رئيس القسم منهم.. سيفعل مثل الحكومة، تصريحات وتوعد وكلام حنون.. ولا فعل، كلهم واحد.. أليس كذلك يا ميلاد؟

نظر إليه ميلاد في تردد.. ثم تابع:

- أيوه.. كلهم يكرهونني.. عباس يذلني في اليوم مائة مرة، سمعته مائة مرة يقول عني «الواد الكوفتس»، وأما خليل فهو كلب عم عباس، والمرحوم ده مجنون رسمي.

كاد خليل يقوم من مكانه لو لا أنني أشرت إليه ليهدأ عندما سمعت أحدهم يسأله:

- من المرحوم؟

- عبده سمكة.. اسمه بيننا المرحوم، يطلب مني أشياء غريبة.. يجعلني آتي إلى المشرحة في الليل.. وأوقظه وأسمع أصواتًا. هو شاب طيب.. لكن أحيانًا...

- لا يوجد مسلم طيب يا ميلاد.. حتى الطيب منهم مغفل ويمشي وراء المتعصبين منهم، عقيدتهم بالكامل جاءت من رجل...

قام خليل فجأة متجاهلًا إشاراتي:

- عندك يا دكتور.. ستتكلم عن النبي أيضًا؟ أنا سامع الكلام من أوله وساكت.. لكن النبي.. لأ.. كثير.

بدا عليهما الفزع.. بينما امتقع وجه ميلاد تمامًا.. التفت إليه خليل:

- أنا يا ميلاد.. أنا كلب عم عباس يا كلب يا ابن الكلب، أنا الذي أدافع عنك طوال الوقت تقول عني ذلك.. وحياة أم أبانوب سأربيك.

تمالك الشاب نفسه قليلًا وصاح غاضبًا:

- أنت واقف تتنصت علينا؟ ما دخلك أنت فيما نقول؟ أنا الذي سيربيك إذا لم تتصرف حالًا.

- تربيني؟ أنا أحسن منك ومن ميلاد الذي يولول لكم كأنه ولية في ولادة ثم يذهب ليُقبّل حذاء عم عباس.. عيل كذاب وواطي، لا أحد يكرهه ولا يعامله بسوء إلا عم عباس، وليس ميلاد فقط.. عم عباس مطلع عين أهالينا كلنا، ومطلع عين زوجته وعياله، وحتى لو كان سيئًا معك يا ميلاد.. قل الحق، شفت مني أنا والمرحوم أي شيء سيئ.

بدأ ميلاد يتهته.. تولى عنه المهمة الطالب نفسه:

- ألم أقل لك امشِ من هنا.. اذهب قبل أن أضربك أمام الكل.. أنت تعرف من أنا؟ أنا جورج عزيز.

دفعه بعيدًا.. اصطدم خليل بأحد الأعمدة الموجودة في المشرحة، نظر إلى ميلاد غاضبًا وهو يقول:

- ماشي يا ميلاد.. أنا وأنت والزمن طويل، تصدق عباس عنده حق.. وأنت بقى يا دكتور جورج.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.. ربنا ينتقم منك.

تجاهله جورج وهو يغمغم بكلام غير مفهوم، مشى خليل في اتجاه الاستراحة وهو يواصل لعناته، لم أتحرك من مكاني.. لم أكن هادئًا لكنني كنت أكتم غضبي وأفكر وأنا أراقبهم، بدا على ميلاد قلق حقيقي وهو يتلفت حوله:

- طبعًا سيذهب ليخبر عم عباس وستكون كارثة.. ليتني لم أتكلم معكم، الموضوع سيصبح أسوأ كثيرًا.

- لا يهمك.. اترك لهم العمل هنا بالكامل.. أنت مثلا عميد الكلية!! أنت مجرد عامل.. قل لي كم تأخذ هنا في الشهر؟

أجاب ميلاد بخجل:

- أربعمائة جنيه.

ضحك الشاب قائلًا:

- كل هذا القرف على أربعمائة جنيه.. أنا سأرتب لك عملًا أفضل مائة مرة، وبدلًا من الأربعمائة جنيه ستأخذ ألفًا يا سيدي.. وعلى الأقل ستعمل مع الأحياء وليس مع الأموات.. مبسوط؟

ابتسم ميلاد في سعادة:

- طبعًا مبسوط.. هو أنا عاشق تراب المشرحة، لولا أكل العيش يذل الواحد.

نظرت إليه في شفقة دون أن أتكلم، بالفعل كل هم ميلاد هو أكل العيش، ظللت جالسًا في مكاني في صمت إلى أن غادروا جميعًا، شردت لوقت طويل وأنا أتساءل عن الحقد الذي يملأ كل هذه النفوس، خليل مثلهم وعباس مثلهم وأسوأ، عندما دخلت إلى الاستراحة كان خليل جالسًا هناك وقد احمر وجهه من الغضب.. جلست إلى جواره صامتًا فسألني وهو يصر على أسنانه:

- ستسكت على ما يحدث؟

نظرت إليه في حيرة وصمت.. أشاح في وجهي بيده وهو يقول:

- كنت أظنك رجلًا.

كان الغضب يملؤه وهو يغادر المشرحة.. وكنت أنا أفكر فيما سيفعله وما سأفعله، ميلاد أمره سهل.. «علقة» موت يأخذها في أي وقت ليعرف من الكلب ومن الأسد، أما جورج فأمره صعب، لم يكن واضحًا لديَّ هل غضب من أجل نفسه أم من أجل الإسلام أم من أجل المسلمين.. أم غيظًا من ميلاد، علاقة خليل بالدين أعرفها من عشرات الحوارات التي تمت بيننا قبل ذلك؛ فهو لا يصلي ولا يعرف طريق المسجد إلا يوم الجمعة، وحتى عندما يذهب إلى صلاة الجمعة غالبًا لا يدخل المسجد إلا مضطرًا، يصلي على آخر الحصير المفروش خارج المسجد ويتخير التوقيت الذي تكون فيه الخطبة انقضت تقريبًا وعلى وشك الإقامة، سألني مرة عن سبب شرودي فأجبته أنني أفكر وأترك المجال لخيالي فضحك وهو يقول إن خياله القاصر دائمًا لا يجمح إلا أثناء الصلاة الوحيدة التي يصليها على مدار الأسبوع، تنتابه عشرات التخيلات والصور اللانهائية والتي تجعله يجلس غالبًا بعد كل صلاة يستغفر، يصوم رمضان بحكم العادة.. وبحكم أن يأكل على المزيد من موائد الرحمن التي حاول قبل ذلك أن يعطيني خلاصة خبرته للاستفادة القصوى من الشهر «الكريم»، فهو يمر على اثنين منها على الأقل في اليوم الواحد، يدخل على الأولى ليخبرهم أنه لن يأكل كثيرًا لأنه تأخر عن عمله، يدس في فمه في لحظات قليلة كمًّا هائلًا من اللحم أو الفراخ والأرز.. ثم يأخذ نصيبًا مماثلًا في كيس آخر، ثم يجري إلى مائدة أخرى يصلها متأخرًا فيخبرهم أنه تأخر في

العمل فيوسعون له ويضعون أمامه أكوام الطعام فيجلس ليأكل على مهل إلى أن يمتلئ.. ويتأخر إلى أن يقوم الجميع فيملأ كيسًا ثانيًا ببقايا الطعام ويرحل، يأكل طوال الليل ويتسحر ويلقي ما تعفن من أكل الأيام السابقة، كان يقول إن ما يتخلص منه في رمضان يعادل ما يأكله طوال السنة، لذلك كان يهز رأسه وهو يلوم نفسه أنه أخذ زيادة، وواعدًا نفسه بأنه لن يأخذ سوى ما يكفيه في المرة القادمة.. لكنه لم يكن يجد في نفسه قدرة على المقاومة في اليوم التالي، ربما لأنه لم يكن يجد ما يأكله طوال العام، الأغبياء الذين يتحدثون عن النظام والترتيب والقناعة وأن تأخذ ما يكفيك يجب عليهم أن يجربوا الحرمان الأبدي لنرى كيف سيكونون من القانعين، أما باقي الفروض فعلاقته بها شبه معدومة.. كيف يمكن أن يعرف من هو مثل خليل شيئًا عن الزكاة أو الحج أو حتى عن الشهادة التي ينطقها في اليوم عشرات المرات، لكنه يحب النبي.. ويحب الإسلام.. ولا يكره المسيحيين، ربما لأنه نشأ في شبرا.. لكنه كان دائمًا ـ بحكم العادة ـ يغضب عندما يسمع أي كلام يمس الإسلام.

لم أجب خليل لأني لم أكن أعرف ما ينبغي عليه فعله، كنت خائفًا عليه من هذه المنطقة الشائكة في الكلية، في كل مكان في مصر المسلمون لهم مخالب والمسيحيون لهم مخالب، هذه المخالب لا تتصارع فيما بينها.. يفل بعضها بعضًا ولا يُفَل إلا الغلابة، قد ينتهي الأمر بفصل ميلاد.. أو بفصل خليل.. أو بفصل كليهما أو بفصلي أنا أو حتى عباس، المهم أن جورج كواحد من السادة لن يحدث له شيء، لم أستطع أن أقول له أن يفعل شيئًا ولم أكن أريده أن يسكت، أمثال جورج هم شعلة النار التي تشعل الحطب وينتهي

دورها.. والحطب هم أمثالنا.. يحترق من يحترق وتظل الشعلة موجودة لتشعل حطبًا جديدًا، لا أدري هل ظلمت جورج عندما وصفته بأنه الشعلة.. لا أظن، بالفعل أمثاله من الطرفين هم الشعلة.. لكني عرفت بعد ذلك من يقوم بالتهوية على النيران لتزيد اشتعالًا.. هؤلاء الذين كنت أظنهم هم الذين يتكفلون بإطفائها.. عندما عاد لي خليل بعد دقائق يطلب مني أن أذهب معه إلى صديقه وابن منطقته.. فؤاد؛ أمين الشرطة الذي يعمل في حرس الكلية، حاولت أن أثنيه.. أخبرني أنه لا يريد أن يذهب رغبة في الانتقام فرغبته قد هدأت بعد دقائق.. لكن لأنه كان يخشى أن يتولى جورج تصعيد الأمر بما يؤدي إلى أذاه؛ لذلك يحتاج إلى مشورته.. وإلى شهادتي على ما حدث لكي يصدقه فؤاد، لم أكن راغبًا في الذهاب لكني وافقته على مضض أملًا في أن ينتهي هذا الأمر سريعًا، ارتحت كثيرًا عندما لم نجده في مكتبه واعتبرت ذلك علامة على أن هذا الأمر انتهى قبل أن يبدأ.

ـ من هو صالح الإسناوي يا مرحوم؟

ابتسم في ثقة وهو يجيب في كلمات متلاحقة:

ـ صالح صالح الإسناوي صالح.. ٤٢ عامًا، حاصل على شهادة محو الأمية.. سائق تاكسي، عنده ولد واحد وبنت واحدة.. البنت لم تذهب إلى المدرسة في انتظار أول عريس، حلم موت الأب وحلم حياة الابن هو أن يتعلم.. نفس ما حدث معي حدث معه، مات الأب قبل أن يكمل الطريق تاركًا خلفه مبلغًا من المال لا يكفي إتمام إجراءات الدفن.

هكذا جاءت إجابته سريعة جاهزة بدون تردد كما لو كان يحفظها، نظرت إليه بتفحص وأنا أتابع أسئلتي:

ـ ومن الذي دفع لابنه النقود التي أعطيتني إيصالاتها؟

أجابني في برود:

- هو بنفسه.

نظرت إليه في استخفاف وأنا أقول:

- صالح الإسناوي مات منذ شهرين يا مرحوم.. كيف سيدفع النقود؟!

ابتسم ابتسامة باردة وهو يجيبني:

- رجع مرة ثانية.. كان يريد أن يطمئن على ابنه.

ضحكت ساخرا:

- أصل الحكاية مزاج.. يموت ولو ناقصاه حاجة يأخذ التاكسي ويرجع.

أجابني بجدية شديدة:

- لأ يا دكتور.. لو ربنا كاتب له يرجع.. يرجع.

اقتربت منه أكثر.. جلست إلى جواره على الأرض.. نظرت في عينيه مباشرة وأنا أقول في ود:

- اسمع يا مرحوم.. أنا أريد أن أساعدك، لو أنني أريد لك ضررًا لكنت ذهبت لعميد الكلية وأخبرته بما قلته أنت لي وأنت تعرف ما سيحدث بعدها، ساعد نفسك وساعدني في علاجك يا مرحوم.

- صدقني وستستريح يا دكتور.

- حاضر يا مرحوم.. سأصدقك، قل لي الحكاية.. من أين تعرف صالح الإسناوي؟

أجاب ببساطة:

- ربنا هو الذي عرفني عليه.

لم أستطع أن أتمالك نفسي وأنا أجيبه في غضب:

- ربنا هو الذي يفعل كل شيء في الكون، أنا عارف. من فضلك حاول أن تكلمني كما أكلمك.. ما حكاية صالح الإسناوي؟ لِمَ أعطيتني هذه الإيصالات؟ من الذي ذهب إلى المدرسة ودفع النقود؟

أجاب على الفور:

- أنا وهو.. فعلت نفس ما فعلته في المرة السابقة، لكن هذه المرة أسقطت روحي في جسد الأسطى صالح الإسناوي، ميلاد لم يعد موجودًا لكني تعلمت كيف أفعلها.. ذهبت بجسد الرجل إلى المدرسة ودفعت النقود.

هززت رأسي في خيبة أمل:

- كفى يا مرحوم.. أنت لست روحًا تتنقل بين الأجساد كما تظن، ولا تستطيع أن تلبس جثة سميحة ولا صالح ولا غيرهما، وربما أنت لم تر جثتهم أصلًا من الأساس.

ابتسم في سخرية:

- ألم تذهب إلى المدرسة وتتأكد بنفسك؟

- كونك ذهبت إلى المدرسة وقلت إنك صالح الإسناوي لا يعني أنك ارتديت جثته.. ولا يعني أن ما تقوله يحدث.

جاء رده سريعًا:

- ميلاد شاهد على حكاية سميحة.

- إذن نسأل ميلاد.

هز رأسه رافضًا:

- لم يعد يأتي إلى المشرحة.. تشاجر هو وخليل وغالبًا لن يأتي مرة ثانية.

ابتسمت في انتصار.. قررت أن أحاصره:

- عندك رقم تليفونه؟

أشار إلى ورقة على الحائط عليها أرقام تليفونات كل العمال بلا مبالاة:

- ابحث عنها هناك.

وجدت رقم ميلاد وعباس وخليل.سجلتها جميعا، نظرت إليه مستفسرا:

- أنت الوحيد الذي لم يُكتب رقمه.

ابتسم ساخرًا:

- الحقيقة لا أملك رقما، لا أظن أنني أحتاج محمولا، أعرف أن الجميع يستخدمونه، حتى الجائعون والشحاذون المنتشرون أمام المستشفى يملكون واحدًا.. ربما من أجل الوجاهة، لكن أي وجاهة يحتاجها رجل يعرف في النهاية أنه مجرد شحاذ أو عامل في مشرحة؟

كالعادة لا يخلو كلامه من المنطق، أعود إلى تشخيص الدكتور مختار.. المريض غالبًا أذكى من المعتاد.. فتحت صوت الهاتف ليتمكن المرحوم من الاستماع.

- آلو ميلاد؟ أنا الدكتور محمود سلمان من الكلية.. أريد أن أسألك عن بضعة أشياء.

- يا دكتور أنا في حالي ولا دخل لي بهم.. هم الذين يضطهدونني.. وأنا لن أسكت.

لم أفهم شيئا، واصلت في صرامة:

- لا.. ستسكت وتسمعني.. أنا لا أفهم ما تتحدث عنه، أنا أريد أن أسألك عن المرحوم.. أعتقد أنه كان يتخيل أن هناك جثة اختفت وأنك أيقظته.. وأن...

- لأ يا دكتور محمود.. المرحوم لا يتخيل؛ جثة البنت الحلوة.. الجثة اختفت بالفعل، أنا رأيتها يومها قبل أن أغادر.. وعندما عدت في الصباح لم تكن الجثة موجودة.

- وهل كان المرحوم موجودًا؟

- نعم يا دكتور.. كان جسده لا يزال في مكانه كما تركته تمامًا، تحت المنضدة.. بينما الجثة التي كانت فوقها اختفت.

ضحكت بعصبية:

- ربما جننت أنت أيضًا يا ميلاد.

جاء صوته موافقًا:

ـ نعم جننت.. المرحوم جنني، أصبحت أخاف منه ولا أستطيع أن أقول له لا، أخاف منه.. لا أدري إذا كان مجنونًا أم ساحرًا أم جسدًا ملبوسًا بعفاريت، أنا لن ألعب معه هذه اللعبة مرة أخرى.. جسدي لم يعد خالصًا، احمني منه يا دكتور ومن عفاريته وأنا لن أدخل المشرحة مرة أخرى، يلعن «أبوك» يا مرحوم و«أبو» كل أصحابك الأموات.. أنا سأرحل ولا أريد أن أراه ولا أراهم مرة أخرى.

لا أدري إذا كان الخط قطع أم أنه أغلقه في وجهي!! لم أكن أحتاجه على أي حال.. التفت إلى المرحوم الذي علق ساخرًا:

ـ مغفل!!

هززت رأسي نافيًا:

ـ لو أنني في مكانه لفعلت نفس الشيء.

نظر إليَّ وأشاح بيده:

ـ أنت في مكانه يا دكتور.. فارحل أنت أيضًا ولا تراني مرة أخرى.

ابتسمت في ثقة:

ـ لا يا مرحوم.. أنا لست في مكانه، علمي غير علمه وعقلي غير عقله، أعرف أن ما تقوله وما تفعله غير معقول، لا أخاف من أشباحك ولا من جثثك.. ولن أتركك، أنا أعرف أنك تحتاج إلى المساعدة وأنا أريد أن أساعدك.. فهل تريد أنت هذه المساعدة؟

نكّس المرحوم رأسه في ضعف:

ـ اسمع يا دكتور.. أنت تريد الحكاية وأنا أريد مساعدة هؤلاء الناس، طالما جاءوا إليَّ هنا فهم يحتاجون مساعدتي، صالح الإسناوي كان هنا.. وسميحة كانت هنا، خذ حكايتك ودعني أفعل ما أريد.

أجبته في صبر محاولا إقناعه:

ـ يابني المفروض أنك لا تعرف أحدًا من هذه الجثث.. هذا ما قاله عباس، نحن لسنا في أمريكا لتكون هذه جثث متبرعين.. أنت لا تعرف الجثث.. افهم.

تحركت تجاه الجثة الملقاة على أقرب مائدة وأشرت إليها في هدوء:

ـ قل لي يامرحوم، هل تعرف هذه الجثة؟ من هذا؟

نظر المرحوم إليَّ في تردد.. واصلت:

ـ أرأيت.. أنت لا تعرف.

واصلت دورتي حول باقي الجثث.. أكشفها واحدة تلو الأخرى:

ـ ومن هذه؟ ومن هذا؟ ومن هذا؟ ومن هذه الطفلة الصغيرة؟ ومن هذا العجوز؟ تعرفهم؟ قل لي اسم واحدة من الجثث التي أراها أمامي الآن وأنا سأصدقك.

لم يجب المرحوم، رأيت في عينيه احتراما وتقديرا لم أفهم مصدره، ربما أقنعته؟ اقتربت منه:

ـ ارحم نفسك.. أنت لست إلا بشر مثلنا جميعًا.. ولست مجنونًا،

لا أدري كيف عرفت بحكاية ابن صالح ومصاريف مدرسته ومن الذي ذهب إلى هناك، لكني متأكد أنك تحتاج إلى المساعدة لتتخلص من كل هذه الخيالات، إذا كنت ستقبل مساعدتي سأساعدك.. وإذا كنت تريد شركاء جدد في هذا الجنون غيري وغير ميلاد الذي جعلته يترك عمله فعليك أن تبحث عن مغفلين جدد، فلا أنا ولا ميلاد سنساعدك في هذا الجنون أكثر من ذلك.. لكي نكون شهودك أمام نفسك على أن ما يحدث لك حقيقي، فالحقيقة أنك تعيش في عالم آخر اخترعته أنت.. عالم كله من الأموات حتى أنت، وتريد أن تشرك فيه بعض الأحياء.. ابحث عن شخص آخر يا عبد الحي.. هذا هو اسمك الحقيقي، المرحوم اسم يكمل لك كذبتك.. لن أناديك به مرة أخرى، ربما تكون قصتك كلها كاذبة حتى في موضوع الاسم.. فهمت ياعبد الحي؟ أنا سأكتب لك تليفوني على الورقة نفسها التي توجد عليها باقي الأرقام.. إذا رجعت لعقلك أو أردت أن أساعدك كلمني.

كتبت رقم محمولي دون أن أضع اسمي إلى جواره.. فكرت للحظة.. المرحوم يريد اهتماما، أنا سأحرمه منه. لن أعطيه ما يريد.. وقفت في مكاني للحظات مترددًا، ناداني.. تجاهلته مغادرا وأنا أشيح بيدي:

ـ لا خلاص، أنا مللت الحكاية، لاعندي وقت ولا عندي دماغ ولا أريد منك شيئا، ولعلمك سأعطيك أسبوعًا واحدًا فقط بعدها سأبلغ عنك رئيس القسم والعميد وربما الشرطة أيضًا لأنهم

سيحيلونك إلى مستشفى الأمراض العقلية فتعالج غصبًا طالما لا تريد أن تعالج باختيارك.

قبل أن أصل إلى الباب ناداني مرة أخرى:

ـ يا دكتور محمود.

استدرت إليه.. أشار بسبابته محذرًا:

ـ إياك أن تفعل هذا يا دكتور.. إياك.

لاحظت في هذه اللحظة أنني لا زلت في المشرحة وحيدًا مع المرحوم بعد أن دخل الليل، لكني كنت قريبًا من الباب وهو بعيد عني.. ربما هذا ما أعطاني الشجاعة الكافية لأنهره في استهزاء:

ـ تهددني يا مرحوم؟!

هز رأسه نافيًا بابتسامة أدهشني ما فيها من الود وهو يقول:

ـ لا طبعًا.. لكني سأنكر كل ما تقوله أنت، وسأقول إنك أنت الذي تتصور أشياء وتصر على دخول المشرحة في غير مواعيد العمل. وإنك تريد أن تنتقم مني لأني أمنعك، وعلى فكرة.. أنا بالفعل قلت هذا لعم عباس عندما سألني عنك بعد حوارك معه عني. يعني أصبح عندي شاهد!

لم أغضب عندما سمعت ماقاله لكني تظاهرت بالغضب.. غادرت مسرعًا، دخلت سيارتي وعلى وجهي ابتسامة تعجب.. بمجرد أن انطلقت بها وجدت نفسي أردد في غيظ:

ـ يا ابن اللئيمة يا مرحوم!!

العلامة العاشرة

الطريـق

لم يؤثِّر فيَّ محمود في أي يوم منذ أن عرفته مثلما فعل في ذلك اليوم الذي ظل فيه معي في المشرحة إلى ساعة متأخرة محاولًا إقناعي بأنني مريض وأحتاج إلى المساعدة.. لأول مرة أنظر إليه بكل هذا الإعجاب والتقدير. كان مختلفًا، اختفت من عينيه نظرة الفضول ولمعة الطمع.. وبدت فيهما طيبة شديدة ورغبة حقيقية في أن يمد يده لي بالمساعدة، غلب الطبيب فيه على الباحث عن حكاية، الحقيقة أنه ساعدني كثيرًا يومها.. علمني أن أفعل مثله.. أنا لم أُبد له رغبة في مساعدته ومع ذلك ترك لي رقمه على الحائط ليفتح لي الباب، أنا يجب أن أبحث عن محروس.. كل شيء يأخذني إلى طريق الجديد، الرؤيا التي جاءتني ثم لقائي بمحروس ثم ما يفعله معي محمود، الحقيقة أنني رأيت أنه انضم إلى محروس في قائمة الأحياء الذين ينتظرون مني العون.. سأريحه، لن أتحدث معه في أمور رسالتي الأولى.. سأشغله وأشغل نفسي بالرسالة

الجديدة.. الأحياء، ربما سيشعر بنصر وأنه فعل شيئًا، من أول يوم سمعته وهو يتكلم في المشرحة مع أصدقائه شعرت أنه يبحث عن دور له، راقبته وأنصتُّ إليه كثيرًا وراجعت كل الكتب التي كنت قد قرأتها بحثا عن البداية.. كنت قد انبهرت به وبما يكتبه في مجلة الكلية بعد أن سمعته وهو يتحدث مع أصدقائه، قررت أن هذا هو الشخص الذي يمكن أن ينشر رسالتي في اتجاه آخر.. الحقيقة أنه أفضل مما تصورته.. هذا ما تأكدت منه اليوم، إنه مشغول بي تمامًا.. ربما أكثر مما أنا مشغول بمحروس، أنا أيضا لم أنس محروس في كل تلك الأيام التي حاولت أن أتناساه فيها.. محمود قدرًا أجابني عن السؤال الذي كان يراودني بإصراره على مساعدتي بالطريقة التي يراها الأنسب، كنت أتساءل عن البشر.. هل من حقنا أن نساعدهم غصبًا إذا كانوا لا يفقهون؟ إجابتي بعد كل ما رأيت هي نعم.. نحن مكلفون بمساعدة أصحاب العقول القاصرة حتى إذا لم يطلبوا منا ذلك، لا يمكن أن نترك طفلًا صغيرًا يضع يده في النار بحجة أنه يريد ذلك، ولا يمكن أن نترك مجنونًا يُلقي نفسه من الدور العاشر لأنه يريد ذلك.. بالقياس لا يمكن أن نترك إنسانًا نصف عاقل يعيش حياة مخزية لأنه يريد ذلك، الآن أضحك وأنا أكتب هذه الكلمات.. محمود كان يساعدني ويأتي ويذهب ويجلس معي بهذا الفكر نفسه، أرى عينيه تقولانها صراحة.. أنت مجنون لذلك سأساعدك حتى إذا لم ترغب في ذلك، هل يوجد أنبل من هذا؟! لكني لم أكن زاهدًا كما بدا في مساعدته، كنت أعرف حتمًا أنني سأحتاجه عندما أرتدي جسد أشرف البشلاوي.. أنا سأحميه ولن أسمح لهم بأن يؤذوه، وربما هو يستطيع أن يحميني.. أو على الأقل

أن يخلد قصتي التي تستحق أن يعرفها بعض الناس، لا يجب أن تموت بموتي الذي أظنه اقترب. على أية حال لا بد أن رؤيته لي تغيرت بعد أن أخذ الإيصالات.. عندما يهدأ ويفكر سيجعله هذا أكثر إيمانًا بي وبرسالتي وسيساعدني بلا شك.

في المساء وقفت أراقب محروس عن بعد.. كان يقف في المكان نفسه يكرر أشعاره نفسها على المارة.. يبتعد عنه الجميع، أنت ترى الناس من حكمك عليهم.. هذه المرة كنت أعرف أنه ليس مجنونًا، مَن يبتعدون عنه في خوف يبدون لي أغبياء.. كان يبدو أنظف كثيرًا.. يبدو مضحكًا وهو يرتدي القميص و«البنطلون» اللذَيْن أخذهما مني لكنه كان أنظف، رآني فاضطرب للحظات ثم أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، درت حوله ليراني ثانية فأدار وجهه بعيدًا.. ابتسمت.. ظللت واقفًا أنظر إليه في سكون لدقائق وهو يلتفت ثم يدير رأسه بعيدًا.. مللت اللعبة بعد دقائق.. ناديته:

- محروس.. تأكل؟

التفت إليَّ في تردد:

- معك أكل؟

أجبته بهدوء:

- تعال معي وسأحضر لك.

هز رأسه نافيًا:

- لن أذهب إلى الميّتين.

ضحكت ساخرًا:

ـ حاضر يا سيدي.. تعال معي ولن آخذك إليهم.

مشيت ومشى محروس خلفي.. وقف إلى جواري عند عربة الفول، طلبت لنفسي رغيفًا.. سألته كم يريد فهز رأسه ولم يجب، اشتريت له خمسة أرغفة.. انقض عليها كالمرة السابقة، جلست على الأرض إلى جواره.. جلست أتأمل ملامح وجهه جيدًا.. تخيلته طبيبًا مثل محمود أو مثل فوزي أبو النور، في الواقع كان أكثر منهما وسامة.. تخيلته مكان ميلاد ومكان خليل، المدهش أنني رأيته في كل تلك الصور أكثر جدارة بأصحابها منها، تخيلته مكاني أنا المرحوم.. لم أجده ملائمًا، أنا الرسالة التي أحملها لذلك فهي لا تنطبق على أحد سواي، كنت أفكر في المطلوب مني لهذا الرجل الحي الميت، ألح عليَّ هاجس أنه سيموت قريبًا وسيصبح جسده أمانة عندي لأفعل به شيئًا، كنت أفكر فيما سأفعله حينها، ربما سيكون عليَّ أن أرتديه وأتحرك به على المقاهي مكررًا أغانيه.. كل ما يقوله فيها يستحق أن يُسمع لكنه لا يفهم ما يقول، ربما هذه هي لعنته.. كل من لا يفهم ما يقول يستحق لعنة محروس، لعنة أن تقول ولا تُسمع.. أو تَسمع ولا تَفهم، أنا أختلف عنه.. أنا أفهم كلماته أكثر منه.. ربما يكون هو رسولًا إليَّ، آخذ منه ما يحفظ وأقوله بصيغة أخرى فأنتقل من حياة الأموات الساكنة إلى حياة الأحياء المزدحمة، أتكلم مع الناس بدلًا من أن أتكلم مع خمسة أحياء ومائة ميت.. لكن ماذا عن هذه الجثث التي تنتظرني في المشرحة؟ هل سأتركها هناك دون أن أصل بها إلى الراحة الأبدية؟

بالتأكيد لا، ما أفعله أنا لا يفعله سواي.. أما هذا المسكين فما يفعله يمكن أن يفعله هو أو غيره، تنهدت بعمق وأنا أقول:

ـ أريدك أن تعود إلى الدنيا يا محروس.

نظر إليَّ في صمت.. تابعت:

ـ كم تحفظ من المواويل؟

هز كتفيه وهو يقول:

ـ كل ما كان يحفظه أبي.

قمت من مكاني فجأة وأنا أقول:

ـ إذن تعال معي.

عند أول «كشك» كلمت الدكتور محمود.. كانت سعادته لا نهائية عندما أخبرته أنني اقتنعت بكلامه، وأنني الآن خارج المشرحة أتجول بين الناس وتناولت العشاء مع صديق أريده أن يلقاه، وأن يساعدني في مساعدته، كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد.. أخبرني أنه سيأتي لي في الصباح.

ـ لو عندك وقت أنا يمكن أن آتي لك.. معي الرجل المجذوب الذي يقف في الميدان.. لا بد أنك رأيته قبل ذلك.. ستكتب عنه أكثر مما ستكتب عني.

ضحك مندهشًا:

ـ مجذوب يا مرحوم!!

عاجلته مقاطعًا:

- أعقل مني ولا مؤاخذة منك يا دكتور.. اسمع كلامي ولن تندم.

سكت قليلًا.. ثم جاءني صوته مستسلمًا:

- تعال يا مرحوم أنا جالس على مقهى في وسط البلد!!

محمود سلمان

عندما كلمني المرحوم كنت جالسًا مع أصدقائي على المقهى.. كنت أحكي لهم عنه، بعضهم كانوا زملائي في الكلية ويعرفونه، حدثني عن صاحبه.. مجذوب الشارع، المرحوم ينتقل من الموتى إلى المجاذيب، كالعادة يعتبر نفسه مسئولًا عنهم، عمومًا تبدو لي خطوة على طريق الشفاء، من الموتى إلى المجاذيب ومن المجاذيب إلى العقلاء. على أية حال أعترف أنني وجدتها فكرة عبقرية أخرى من خرافات المرحوم.. هاري بوتر مصر، لم أفهم كيف يريدني أن أساعده! ربما بضعة جنيهات وعشاء، قد ينتهي الأمر بمقال آخر مسلسل عن المجاذيب، لا شك أن المرحوم يرى بسهولة ما لا أراه.. كل أفكاره فريدة وأنا أحتاج إلى هذه الأفكار، حكاية كبيرة أستمتع بها وأستفيد منها، أنا سآخذ منه وأكتب.. عالمه الحقيقي شديد الخيال، الأمر الذي اعترفت به لنفسي أنني أستمتع بوجود المرحوم وبما يقودني إليه، هناك متعة حقيقية في رؤية ما تراه كل يوم بعيون جديدة، متعتي نفسها وانبهاري عندما نظرت لأول مرة في الميكروسكوب

لأكتشف أن البقعة الصغيرة الموضوعة على الشريحة هي عالم كبير مليء بآلاف الكائنات الحية التي تكافح من أجل البقاء، وأن الدفقة الصغيرة التي تخرج من قضيب الرجل تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية التي تعتبر أنصاف بشر.. معلومات كنت أعرفها جيدا، لكن عندما تراها بعينيك شيء آخر تماما.. وعندما تعيشها شيء ثالث.. أعتقد أن المرحوم في بداية علاقتي به كان يمثل بالنسبة لي شريحة جديدة كنت أتأملها بدقة. أصبح هو الميكروسكوب. العدسة التي أشاهد من خلالها الجديد.. ما حدثني عنه في ذلك اليوم كان أسطوريا بالنسبة لي. مجذوب!! لم أجد مانعا في أن أشرك أصدقائي فيه، فرصة ليشاهدوا رجلًا من عالم آخر تحت قيادتي، من يحتاج إلى رجال خضر آذانهم في منتصف جباههم وعيونهم صفراء بلا حدقات لكي يبهر الآخرين؟ يكفيني المرحوم ومن معه ومن وراءه؛ لذلك قبلت أن آتي به إلى المقهى، سيكون الأمر مسليًا لهم وملهمًا لي وسيكون جوًا آخر للمرحوم.. قد يشفيه من عالمه الخيالي أن يجد نفسه في عالم حقيقي.. الكل مستفيد.

دقائق قليلة ووجدتهما أمامي، تأكدت أن الأمر يستحق.. لم أستطع أن أكتم ضحكتي.. كان مظهرهما سويًا غريبًا؛ المرحوم بنظراته الحادة المريبة ورأسه الذي لا يهدأ من الدوران في كل الاتجاهات طوال الوقت وهذا الآخر الذي كان يرتدي ملابس ضيقة وقصيرة.. لحية كثة وشعر كثيف عشوائي، يصلح لأن توضع صورته على لوحة دعاية لفرقة من فرق الموسيقى الحديثة، يمشي بوجه جامد كما لو كان رجلًا آليًا، وقفا بعيدًا في تردد.. ذهبت إليهما، مد المرحوم يده فسلمت عليه بكف مفرودة:

ـ أهلًا يا مرحوم.

ابتسم في حماس وهو يقول:

ـ محروس.

هززت رأسي مرحبًا.

قال المرحوم على الفور:

ـ المجذوب الذي يقف في الميدان.

نظر إليه رفيقه في استياء، أول ملاحظة لي.. أنه [illegible]

يرى لنفسه تعريفًا يختلف عما نعرفه نحن [illegible]

ربت المرحوم كتفه وهو يقول بـ[illegible]

ـ صديقي محروس سيُسمعك أجمد [illegible]

نظرت إليه بتفحص ودهشة.. تجاهلت نظرات [illegible]

وجلسنا إلى مائدة أخرى.

ملت عليه في تساؤل:

ـ وأنت؟ ماهي حكايتك؟

نظر إليَّ بوجهه الجامد.. لم يقل شيئًا.

ضحك المرحوم جذلًا وهو يقول:

ـ يا دكتور.. هل تظنه [illegible]

اسمع.. قل لنا شيئًا يا [illegible]

لم تبد على هذا المحروس أية انفعالات.. وكزه المرحوم:

- البيه سيحضر لك طعامًا كثيرًا يا محروس.. ممكن بيبسي يا دكتور.

طلبت لهما زجاجتين. وضعهما صبي القهوة أمامهما وهو ينظر إليهما في قرف، مد المجذوب يده إلى الزجاجة في شغف.. اختطفها المرحوم من أمامه وهو يقول:

- غنِّ الأول يا محروس.

أجابه في خشونة:

- أشرب الأول.

أعطاها له المرحوم:

- اشرب يا سيدي.

شربها دفعة واحدة وتجشأ بصوت عالٍ.. مسح فمه بظهر يده.. لكزه المرحوم مرة ثانية.. بدأ يغني:

ليه يا مراكبي في الصباح ساكت ومتزفت

ومركبك في الطين غرق لما البحار جفت

شربوها أولاد المَرَة.. وبرضه ما كفت

خواجات بيخدمهم خوج.. وأنت.. بتتلف

سمعت بكاك الولية.. قامت عليك.. تفت

أبهرني ذلك المحروس.. الصوت والكلمات.. كل شيء عدا

شكله، لم أستطع أن أقاوم.. ضحكت في دهشة وأنا آخذه من يده إلى المائدة التي يجلس عليها أصدقائي.. صِحت فيهم:

- معي لكم نمرة.

نظروا إلينا في دهشة.

أجلسته على الكرسي الذي كنت جالسًا عليه ووقفت خلفه وقد وضعت يدي على الكرسي، وكزته كما كان المرحوم يفعل وأنا أقول:

- غنِّ يا محروس.

لم يستجب محروس.. بدا عليه الخوف.. علق أحدهم:

- غنِّ يا مخروس!!

ضحكوا جميعًا فبدا عليه المزيد من البلاهة.

أشرت إليهم ليصمتوا.. أخرجت من حافظتي عشرين جنيها وضعتها أمامه:

- غنِّ يا محروس.

لم يُبدِ اهتمامًا كبيرا بها، كان صبي القهوة يمر وعلى صنيته كوب من عصير المانجو.. اختطفه المرحوم من على الصينية ووضعه أمامه، وهو يقول:

- غنِّ يا محروس.

نظر إليه محروس في تساؤل فتابع المرحوم:

- الضبع لما حكم.

تلفت محروس حوله للحظات.. ثم بدأ يغني، كان الزحام يتزايد والأصوات تعلو، فطلب منه المرحوم أن يعلّيَ صوته، قام محروس ووقف فوق الكرسي وهو يغني بصوت عال.. التفت إليه الجميع في القهوة وصوته يأتي شجيًا.. جاء الرد سريعًا:

ـ اللاااااااه.

عشرات من أصوات الجالسين خرجت مع بعضها في آنٍ واحد، لأول مرة منذ رأيته بدأت ابتسامة تتشكل على وجهه الجامد.. ظلت ترتسم وتغيب.. ثم ترتسم وتغيب، إلى أن تحولت إلى ابتسامة كبيرة ثابتة، سحب بعض الجالسين كراسيهم واقتربوا.. حتى المعلم عبد الغفور صاحب المقهى اقترب منا وسحب كرسيًا وجاءوا له بالشيشة.. وهو يقول باهتمام:

ـ تاني يابني.

شرب كوب المانجو كالعادة على مرة واحدة.. لم يحتج إلى إغراء جديد.. بدأ من نفسه يغني:

كان فيه زمان طراطير كتير   وتاج وحيد تحتيه ملك

توالت الأغاني.. وتوالت الضحكات وتوالى التصفيق، وبدأ يكرر وأنا أسجل ما يقوله على المحمول.. كان اختراعًا ولا شك، عقدنا اتفاقًا مع صاحب القهوة.. محروس سيبيت فيها كل ليلة.. يغني بنومته وأكلته لمن يطلب من الزبائن وأنا سأشتري له الربابة وأحضر له بعض ملابسي القديمة وغطاء يفرشه لينام عليه، أما المرحوم.. فسيعود إلى المشرحة.

عرض المرحوم أن يأتي معي ويعود هو بها له.. لم أفكر كثيرًا، أخذت المرحوم في سيارتي، في تلك الليلة تأكدت أنني أخاف من المرحوم، لم ألحظ ذلك إلا عندما وصلنا عند البيت.. قلت له على مضض:

ثانية واحدة سأحضر الأشياء وأنزل فورًا.. لم أكن أريده أن يصعد معي إلى أعلى ولم أكن أريد أن أتركه وحده في السيارة، لا أعرف إذا كان قد لاحظ ذلك أم لا.. لكنني شعرت بارتياح أكبر عندما قال لي:

ـ سأنتظر في الهواء.

لم أفكر في أن أطلب منه البقاء في السيارة.. على العكس قلت له بسرعة:

ـ احترس وأنت نازل من هذه الأسلاك.. قد تكون فيها كهرباء.

رسمت ابتسامة بلهاء على وجهي متابعًا:

ـ لم نستطع أن نعرف حتى الآن هل هي كهرباء أم تليفون!

كنت على حق عندما رفضت صعوده معي.. مجنون، فتح بابه ونزل، مد يده وأمسك بطرف أحد الأسلاك بقوة وهو يغمض عينيه.. لم يحدث له شيء فابتسم في بساطة.. مال بعدها على السلك ثم وضع طرفه في فمه وهز رأسه في ألم.

ثم قال بابتسامة باهتة:

ـ تليفونات.. التيار خفيف.

أصبحت أرى المرحوم خارج المشرحة.. انتقل مكان لقائنا الرئيسي إلى المقهى الذي كنت أجلس عليه من آن لآخر والذي أصبح صديقه المجذوب يعمل فيه، استكملت نقاطًا عديدة من حكاياته في أثناء تلك الجلسات المتقطعة، كنت سعيدًا أنه لم يعد وحيدًا كما كان، ككل شيء يفعله كان مليئًا بالمبالغة؛ وضعت له تعريفا جديدا فهو في نظري «*Hyperstrange person*» (إنسان فوق غريب). يملك الكثير لكنه لا يستفيد مما يملكه بأي شيء، كان لا بد أن يوصف كما قال عن نفسه؛محدث، محدث تصوير ومحدث كلام ومحدث أصدقاء ومحدث جلوس وسط الناس، يتصرف دائما بطريقة متطرفة.. تجده جالسًا على المقهى أمام محروس يصفق ويغني معه في مبالغة تميل نحو الجنون، يضحك بصوت عالٍ وينظر لي ثم ينظر إلى كل من حوله، بدا لي فخورًا به.. في ذلك اليوم بدا حاله مختلفًا.. كان شاردًا تمامًا لدرجة أنه لم يشعر بي حين جلست إلى جواره.. لم يلتفت لي، التزمت

الصمت، لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام.. المرحوم يفكر.. إذن هناك مصيبة جديدة:

- ما لك يا مرحوم؟

انتبه المرحوم.. نظر لي والحيرة تملأ عينيه:

- أهلًا يا دكتور.. جئت في وقتك.

ضحكت وأنا أقول:

- ربنا يستر.. طالما هو وقتي إذن فهناك مصيبة جديدة، كنت أظن أنك عقلت.. خير.. ميت جديد؟

لم يبتسم المرحوم.. أجاب في صوت مملوء بالهَمّ:

- لا يوجد أموات هذه المرة.

أجبته بنظرة مستفسرة.. قال وهو يتنهد في عمق:

- فرحة تريدني أن أتزوجها.

سألته في دهشة وحذر:

- فرحة.. أختك؟

هز رأسه مؤكدا وهو يقول:

- بالأمس جاءتني في المشرحة.. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، كنت راقدًا على الأرض، في هذه الليلة - سبحان الله - فتحت الراديو على إذاعة القرآن الكريم.. جاءني صوت الشيخ الحصري وهو يقرأ في جزء عم الذي أحفظه جيدًا،

لبست طاقية بيضاء شبك فوق رأسي ووضعت المصلية وجلست أقرأ معه وأتمايل يمينًا ويسارًا، انتبهت على صوت دقات خافتة على باب المشرحة الرئيسي، كنت قد اعتدت إغلاق الباب بعد دخولها أول مرة.. ليس خوفًا منها لكن من أي غريب آخر، قمت من مكاني فزعًا وصحت:

- من؟

لم يأتني الجواب إلا على هيئة دقات أخرى، التقطت سيخًا حديديًّا طويلًا صدئًا من على الأرض، أمسكته في يدي.. فتحت الباب، ابتسمت في سعادة وقلت لها:

- أهلًا أهلًا.. تعالي ادخلي.

دخلَت في خطوات بطيئة.. كانت ترتدي نقابًا أسود ترتديه عادة عندما تأتي إليَّ.. دخلَت وعيناها مليئتان بالدموع.. نظرت إليها في قلق وسألتها:

- ما بكِ؟

جلست على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط.. انفجرت باكية وهي تقول:

- صادق يريد أن يزوجني.

نظرت إليها في دهشة:

- يزوجك!! لمن؟

هزت رأسها في أسى وهي تقول:

- أمي تقول إنه رجل غني من الخليج.

أجبتها ساخرًا:

- وطبعًا عمره ستون عامًا.

هزت رأسها نافية:

- لأ.. إحدى وسبعون سنة.. يعني ميت.

- وأمك وافقت؟

هزت رأسها في يأس وهي تقول:

- أمي توافق على كل ما يقوله صادق.. كما لو كانت تحت سِحْر أو معمول لها عمل.

أجبتها غاضبًا:

- الله يخرب بيت أمك وزوجها.. ماذا ستفعلين؟

أجابتني بنظرة غاضبة معاتبة وهي تقول:

- أنا جئت لك لتخبرني ماذا أفعل.. لم يعد لي أحد سواك.

هززت رأسي موافقًا:

- لا تخافي.. أنا سأجد لك حلًّا.

ضحكت بعصبية وهي تقول:

- أي حل أنا موافقة عليه، لن أسافر مع رجل عجوز ليذيقني الذل ويفعل فيَّ ما يريده هو وزوجاته وأولاده.

هززت رأسي في فهم.. أمسكت بيدها وأنا أقول:

- لا تخافي يا فرحة.. أنا لن أسمح له بذلك.

انفجرت في البكاء وهي تقول:

- أنت تعرف صادق.. طالما وضع شيئًا في رأسه فسيفعله بالتأكيد، ربما يخدرني ويضعني في صندوق ويسلمه للرجل، أو يأتي به في الليل ويدخله عليَّ وأنا نائمة.. أنا خائفة يا مرحوم.

نظرت إليها في صمت، أعرف صادق جيدًا.. بالفعل لن يسكت عن الفكرة التي في رأسه، عليَّ أن أحميها.. الحل هو أن آخذها ونترك له المقابر بما فيها، لكني لا أستطيع الآن.. انتبهت على صوتها:

- لا يوجد سوى حل واحد يا مرحوم.

نظرت إليها مستفسرًا.. تابعت بصوت خافت:

- لن يحميني من فكرته هذه إلا أن أتزوج يا مرحوم.. ورقة زواجي لأضعها في عينه وفي عين أي عريس يحضره لي.

هززت رأسي في اقتناع.. لكن من أين سآتي لها بعريس تحت الطلب.. يتزوجها ويحميها.. أجبتها وأنا أفكر:

- هناك شخص ما في رأسك يا فرحة؟

أجابت بلهجة حادة وهي تنظر في عينيَّ:

- نعم.. أنت.

لم أجد ما أقوله لها.. تابعت هي بكلمات متلاحقة:

- نعم أنت.

- أنا أخوكِ يا فرحة.

هزت رأسها رافضة في إصرار:

- لا أنت لست أخي.. أنت كل يوم تدعي أنك شخص جديد، ألست أنت من يقول إنك ترتدي أجسادًا أخرى، اختر لي أي واحد منهم.. لا فارق عندي، تزوجني بالاسم الذي يريحك.. أنا موافقة، كل ما نريده ورقة تقول إنني متزوجة.. وأنت أقرب، لا.. أنت الوحيد الذي أستطيع أن ألجأ إليه.

- لكن...

لطمت وجهها وهي تصرخ غاضبة:

- لا يوجد لكن.. بطل استهبال، الورق الذي معك فيه بطاقة سعيد.. يا أخي تعال على نفسك وقل إنك سعيد، يعني أنت كل يوم تقول إنك شخص آخر ولا تستطيع أن تقول إنك سعيد، وحياة أمي إذا لم ترض سأشعل النار في نفسي هنا.. فاهم؟

لم أجبها.. تركتها تغادر وهي تبكي، جلست أفكر فيما قالت.. بالفعل الزواج بالأجساد وليس بالأرواح.. أنا مثلًا إذا قررت أن أتزوج وأنا في جسد سميحة هل سأتزوج امرأة؟ بالطبع لا.. سأتزوج رجلًا، لهذا كان من المنطقي أن يكون زواجي منها في جسد أشرف باشا مثلًا مقبولًا لأنه لن يكون جسد أخيها.

قاطعته في غضب:

- لا يا مرحوم لا يوجد منطق.. يبدو أنها مجنونة مثلك، تريد أن تتزوجك.. أنتم مجانين، هل وافقتها؟

أشار إليَّ لأهدأ:

- أنا لو وافقت لما تكلمت معك الآن.. أنا أستشيرك، ولاحظ أنها لا تريد الزواج مني أنا، تريد أن أتزوجها على أنني سعيد.. مجرد ورقة صورية.

أجبته على الفور:

- وأنا أقول لك إن الأمر زاد على حده.. أنت أصبتها بلوثة مثل لوثتك، قل لها لا يا مرحوم وابتعد عنها قبل أن تُجن هي الأخرى وتبدأ في الادعاء أنها رجل.

وضع يديه على رأسه وهو يفكر في عمق.. قال بهدوء:

- كنت أريد أن أطلب منك أن تتزوجها ولو زواجًا صوريًا لكنني متأكد أنك سترفض.

انفجرت فيه غاضبًا وأنا أغادر:

- تريدني أن أتزوج أختك يا مرحوم؟ أنا قلت إنك بالتأكيد لم تصل إلى هذه الدرجة من الجنون، تريدان أن ترسما عليَّ خطة؟ لا يا مرحوم، أرِح نفسك.. لا صوري ولا حقيقي.. ابحث عن مغفل غيري.

نظر إليَّ في غضب وهو يقول:

- أنا لم أقل إنني أريدك أن تتزوجها، قلت كنت أريد أن أطلب

منك.. عمومًا لا تغضب يا دكتور أنا سأثبت لك أنها لم تكن خطة.. أنا سأتزوجها، ولعلمك أنا ممكن أدخل عليها بأي جسد من أجساد المشرحة.. تحب تشهد على العقد؟

نظرت إليه وأنا لا أصدق ما أسمعه.. لم أجد ما أقوله فغادرت في غضب.

العلامة الحادية عشرة

الشيخ

كنت في طريقي إلى المقابر التي نشأت فيها، أتذكر عندما كنت أراقب في الفجر الشمس وهي تخرج تدريجيًّا من مدفنها الذي يبتلعها كل ليلة إلى أن تنتصر عليه في الصباح ثم يبتلعها هو في المساء، كنت أعرف جيدًا أنها تدور.. وأن الأرض تدور.. هكذا علموني في المدرسة وعلمت أنا نفسي أن بينهما صراعا دائمًا تكسبه الشمس في كل ليلة عندما تنجح في إرسال قبس منها ينعكس على القمر ليؤكد أنها لا زالت حية، وتكسبه الأرض ليالي قليلة عندما تنجح في أن تخفي القمر فلا يبقى للشمس ولا للنور أثر على الأرض من حوله، من يقضي ليله نائمًا على التراب في ليل المقابر يعرف قيمة ضوء القمر جيدًا، كنت أشير إليه في سعادة وأنا أشرح لأختي في طفولتنا أن الشمس تظل حية فيه، وعندما كانت تطلب الخروج معي في الليالي المظلمة كنت أجيبها في كآبة:

ـ لن تأتي معي الليلة.. الشمس ميتة.

لا يختلف حال المقابر كثيرًا في الصباح عن المساء، لا تتحرك فيها سوى الكلاب الضالة بحثًا عن الطعام في الليل كما تتحرك في النهار بحثًا عن الغرباء، طالما تساءلت متى تنام الكلاب.. عندما يثقلها الشبع أم عندما يعييها الجوع؟ لم ولن أعرف. لكني لا أعرف فارقا كبيرا بين نوم الكلاب وبين يقظتها. كلاب المقابر غير فاعلة، تنبح أو تعوي فقط دون أي فائدة. لم أر فيها أبدا الحراسة ولم أجدها صديقا ولا عدوا. تنبح سويًا مع الحركة وتعوي سويًا عندما يعتري السكون المكان، تشعر دائما أنهم أكثر من البشر في المقابر لأنهم أكثر ظهورا وأعلى صوتا، البشر في المقابر لا يظهرون بوضوح ليلًا أو نهارًا، يكتفون بالتواري ليلًا في قبور غيرهم بحثًا عن مقومات الحياة.. وفي الصباح يتسللون في هدوء لممارسة تلك الحياة، من يعمل خارج المقابر يذهب في هدوء.. ويتجمع رجال المقابر عند المداخل في انتظار بشارة الرزق، غالبًا ما يكون رجلًا مذهولًا يأتي باحثًا عن المقبرة التي لم يكن يعرف مكانها سوى كبير العائلة الذي مات وأحيانا يكون ممن اعتادوا زيارتها ويعرفون جيدًا أين تستقر أجساد أفراد العائلة جسدًا تلو الآخر.

كنت أشعر بالخوف من مواجهة صادق رغم أنني لم أُظهر ذلك لفرحة التي كانت تمشي إلى جواري في فخر، كل هذا الفخر لأنها تزوجتني؟ حمقاء ولا شك، ما مصدر العزة في الارتباط برجل مثلي؟! لا شيء، لماذا تستميت كل البنات في المقابر على الزواج بهذا الشكل؟ ما الذي يرونه فيه؟ الجنس؟ سنية كانت تمارس الجنس كل ليلة مرتين أو ثلاث على حد ما سمعت وتقبض نقودًا مقابله لكنها كانت تريد الزواج، كانت أمها السمينة القبيحة تعلم جيدًا ما تفعله

ابنتها وتأخذ منها عشرات الجنيهات كل صباح فترتسم على شفتيها ابتسامة باهتة وهي تدعو لها في بلاهة:

ـ ربنا يرزقك بابن الحلال يا سنية.

سمعتها بأذنيَّ عدة مرات تقولها.. لم أعرف ما تعنيه بابن الحلال؟ هل تقصد رجلًا يجامعها في الحرام ويدفع أكثر؟ أم زوجًا يستر فضيحتها ويجامعها مجانًا ليحولها من عاهرة إلى زوجة شريفة؟ عرفت الإجابة عندما بدأت سنية وأمها تتوددان لي بطريقة فجة.. الصغيرة بجسدها والكبيرة بأطباق المحشي واللحم المسلوق، لم أكن أستطيع أن آكله لأنني كنت أراه قطعًا من لحم سنية نفسها.. ولم أكن أستطيع أن آكل من جسدها لأنها كانت ميتة، جثة متهالكة قطعتها عشرات المشارط والأيدي التي لا تجيد التشريح، سميحة وفرحة لاحظا خطتهما وحذراني قبل أن تنقضّا عليهما في وصلة طويلة من الردح والصراخ عددًا فيها كل من تعرفانه من أسماء رجال المقابر الذين اشتروا ليلة مخفضة من ليالي سنية في الأيام التي يتعثر فيها عملها لسبب أو لآخر، يئستا مِنّي بعدها أو خافتا لأنهما عرفتا أن ورائي حريمًا.. ولا يقهر الحريم إلا الحريم. لكن موت الأم تزامن مع قبول دعائها.. تزوجت سنية من شاب وسيم عيبه على حد قول العروس ـ وهي تضحك في سعادة ـ أن رائحته كريهة لأنه يعمل في المدابغ، علقت فرحة في المساء وهي تضحك قائلة:

ـ وهي رائحتها فائحة لأنها تعمل في الدعارة.

نهرتها سميحة وهي تغمغم بأن الله حليم ستار، لم نعرف عنه أي شيء آخر سوى في اليوم الذي فاجأتنا هي فيه بأن زفتها بعد ساعتين

وستجوب بها المقابر كلها، غادرت بعدها معه بعد أن قبّلت سميحة وفرحة اللتين رقصتا في زفتها بسعادة لم تَبْدُ لي مصطنعة قبل أن تختفي إلى الأبد، هل أصبحت سنية بعدها شريفة؟ لا أعرف، لكنها تزوجت.. وبدا لي على وجهها في ذلك اليوم الفخر نفسه الذي أراه على وجه فرحة الآن، ليس الجنس إذن ما يردنه من الزواج ولن أعرف بسهولة ما يردن، أفهم ما تبحث عنه البنات في العالم النظيف؛ بيت وأسرة وحياة واستقرار، ماذا عن عالمنا نحن؟ أنا مثلًا.. الآن بعد أن خرجت من المقابر لن أكون استقرارًا ولا راحةً ولا مالًا لفرحة كما لم أكن استقرارًا ولا راحةً ولا مالًا لسميحة، الحقيقة أنني أرى أنني حجر ثقيل ربطتا نفسيهما فيه.. لكنني سأحاول أن أفعل شيئًا هذه المرة، سميحة كانت جزءًا من حياتي، أما فرحة فهي جزء آخر من الرسالة، اتفقت معها على أن أترك العمل في المشرحة لنعيش سويًّا بمجرد تسليمي للعهدة في نهاية العام الدراسي؛ لذلك عدت بها إلى المقابر لتقيم بها مؤقتًا.. بقي الآن أن أهيئ لها الأمور؛ أحميها من صادق الذي أعرف أنه لن يتركها في حالها بسهولة.. لم تكن لديَّ خطة؛ لذلك قررت أن أترك الأمر للقدر.

ذهبت إلى المقبرة التي كنت أقيم فيها قبل أن تتبدل الأمور، اقتربت من الباب الخشبي المُطعَّم بالمعدن.. أخرجت مفتاح القفل من جيبي.. اندهشت عندما وجدت قفلًا جديدًا مفتوحًا، نظرت إلى فرحة متسائلًا، أخبرتني في تردد أن صادق كسر القفل وفرشها وأجرها ، وأنها لم تخبرني لكيلا تصبح حجتي في عدم العودة أنه لم يعد لي مكان. صادق لا يضيع فرصة ولا يترك أي شيء ممكن أن يستفيد منه، يبيع كل شيء حي أو ميت. طرقت الباب المغلق فلم

يجبني أحد.. مغلق من الداخل، تراجعت إلى الخلف قليلًا.. ألقيت بثقلي على الباب الذى انفتح بسهولة، دخلت بغضب.. نظرت إلى العجوز الجالس القرفصاء في الركن بدهشة، أمسكت بتلابيبه فارتفع صراخ زوجته وبكاء أبنائه الصغار، حالت فرحة بينه وبيني وهي تصفه بأنه شحاذ مسكين. وتصرخ غاضبة أن معركتي الحقيقية ليست معه بل مع صادق، تركته وأنا أنظر إليها في حنق. فرحة تستفزني، تنتظر معركتي مع صادق بفارغ الصبر. حاضر يا فرحة لكن حقي أولا.

أمسكت بالرجل مرة أخرى فدفعني بعيدًا وهو يحاول الخروج:

- ابتعد عني.. الحقوني يا ناس.

لم أفلته وأنا أقول:

- لا أحد سيلحقك.. هذا بيتي يا روح أمك والسرير الذي تنام عليه أنت وعيالك يخصني.

نظر إليَّ باستعطاف وهو يقول:

- هو أنت!! يابني قالوا لي إنك لم تعد من سكان المقابر، ربنا فتح لك الطريق وأصبحت موظفًا في مشرحة كلية الطب، دعنا في حالنا.. ربنا يوسع عليك ويرزقك ويبارك لك ولا...

قاطعته في غضب:

- كلام الشحاذين لا يفيد معي.. طالما قالوا لك كل هذا فلا بد أنهم أخبروك أنني كنت أعيش هنا.. وأنا أريد بيتي.

نظر إليَّ في تحدٍّ:

ـ أنا استأجرته من الشيخ صادق.. ولا دخل لي بك ولا بأنها مقبرتك.

جلست على السرير بهدوء وأنا أقول:

ـ الشيخ صادق لا دخل له بهذا الحوش.. أنت قلتها بلسانك.. مقبرتي، أشتغل في الكلية أشتغل في جهنم أنا حر، وأنت سترحل.. بالذوق بالعافية سترحل.. ما رأيك؟

أجاب الرجل باستسلام:

ـ خذها يا سيدي.. أنا لا أريدها، سأنام في الشارع أنا وعيالي ثانية، هيا يا ولية.. لمي حاجتك وحاجة العيال.. منكم لله أنتِ وصادق، منك لله.. وأنتِ يا فرحة.. الله يسامحك يا بنتي.. أنتِ شاهدة على أني أدفع الإيجار لصادق كل شهر.

كان الأمر أبسط مما تصورت، لا بد أنه سمع من صادق أنني قاتل أو مجنون، لذلك فهو يخشى المقاومة، ملت على فرحة أسألها عنه فأجابتني أنه رجل طيب، هو وزوجته، يربط رجْله في الصباح لتبدو مبتورة ويجلس على كرسي متحرك تدفعه واحدة من بناته.. لا يوجد لديه ذكور، وزوجته أطيب منه، وأنها لم تر منهما إلا كل خير، صمتُّ قليلًا وأنا أفكر، فرحة أيضا تجيد الحكم على البشر، تربية المرحوم.. تلفت حولي متفحصًا الحوش المكون من غرفتين غير غرفة الدفن.. قررت ضرب عصفورين بحجر واحد. لا أعرف من سيأتي مكانه إذا خرج هو من هنا، ولا أعرف أين أو مع من سأترك فرحة، هرشت رأسي وأنا أقول:

ـ انتظر.. سأتركها لك وآخذ أنا الإيجار كل شهر ولا دخل لك بالشيخ صادق.. أنا سأكلمه ولن يتعرض لك لكن بشرطين.

انحنى الرجل ليُقبل يدي وهو يردد:

ـ ربنا يكرمك ويوسع عليك.. اشترط كما تريد.

ـ أولًا هذه المقبرة ملكنا.. تستأجر منا غرفة تقيم فيها أنت وعيالك.. أدخلها في أي وقت في الليل أو النهار.. فتخرج منها أنت وعيالك إلى أن أذهب، وإذا أردتُ العودة إليها في أي وقت ستتركها بدون مشاكل وإلا قسمًا بالله سأقطع ساقك التي تخفيها كل يوم وألقيها في الشارع، على الأقل لن تحتاج إلى أن تربطها للنصب على الناس.

غمغم الشحاذ مستسلمًا:

ـ اتفقنا.

تابعت في لهجة أكثر ودًا:

ـ ثانيا سأترك فرحة لتعيش معكم هنا.. ستكون لها غرفتها، وطبعًا لن أوصيك؛كأنها ابنتك.. وإلا...

ارتسمت على وجهه ملامح الطيبة وهو يقول:

ـ من غير شرط يابني.. البنت في عيني، لكن أنت ابعد صادق عني.

تنهدت في قلق:

ـ اتفقنا.

خرجت من الحوش، الأمور أفضل، فقط أحتاج إلى التقاط أنفاسي قبل أن أفعل ما تريده مني فرحة، جلست على حجر ضخم إلى جوار الباب. هل حقا سأقدر على مواجهة الشيخ صادق بكل من خلفه من أتباع؟ اللعنة عليه وعلى مشيخة ترفع من قدر رجل فيه كل مفاسد البشر، رأيت العشرات من أمثاله وهم يكبرون من حولي في المقابر، يبدءون شحاذين مثل هذا الرجل الذي رأيته منذ قليل، بعدما تمتلئ الجيوب يبدءون في البحث عن الترقية. أفضل ترقية هنا أن تنتقل من مرحلة الشحاذة المباشرة إلى غير المباشرة، فتصبح واحدا من هؤلاء الذين يقفزون أمامك في الجنازة ويتلون قرآنا بأخطاء لا يغفرها لهم حي ولا ميت، كنت أراهم وهم يتسابقون بمجرد أن يسمعوا أن الجنازة وصلت.. صادق كان دائما أولهم. لم أره مرة يتوضأ قبل أن يذهب، ولم أره مرة يصلي بعدها، كان يعود مجهدا فيضع الجوزة في فمه إلى أن ينام في عرض الطريق، والناس بحماقاتهم وبأحزانهم وجهلهم يعطونه المكافأة وينتظرون أن يتقبل الله دعواه، لم يكن لديه دين ولا علم ولا شرف، لكن لديه لحية وجلبابًا وسبحة طويلة. أبي كان يحفظ ثلث القرآن وكان يرتدي جلبابًا أبيض نظيفا عند الصلاة وكان يطلق لحيته.لماذا أصبح صادق هو الشيخ صادق وظل أبي هو «عم» حنفي التربي؟ ولماذا كل من كنت أراهم من العارفين لا يجدون لهم أتباعا مثل صادق؟ الآن أعرف جيدا، دراويش الترب يفضلون أمثاله بقباحتهم وجرأتهم وأدائهم التمثيلي الفج، فهؤلاء يجعلونهم يبكون ويهتزون ويلعنون الأعداء والفاسقين ويتمرغون في التراب من أجل رضا الله؛ هذا هو الأسهل كثيرا.. أما الآخرون فيأخذونهم إلى الطريق الأصعب؛ العمل.. عمل

كثير بلا صخب ولا صراخ!! العمل الذي لا يراه ولا يحاسب عليه سوى الله.. لن يبكوا ولن يتمايلوا أمام الناس ولن يصبّوا لعناتهم على أحد، قليلون دائما من يريدون أن يعملوا، وأقل منهم كثيرا من يريدون العمل في هدوء تام مثلي!

أنا ورثت أبي، كان يبدأ مبكرا في هدوء، يعد المقبرة ويفرش الرمال ويرص الكراسي، ثم ينتظر الجنازة في مدخل المقابر، يختفي بين من يحملونها بعد أن يشرح للجميع أن السنة هي الصمت، فيصمت الجميع في خشوع، إلى أن يظهر صادق الذي لا يتحرك إلا بعد أن تدخل الجنازة المقابر، فيقتحمها وهو يرفع سبابته إلى السماء وهو يصرخ:

ـ لا إله إلا الله.

فيضج الجميع وراءه بالصياح،ثم يخنق صوته بكاء مصطنع فيكون، ثم يصرخ مخاطبا الميت أو أهله أو القبر أو السماء فيزيد العويل، أما أبي فقد كان يصمت ويستغفر ويحوقل. من الذي انتصر في النهاية؟ الحق أم الباطل؟ أحتاج أن أعرف ما هي النهاية لأحدد من الذي انتصر، ما أعرفه فقط أن أبي نفسه بعد بضع سنوات أصبح من أتباعه.

ببطء شديد.انتقل صادق على لسان أبي من رجل غلبان إلى رجل طيب ثم إلى رجل «بتاع» ربنا.ثم إلى رجل بركة وانتهى في نظره بأنه عارف بالله!! كيف فعلها من لا يعرف كيف يتلو الفاتحة في من يحفظ عشرة أجزاء؟ هذه هي الإجابة ، فعلها؛ أبي لم يكن فاعلا ولا فعالا، لذلك انتهت به حياته التي سلمها للشيخ صادق بأن أصبح يشرب الجوزة على المقابر معه. أما صادق فقد كان دائم الفعل.

أول ما فعله بعد موت أبي أن جعلنا أعداء الجميع.

ظهرت فجأة إشاعة في المقابر تقول إن التعليم يفسد العقول وإن من يقرءون في علوم الدنيا يخطون في اتجاه الكفر والإلحاد، وإن المؤمن الحق يجب عليه أن يسمع ويطيع ولا يكثر من التفكير لكيلا يضل، سمعته يقول ذلك يومًا في واحد من الأفراح ورأيت عشرات الرءوس تهتز موافقة بين دخان الحشيش الذي ملأ المكان.. تعالت عشرات الهمهمات متحدثة عن الضالين في المكان، سمعت في الزحام أسماءنا.. سميحة وفرحة والمرحوم وسعيد، حتى جابر الذي كان يدرس في دار العلوم كان الشيخ صادق يتهمه في عقيدته، كان يؤكد لهم أن كل ما يدرس في الجامعات يأتي من بلاد الكفار فيهزون رءوسهم، يومها تجرأت سميحة وسألته عن الحشيش الذي يشربه الجالسون فهز رأسه في رفض تام وهو يقول:

ـ ربنا يتوب عليهم.

بدأ بعدها يلقي عليهم موعظته عن غياب العقل وعن أن كل مسكر خمر، أصبحت كركرة الشيشة أقل خفوتًا لكنها مستمرة.. الله يرحمها كانت مجنونة، غافلته وانقضت عليه فجأة وأخرجت من سيالة جلبابه أربع قطع ملفوفة في ورق سوليفان، كنا نعرف أنه لا يمشي بدون الحشيش في جيبه لزوم الشيء.. أرتها للجميع فوجموا مثلما وجم هو لدقائق قبل أن يصيح بغضب:

ـ شوفوا البنت تدب في عينها رصاصة.. رمت صدرها على فخذي بلا حياء ولا خشية.. علامات القيامة يا إخوانا.

هزوا رءوسهم مرة أخرى، انتشرت التساؤلات.. بعضهم يرى سميحة بنت حلال وبعضهم يقول إن الطريقة التي رمت جسدها بها على الرجل الكبير.. استغفر الله العظيم، وبعضهم تساءل كيف عرفت أن في جيب الرجل حشيشًا إلا إذا كانت فتشت الجلباب قبل ذلك.. وتعالى صوت منفرد متسائلًا:

ـ افترضوا الجيب مقطوع.. أين كانت يد سميحة ستذهب؟

بدت على سميحة وعلينا جميعًا الدهشة، في لحظات قليلة تحولت من متهِمة إلى متهَمة.. دقائق قليلة كانت تكفي الشيخ صادق ليؤكد للجميع أنه أخذ هذا الحشيش ممن استطاع أن يقنعهم بضرره وحرمانيته، بدأ بعدها يعدد في المذاهب الفقهية التي أجازت الحشيش.. كلام فارغ لا أدري من أين أتى به لكنهم كانوا لا يزالون يهزون رءوسهم خلف كلامه ويلعنوننا ونحن نبتعد في خجل. أصبحنا منبوذين في المقابر.. أصبح كل من يرانا يدير وجهه أو يسبنا أو يبصق في الأرض.

عرف بعدها أن بيننا وبينه ثأرا، أكاد أرى الأفكار وهي تخرج من رأسه، هؤلاء الأربعة مزعجون. لا بد أن يتفرقوا، البداية من المرحوم، لا بد من وظيفة مغرية لتأخذه بعيدا، سأبحث عند كل من أعرف! لكنه غالبا سيرفض، لا بد من وسيلة للضغط عليه، إذا نجح فستذهب سميحة خلفه، سعيد وفرحة أتباع.. ضعفهما يجعلهما لقمة سائغة، فليذهبا أو يبقيا.

القدر ساعده كثيرًا.. كيف عرف أن سميحة نزفت حتى الموت؟ لا أدري، ربما سمع المشاجرة.. كنا نحملها وكلانا يبكي، بمجرد

نزولنا إلى غرفة الدفن في الحوش المهجور الذي اخترناه لندفنها فيه وضعناها على الأرض وبدأ الشجار، أول مرة أضربه ويضربني، أنت قتلتها.. أنت كنت تعرف أنها حامل ولم تخبرني، علت أصواتنا.. ضربني بقسوة ثم انحنى عليَّ معتذرًا وباكيًا ولاعنًا، بكينا سويا إلى أن غاب النور فجأة.. أغلقت علينا غرفة الدفن من أعلى، الأحجار الكبيرة وضعت في لحظة واحدة.. فعلها صادق لنختفي جميعًا لكنه لم يكن وحيدًا بالتأكيد.

سميحة ملقاة جسدًا ميتًا والسواد تام والهواء يتناقص وصديقي يصرخ برعب بين ذراعيَّ، لم أصرخ أنا.. كنت أحاول أن أطمئنه وأنا أموت رعبًا، لا أدري حتى الآن لماذا فعلت ذلك؟ تحسست رقبته ورأسه وأنا أكاد أختنق.. كنت أريد أن أرحمه وأرحم نفسي.. ضربته في رأسه بالحجر في قسوة، سمعت صوت رأسه وهو يتحطم وصراخه يتحول إلى نحيب إلى أن خَفَت تمامًا، ثم ضربت نفسي عشرات المرات.. شعرت برأسي يدور وبالدماء الساخنة تسيل على رقبتي، بحثت عنه في الظلام.. سكن جسده تمامًا.. مات؟ غالبًا، ربما أنا أيضًا مت؛ فقد شعرت بروحي تتحرر، حاولت أن أدفع الأحجار التي تغطي المقبرة فلم أستطع، صرخت مناديًا فرحة من الخارج.. عشر مرات.. عشرون.. مائة.. ألف، لم أتوقف عن الصراخ، عندما جاءت بعد كثير.. سمعتها وهي تزيح الأحجار من الخارج، من الذي ساعدها؟ صادق.. صادق مرة أخرى.. كان يحوقل ويستغفر، بهرني الضوء.. نظرت إلى رفيقي.. جثة هامدة ورأس محطم سالت منه الدماء غزيرة إلى أن غطته تمامًا، وكفِّي تقبض باستماتة على الحجر الذي حطم رأسه، لم أتكلم وأنا

أشاهد صادق يُتم دفنهما ويخبرني أنه لا مكان لي في المقابر بعد اليوم، وأنني سأتهم في جريمتَي قتل وسأتهم بأنني ملعون، هذه هي القاعدة عندنا.. من تُغلَق عليه المقبرة مع جسد ميت يصبح ملبوسًا إلى الأبد.. هل هذا ما حدث لي؟ ربما، لا أدري.. لكني أعرف جيدًا أن من دخل هذا القبر يختلف عمن خرج منه، اختلفت الروح واختلف الجسد واختلف مزيجهما.. لن أعود كما كنت مرة أخرى، وصادق كان يعرف ذلك جيدًا؛ لذلك لم يهتم بالتخلص مني لأنه اعتبرني انتهيت، ما لم يعرفه هو أنني ارتقيت إلى الأفضل.. لم تُصبني لعنة بل أتتني رسالة، أصبحت أقوى.. ربما مزجت في الأرواح الثلاثة لتصنع ما هو أفضل لمئات البشر، لم ينتصر صادق.. أخذني من يدي وتركني في المشرحة، لم يستغرق الأمر دقائق.. وظيفة مثالية لموظف مثالي، عدت في الليلة نفسها.. كانت فرحة قد أعدت لي كل الأوراق والملابس التي طلبتها، في اليوم التالي احتجّت وهي تراني أستخرج جسد سميحة وأضع مكانه جسد الصغيرة، سخرت منها قائلا:

ـ هل تغارين؟

اقتنعت على مضض عندما شرحت لها فكرة حفظ الجثة لتظل معي مؤقتًا إلى أن أريحها.. بكت في حزن وهي تقول:

ـ هما ماتا وأنت جننت.. ماذا أفعل؟

لا تفعلي شيئا يا فرحة، أنا سأفعل، الآن جاء وقت انتقامي، أنا سأقتل صادق، سأريح الكل من شره مهما كان الثمن، غضبي يحولني دائما إلى شخص آخر. كل الخوف في داخلي يتحول إلى رغبة في

الانتقام، استجمعت شجاعتي وهببت واقفا فجأة، تحركت في اتجاه حوش صادق. تبعتني وعلى وجهها ابتسامة شريرة، أمسكت بيدها في غضب:

- انتظري هنا، سأذهب وحدي.

نظرت إليَّ في دهشة وخوف، همست بصوت مبحوح:

- ماذا ستفعل؟

أشحت بيدي وأنا أبتعد:

- سأنهي كل شيء!!

كل خطوة أخذتها في اتجاه بيته كانت كصعود جبل شاهق الارتفاع. أي رهبة يستشعرها بشر وهو ذاهب للقاء من قتله، وأي هيبة يشعر بها وهو يلاقي من أنقذ حياته؟ هذه علامة جديدة إذا أردت أن تكون من حَمَلة الرسالات فلا بد أن تقهر خوفك. وأنا يومها قهرت خوفي!

العلامة الثانية عشرة

الرحمة

قتل صادق ودق رأسه بحجر كان قمة الرحمة بالجميع! أما تركه حيا بفساده وخيانته ونفاقه. فهذا هو منتهى القسوة!

لم أجد أمامي إلا الذهاب، فرحة دفعتني دفعا.. تركتها خلفي وهي تدعو لي بالنصر على من عاداني!

كل ما كانت تريده مني هو أن يعرف صادق أن هناك وثيقة تثبت زواجها الموثق رسميا والذي سيفسد كل خططه، أما أنا فقد كنت أعرف أن هذا لا يكفي، مشيت متظاهرا بالقوة وأنا أعرف أنها تراقبني، أشرت إليها لتدخل في حزم.

وقفت عند «حوشنا»، طرقت الباب بخشونة، كنا في النصف الثاني من الليل.. فتح هو الباب فجأة، لم يكن نائما ولا مندهشا، بدا لي أنه كان ينتظرني، سألني سؤالًا واحدًا مليئًا بالتهديد:

- فرحة عندك؟

وجدتني أضطرب، اعترفت لنفسي: أنا أخاف منه، أخاف حتى من ملامحه، هذا الخبيث المعمر بجثته الضخمة ورأسه الأصلع وأسنانه المتآكلة ولحيته التي يصبغها بالحناء الحمراء، ملامحه تشبه ملامح الجني الشرير كما كنت أتصوره في طفولتي. لكنني عندما رأيت أمي تقف خلفه محتمية في ظهره، طغى عليَّ الغضب فأجبته:

- عندي يا صادق.. هل هذا هو ما استأمنك عليه صاحبك؟ أن تتزوج زوجته وتبيع ابنته.. إخص عليك.. رجل واطي.

نظر إليَّ في احتقار:

- أنت تغور في ستين داهية إلى المشرحة التي تعمل فيها.. وتذكَّر أنني أنا الذي أرسلتك لتعمل هناك بدلًا من السجن.

ابتسمت ساخرًا وأنا أقول:

- هذا الكلام تقوله للمغفلين الذين يتبعونك، يصفقون لك ويَدْعون لك ويقولون عليك رجلا أصيلا، أنا أعرف الحقيقة.. أنت كنت تريد التخلص مني لتنفرد بالبنت وأمها.. تزوجت واحدة وتريد أن تُزوج الصغرى لحسابك.

نظر إليَّ متحديا:

- ستتزوجه غصبًا عنك.

نظرت إلى أمي التي تحتمي بظهره، لم تحاول حتى أن تنظر إليَّ:

- وأنتِ يا أم عبد الحي.. يرضيك ابنتك تباع في سوق الحريم؟

أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى وهي تقول بصوت خافت:

- لا كلام بعد كلام عمك الشيخ صادق.

انفجرت فيها غاضبًا:

- يا ولية اصحي.. لا هو عمي ولا شيخ ولا صادق، رجل فاجر.. صاحبه مات فتزوج زوجته وقال لنفسه أتخلص من أولادها واحدًا واحدًا، بعدها سيتخلص منكِ أنتِ أيضًا.. تصدقي ابن الكلب أجَّر التربة التي كنت أعيش فيها.

أجاب صادق في غضب:

- خلاص.. أنت لم تعد تعيش هنا.

هززت رأسي في إصرار:

- مالك أنت؟

- أنت منذ شهور لم تأت إلى هنا، ولم تسأل عنها، وأنا أعطيتها لرجل مسكين ينام في الشارع.

- وفرحة يا صادق، لم أسأل عنها فقررت أن تعطيها لمسكين آخر؟

أجاب في حدة:

- أمها موافقة.. وأنت لا دخل لك بها، أنا قبضت مهرها وفرحها غدًا إن شاء الله.

ابتسمت ببرود قائلًا:

- لم يشأ يا صادق.. أنا تزوجتها، والدخلة كانت من ساعتين.

قام صادق من مكانه في غضب.. أمسك بتلابيبي وهو يصيح غاضبًا:

- تزوجتها.. كيف؟ يا مجنون يا ابن الكلب.. أنا سأخرب بيتك.

دفعته بعيدا.. أورثني كل ما فعله فينا قوة لا أفهم قدرها، اكتشفت على غير ما كنت أظن أنه ضعيف وجبان، الهالة الضخمة التي تحيط به هي ما يخيف الناس منه.. المعركة كانت أسرع مما ظننت،التوت قدمه وسقط على الأرض وقد أمسك رأسه ليحتمي من ضرباتي وهو يصرخ في خوف:

- أنا أكبر من أبيك.. حرام عليك يا بني.

بدأت أمي تجري في اتجاه الباب وهي تصرخ.. المفروض أن تكون في صفي، جريت خلفها، أمسكت بها، أخذت كوفيته التي سقطت منه وربطت يديها خلف ظهرها، تلفت حولي وأنا أكتم فمها بكفي، وجدت كيسا بلاستيكيا داكن اللون، وضعته على رأسها، صنعت منه شريطة صغيرة لففتها حول رقبتها.. صنعت عدة ثقوب صغيرة في الكيس وأنا أهمس:

- لا مؤاخذة يا أمي.. لكن هذا الشيطان يجب أن يختفي، أنا تركت لك ثقوبًا لكي تتنفسي.. والنبي سامحيني.

حاولت أن تصرخ لكن صوتها جاء مكتومًا من تحت الكيس.

التفتُّ إلى صادق الساقط على الأرض، لا زال يئن، دخلت به إلى غرفة الدفن، فكرة الثأر التام ألحَّت عليَّ، أزلت الأحجار التي كانت تكسوها.. حملته ونزلت به إلى أسفل الغرفة وهو يصرخ مستنجدًا، كان ثقيلا كالثور. كان يصرخ وهو يشير إلى ساقه كلما لامست الأرض. جررته جرًّا إلى أن وصلت به إلى القاع.. ملت

على أذنه قائلًا:

- سأدفنك حيًّا كما دفنتني.. ولن تجد من ينقذك.

بدأ يرجوني في صوت ضعيف:

- الرحمة يا بني.

الرحمة، الرحمة.. لماذا أرحم من لم يرحمني؟ صرخت غاضبًا:

- ربنا يرحمك.

أغلقت عليه المقبرة، جلست فوقها أتلو ساخرًا، اسمع.. أنت طالما أضللت.. أنت ترى الآن رجلين يأتيانك ليسألاك، لا تخف، قل لهما ربي الله.. ديني الإسلام.. كتابي القرآن، ترددت قليلًا ثم عدت أقول: لا يا صادق أنت لا تستحق، قل لهما إنك كنت كافرًا لا دين لك، فإن سألاك عن عمرك: فيمَ أفنيته فقل لهما أفنيته في النصب والجوزة والحشيش، افتكر كل البلاوي التي فعلتها وقلها كلها.. أريدهم أن ينفخوك، قل لهم إنك أغلقت المقبرة علينا أحياء.. وإنك تستحق العذاب حيًّا وميتًا.

سمعت همهمات أمي المكتومة فالتفت إليها في فزع:

- لا مؤاخذة يا أمي.. أنا نسيتك، رفعت الكيس عن وجهها.. كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة، صنعت من الكيس البلاستيكي كمامة كممت بها فمها، غسلت وجهها بقليل من الماء.. بدأت تفتح عينيها بضعف وهي تنظر إليَّ في رعب.

- خلاص يا أمي صادق غار في ستين داهية.. ارتحنا منه.

لا أدري لماذا كانت ترتعش هكذا، كرهت ملامح الخوف المرسومة على وجهها.. فاقتربت من أذنها هامسًا:

ـ لا تخافي.. صادق ليس منا، أنا من لحمك ودمك لكن هو غريب عنا، كيف فعلتِ فينا ذلك؟ تزوجتِ هذا الرجل النتن.. صادق دفنني حيًا، لكني لم أمت، شغّلني بعدها في المشرحة ليتخلص مني، كان يريد أن يميتني بالحياة بعد أن فشل في أن يميتني بالموت.

بدأت الدموع تسيل من عينيها.. تابعت باكيًا:

ـ أنت تخافين مني؟ هذا ما فعله فينا صادق، تريدين أن تعرفي ماذا كان يفعل في جسد فرحة وهي نائمة؟ هي حكت لي.. كانت تستيقظ لتجده يمد يده عليها.. لكنها بنت بمائة رجل.. بنتك يا أم عبد الحي.. ضربته وهددته بالفضيحة، لكن خافت أن تخبرك، تقول إنه عمل لك عمل سفلي وإنك توافقين على كل ما يفعل، خافت تطردينها.. أنا خلصتك منه، فرحة في عيني يا أمي.. وأنت في عيني، خلصنا من صادق، أنا ممكن أترك المشرحة من الغد ونعيش جميعًا سويًا كما كنا في الماضي.. موافقة يا أمي؟ موافقة؟

هزت رأسها بالموافقة.. قبّلت وجنتيها، ففككت يديها.. ثم قبّلتهما ضاحكًا:

ـ ربنا يخليكِ.

ففككت فمها.. نظرت إليَّ للحظات.. قامت تجري نحو غرفة

الدفن، حاولت أن تزيح الأحجار من فوق المقبرة فلم تستطع.. أي حماقة هذه التي تتملك البشر فتضلهم حتى تتملكهم وتريهم الحق باطلًا والباطل حقًا فيدافعون عنه حتى النهاية؟!

التفتت إليَّ في رجاء:

ـ ساعدني يا بني حرام عليك.

ظلت تحاول زحزحة الحجر.. بدأت الدماء تسيل على أصابعها، جلست باكية تولول وتصرخ.. حاولَتْ أن تُقبل يدي وهي تصرخ:

ـ ساعدني يابني.

سحبت يدي في حيرة.. جلست في ضعف، دموعها تقتلني، لا أستطيع أن أقاوم، ولا أريد أن أصبح مثله، أعرف أنه انكسر أمامي إلى الأبد، يكفيني هذا، ملت مزحزحًا الأحجار واحدًا تلو الآخر، كان جالسًا على الأرض في رعب.. صحت فيه في غضب:

ـ أنا سأتركك يا صادق من أجلها لكن عليك أن تعرف أنني لن أرحمك إذا تعرضت لي أو لفرحة مرة أخرى.. سأقطعك وأرمي جثتك للكلاب.

صرخ هاذيًا:

ـ غُرْ أنت وهي في ستين داهية.

نزلت لأساعده.. نظر إليَّ بتأنٍّ.. ثم قال:

ـ لا تلمسني.. اخرج وأنا سأخرج.

- ماشي يا صادق، لكن لو عرفت أن ذبابة وقفت على وجه فرحة سآتي إليك مرة اخرى وأقتلك.. وأنت تعرف أني مجنون.

أجابني وهو يتأوه:

- أعرف.

وقفت أنظر إليه في شك، ألقيت نظرة أخرى على أمي فأشاحت بوجهها بعيدًا! خرجت جاريا في اتجاه الشارع الكبير.لم أستطع حتى أن أعود لفرحة.كنت أريد أن أغادر المكان بسرعة؛ ربما لأنني كنت أشعر أنني كالعادة لم أفعل ما كنت أريد.لكني فعلت الأفضل للجميع.

العلامة الثالثة عشرة

المكسب

كنت أشعر بالرضا التام بعد أن أنهيت جزءًا ثقيلًا من مهمتي تجاه العديد من الأحياء، محروس أصبح فنانًا يعيش حياة مختلفة.. وفرحة أصبحت زوجتي وأصبحت في الأمان بعد أن قمت بتقليم أظافر صادق، وأمي سعيدة أنني لم أقتل زوجها، ومحمود يظن أنني تنازلت عن فكرة الأموات، وابن صالح الإسناوي عاد إلى المدرسة، رأيت أن الوقت قد حان لأتفرغ للجثث الباقية لأكمل مهمتي تمامًا إلى أن أعرف ما سيأتيني من مهام جديدة، أنا الآن أفضل مما بدأت.. أنا عون للموتى والأحياء، كانت جثة أشرف تشغلني طوال الوقت، دائمًا هناك ما يوقفني عن لبسها.. هذه المرة وجدت نفسي في وسط مستنقع لا أعرف ما الدور الذي كان ينبغي لي أن أؤديه فيه، الحقيقة التي يجب أن تكون واضحة تمامًا هي أنني لا دخل لي بحكاية خليل وميلاد من بعيد أو قريب، لم أكن شريكًا فيها ولم أرد أن أكون شريكًا فيها منذ البداية للنهاية.. كنت موجودًا فقط، لكني لم

أكن جزءًا من أي شيء.. ثلاثية الصيد الشهيرة؛ الصنارة والطُّعم والسمكة.. يظل الدين هو الصنارة وأحد الطرفين هو الطعم والآخر هو السمكة، يتصور الطُّعم أنه اصطاد السمكة.. وتتصور السمكة أنها أكلت الدودة، والصنارة في النهاية تطوى وتوضع في الحقيبة إلى أن يحتاجها الصياد مرة أخرى.. لأن الصياد كافر سواء كان قسًا أم شيخًا أم سياسيًا أم حاكمًا، في نهاية الأمر لا دين له؛ فدينه كان سيمنعه من أن يجعل البشر يأكلون بعضهم بعضًا، جورج كان يريد أن يصطاد خليل بميلاد.. وتريزا وخليل كانا يريدان أن يصطادا جورج ومن مثله من الجانب الآخر.. وفؤاد كان يريد أن يصطاد الجميع.

أما أنا.. فقد كنت مشغولًا بحياتي وموتي عن الآخرين، تعلمت منذ سنوات طويلة أن المسلمين يدخلون الجنة التي عشت أحلم بها، لكني التقيت بعشرات المسلمين الذين يستحقون في نظري النار وعشرات المسيحيين الذين تمنيت لهم الجنة، أعرف تمامًا أن أمنياتي وحساباتي لا قيمة لها، فعندما يأتي وقت الحساب والعدل لا مكان للأمنيات.. صاحب الحكم هو من سيقضي به في النهاية، ما الذي يتناحر عليه الحمقى؟ يتناحرون على حكم لا دخل لهم به.. أي شيطان هذا الذي يعبث بعقولهم ويوسوس لهم بالتدخل في عمل مَن خلق؟ من أراد أن يحاسب البشر فعليه أن يخلقهم ويرزقهم ويكتب عليهم مصائرهم. المسلم والمسيحي إخوة.. هكذا كانوا يقولون لنا في المدارس، لكن الحقيقة كانت دائمًا تقول شيئًا آخر.. حكاية عم يوسف تقول ذلك وحكاية ميلاد وخليل وفؤاد تؤكدها، سأضع لهما علامتين كبيرتين على الحائط أكبر من كل العلامات الباقية.

كنت أحب عم يوسف منذ الصغر، صوته في تلاوة القرآن كان شجيًا.. سورة ياسين التي كان يتلوها فوق القبور بمجرد دفن الجثة كانت علامة مميزة في أذني، كانوا يسمونه «يوسف أبو كف»؛ لأنه كان يرتدي قفازين في الصيف والشتاء.. وكان يعيش وحيدًا في مقبرة صغيرة على حدود المقابر، كم عمري وقتها؟ سبع سنوات، قفزت من النافذة واختبأت من الأولاد عندما كنا نلعب الاستغماية.. شاهدته لأول مرة بلا قفازات، على ظهر يده علامة الصليب الزرقاء.. كنت أراها لأول مرة، بدا عليه الهلع عندما رآني أحدق في يده.. لكنه لم يؤذني، طلب مني ألا أخبر أحدًا.. سألته في طفولة:

ـ أليس هذا صليبًا يا عم يوسف؟

هز رأسه موافقًا في تسليم.. سألته في حيرة:

ـ أنت مسيحي يا عم يوسف؟!

أجابني بحب:

ـ أنا واحد من عباد الله يا عبد الحي، ألست أنت عبد الحي.. أنا أيضًا عبد الحي.

لم أفهم إجابته.. لكني فهمت جيدًا ما طلبه مني وهو يعطيني جنيهًا كاملًا ويعِدُني بمصروف أسبوعي إذا لم أكشف سره الذي لم أعرف حقيقته لسنوات، لكنه لم يعطني قرشا بعدها.. اختفى في اليوم التالي ولم يره أحد بعدها، سألت عنه أبي فأجابني أن عم يوسف يوصف دائمًا في المقابر بأنه غريب، وأنه جاء في طفولته مع جده بعد أن سقط البيت الذي كان يسكن فيه على كل أسرته،

آواهم ذلك الحوش الصغير.. ظهروا فجأة وفُتحت لهم كل الأبواب لأنهم جاءوا على ذمة الشيخ كامل إمام المسجد الذي يهابه ويحبه الجميع، كان يوسف يرتدي قفازًا كجده منذ طفولته.. وعندما مات العجوز آواه الشيخ كامل «إمام المسجد» في حوشه، كان هو من يشتري له القفازات الملونة باقي أيام طفولته.. مات الشيخ بعد سنوات فانعزل يوسف تمامًا، بدأ يأكل من الصدقات ومن مشيه خلف المقرئين وسط الجنازات بقفازاته الملونة، مع الأيام حفظ ما يحفظون.. وأصبح يتلوه مثلما يتلونه وإن ميزه عليهم جمال صوته، وكان يختفي أيامًا ويعود دون أن يسأله أحد عن مكان وجوده، ما الذي تحتاجه لتكون محبوبًا هنا؟! يكفي الناس أنك تعطي ولا تأخذ، وتمنح ولا تمنع، بعدها عاد عم يوسف فجأة كما اختفى فجأة، عاد أشعث الشعر ممزق الملابس.. كان من الواضح عليه أنه قضى أيامه في الشارع، أول بيت دخله كان هو بيتنا.. وأول من سأل عليه هو أنا، دخلت عليه وهو يأكل في نهم كما لو كان لم يأكل منذ أيام، نظر إليَّ في تساؤل.. احتضنته وملت على يده التي تأكل قفازها وبان منه أحد أطراف الصليب.. جذبت الطرف الممزق دون أن يلاحظ أبي فابتسم في امتنان، عاد إلى بيته مرة أخرى وظهر بعد عدة أيام بدون قفازه.. ودون أن يزيل وشمه، لكنه وشم فوقه هلالًا وتحته نجمة داود.. وكلما سأله أحد عن هذه الرموز ابتسم وهو يغني بصوته الجميل:

ـ موسى نبي وعيسى نبي ومحمد نبي.. وكل من له نبي يصلي عليه.

وعاش عم يوسف إلى أن مات بعدها بثلاثة أعوام، عاش يؤدي

المهنة الوحيدة التي يعرفها ليأكل منها عيشًا.. قراءة القرآن، لا بد أنه حاول أن يتحول إلى مهنة أخرى في الشهور التي غاب فيها لكنه لم ينجح، ربما لفظه عالم الأغنياء بمسلميهم ومسيحييهم، ربما لم ينجح في عمل جديد وهو على مشارف الستين، مَن المسيحي الذي يستطيع أن يمنع مسيحيًا من قراءة القرآن لكيلا يموت من الجوع؟ مَن المسلم الذي يستطيع أن يمنع مسيحيًا من قراءة القرآن لكيلا يموت من الجوع؟ هل يوجد مضطر أكثر منه؟ لم ينكشف أمره إلى أن مات.. أنا شخصيًا لم أستطع أن أسأله ولا أهمني سؤاله، لكن الوصية التي تركها والتي كانت توصي بأن يتم دفنه في مقابر المسيحيين أدهشت الجميع وحسمت الأمر بالنسبة لي.. لعنوه وسبوه وتواترت القصص التي تحكي عن أن المسيحيين اشتروه في آخر أيامه وجعلوه يبيع دينه، أنا فقط لم أهتم ولم أحك قصته لأحد إلى اليوم، والآن.. ها أنا أحكي لك الحقيقة وأتذكر جيدًا اليوم الذي حملت فيه جثته على كتفي وحيدًا متجاهلًا الجميع ووضعتها أمام الكنيسة ومعها الخطاب الذي ترك فيه وصيته، كنت أرى أن من حقه أن أحقق له تلك الأمنية.. كيف لم أفكر في ذلك يومها؟! لا بد أن ذلك كان جزءًا من رسالتي التي لم أنتبه لها في وقتها.

تأكدت أنه دفن في المكان الذي أراده عندما سمعت كل طلبة المدرسة المسيحيين يتحدثون عن الشيخ الذي تنصر في آخر أيامه، والمسلمون يتهمونه أنه باع دينه قبل الموت، وأنا أضحك في داخلي عليهم جميعًا.. موتى وأغبياء، ما القيمة التي يساويها الشيخ يوسف للإسلام أو للمسيحية؟! رجل مسكين ارتدى رداءً آخر ليقيه من العري،

كلاهما يتطاول على دينه لا دين الآخر، أي مؤمن هذا الذي ينتظر انتقال درويش من دينه أو إليه ليزداد إيمانه؟ حماقة ولا شك.

أخذني خليل معه إلى فؤاد.. حكى له خليل كل شيء فطلب منه شهودًا، كنت طبعًا الشاهد الوحيد.. لم أنطق بشيء، ولم يتعد دوري هز رأسي من وقت لآخر مؤكدًا كلام خليل عندما كان يسألني:

- حصل يا مرحوم؟

انتهى خليل من حكاية قصته التي تقترب من الحقيقة كثيرًا.

سحب فؤاد نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يقول:

- ابن الكااالب.. يتكلم في حق النبي عليه الصلاة والسلام!! يستحق الحرق.

هز خليل رأسه مؤمّنًا على كلامه:

- آه والله.. يا فؤاد لكن خذ بالك.. إنه عظمة كبيرة.

نظر إليه فؤاد للحظات ثم سأله:

- أنت قلت اسمه إيه؟

- جورج.. جورج عزيز حكيم.

- في السنة الثانية؟

هز خليل رأسه مؤكدًا.

قام فؤاد متباطئًا.. فتح جهاز الكمبيوتر الموجود في مكتب الضابط وبدأ يكرر كما لو كان يغني:

- طلبة السنة الثانية.. طلبة السنة الثانية.. جورج عزيز.. جورج عزيز.. جورج عزيز.. ملاحظات.. ملاحظات، يا نهار أسود.. ألم تجد سواه يا خليل؟

بدا الخوف على خليل وهو يسأل:

- خير يا فؤاد؟

أخذ فؤاد نَفَسًا جديدًا من سيجارته وهو يقول:

- لا، ليس خيرًا يا خليل، أبو الولد حوت كبير.. سياسة على كنيسة على رأس مال.. يعني يبلعني أنا وأنت وعميد الكلية في لحظة.

- كان نفسي أربيه.. لا بأس.. نسكت وخلاص.

- لأ طبعًا.. بالعكس، أنت يجب عليك أن تتكلم، سأخبرك ما يجب أن تفعله وستضرب عصفورين بحجر واحد.. ستؤدب الولد وتشغله عندك فلا يفكر هو في أذاك.. تمام؟

- تمام.

- عليك وعلى العيال في أسرة الحق.. قل لهم إن هناك طالبًا مسيحيًا يتطاول.. افعل ما فعله ميلاد؛ دموع وبكاء ومسكنة.. وهم سيقومون بالباقي.

- الباقي.. ما هو الباقي؟

- يضربونه.. يعذبونه.. يحرقونه بالجاز.. هم سيتصرفون، وأنت ستخرج سليمًا معافى.

- ألم تقل لي إنه عظمة كبيرة؟

- وهم عظمة كبيرة.. وراءهم جماعة وأهل وحكاية.. إنما أنت قطعة لحم طرية؛ يأكلك طفل صغير على مرة واحدة.

- لكن الموضوع يمكن أن يكبر.

- يكبر.. ما الذي ستخسره؟

نظر إليه خليل في دهشة:

- ما الذي سأكسبه؟

بدا على ملامح فؤاد التفكير العميق وهو يقول:

- عندك حق.. لا يهم ألا نخسر، المهم أن نكسب.

جلسنا صامتين وفؤاد يفكر ويرسم على الورقة التي أمامه رسومًا بلا معنى، يهز رأسه ويغمض عينيه ويفتحهما.. انفرجت أساريره فجأة وهو يقول:

- تصدق؟ الظاهر أن ربنا راضٍ عنا.. كلنا سنكسب إن شاء الله، قل لي يا خليل.. الولد ميلاد مسيحي متعصب؟

هز خليل رأسه نافيًا:

- لا متعصب ولا حاجة..

- هل هو متزوج؟

هز خليل رأسه موافقًا:

- أنا حضرت فرحه في الكنيسة منذ ستة أشهر.. ميلاد في الأصل صاحبي وحبيبي، هو فقط غاوي مسكنة كما يقول عباس عنه، لكن الموضوع كبر.

ضحك فؤاد بصوت عالٍ وهو يقول:

- ميلاد حبيب الكل.. أعطني رقم تليفونه يا خليل.

أخرج خليل ورقة مطوية من محفظته.. سجل فؤاد الرقم ثم أشار نحوي فجأة وهو يسأله:

- والأخ صاحبك.. ضامنه؟

ربت خليل على كتفي في ثقة وهو يقول:

- طبعًا.. أضمنه برقبتي.

نظر إليّ فؤاد طويلًا ثم أردف في صوت هادئ:

- جميل.. أريدكما في المكتب غدًا.

العلامة الرابعة عشرة

المِلة

لم أرتح لفؤاد من أول وهلة ولا من آخر وهلة.. فصيلة حقيرة من البشر لا تخطئها عين؛ هؤلاء الذين يمنحهم الله نعمة لم يحلموا بها فيستكثرون أنفسهم عليها ويتقمصون دورًا آخر فيبدون لك ككلب أجرب ضامر الجسد وبارز العظام ينبح في وجهك بكبرياء.. إذا خِفت منه فسيجري وراءك بكل ثقة بينما خطوة واحدة منك إلى الأمام ستجعله يضع ذيله بين ساقيه ويبتعد في خوف ذليل، كنت أراه كثيرًا وهو يمشي في طرقات الكلية وقد وضع سلاحه في جنبه ودهن شعره بالفازلين ليبدو لامعًا في قبح، عيناه تكادان تخترقان أجساد البنات وهو يرسم على وجهه ابتسامة مقززة، تتسع في فخر عندما ينظر إليه الجميع ويتهامسون في أثناء مروره دون أن يعرف أن الجملة الوحيدة التي تصفه في أرجاء الكلية هي.. حضرة الكونستابل وصل.

عندما تجمعنا أمامه في نقطة الشرطة تَركنا ما يزيد على الساعة

وهو يُجري مجموعة من المكالمات الحقيقية أو الكاذبة.. باشوات وبهوات وحوارات تبدو في منتهى الخطورة،كان القلق باديًا على وجهَيْ خليل وميلاد.. أما أنا فقد كنت أشعر بغضب شديد يتزايد كلما مر الوقت، كما أنني لم أفهم ما الذي يريده مني إذا كان سيصالحهما كما كنت أتوقع.. لكني صبرت مجبرًا.

التفت إلينا فؤاد فجأة وأشار إلى ميلاد وهو يقول في حدة:

ـ أنت ميلاد؟

هز ميلاد رأسه في خوف.. تابع فؤاد:

ـ أنت الذي تريد أن تشعل فتنة في الكلية بين المسلمين والمسيحيين؟

أجاب ميلاد بصوت مبحوح:

ـ لا يا فندم لا فتنة ولا حاجة.. مجرد مشكلة صغيرة في العمل.. وحُلت.

ضحك فؤاد ساخرًا:

ـ مشكلة وحُلت؟! تتهم زملاءك بالاضطهاد الديني وتشرك طلبة الكلية في الأمر وتقول إنها مشكلة عمل!! لا يا حبيبي.. هذه بداية فتنة كبيرة، يعني قضية أمن دولة.. عارف أمن الدولة؟ ستعرفها بعد ساعات على أي حال.

شعرت بالقلق وبأنني سأصبح جزءًا مما لا دخل لي به، نظرت إلى خليل فوجدت قلقًا أكبر يبدو على وجهه، أومأت إليه فقام من مكانه واقترب من مكتب فؤاد وهو يقول في رجاء:

ـ لا داعي لكل هذا، مشكلتنا سنحلها سويًا.. أنا سحبت الشكوى يا سيادة الأمين.

ـ لم تعد شكوى يا خليل.. أمامي محضر من الأخ جورج يتهمك فيه بالتعدي عليه بالسب، وأنت يا ميلاد طلبة الكلية سمعوك وأنت تسب النبي.. الموضوع كبر يا أساتذة.

هز ميلاد رأسه نافيًا في هلع:

ـ أنا لم أسب أحدًا.. أنا قلت حاجة على النبي يا خليل؟

هز خليل رأسه نافيًا.. بدأ الجو يتكهرب، فؤاد مقيت.. سيظل يتسلى بنا حتى المساء.. قمت غاضبًا من مكاني وأنا أقول:

ـ أنا لست طرفًا في الأمر.. أنا مجرد شاهد، بعد إذنك سأعود لعملي وعندما تطلبوني للشهادة سآتي مرة أخرى.

أشار إليَّ فؤاد في حدة:

ـ اليوم إجازة يا ناصح.. اجلس أنت أيضًا؛ اسمك وارد في المحضر.

نظرت إليه في تردد.. عدت إلى مكاني مرة ثانية، لم أكن خائفًا منه.. لكني أعرف أنه قد يضعني دائمًا في دماغه وقد يراقبني فيصعب عليَّ كل شيء، على الأقل لن أستطيع الدخول والخروج بحريتي.

بدأت لهجته تلين وهو يقول:

ـ اسمعوني جيدًا.. الموضوع تطور، وممكن كل واحد فيكم

يجد نفسه في المعتقل لسنوات بتهمة الإضرار بأمن الدولة وأنتم مساكين لن يسأل عنكم أحد، تريدونها أن تصبح هكذا أم ستتركوني أساعدكم؟

كاد ميلاد يبكي وهو يقول:

- أنا في عرضك يا حضرة الأمين.. أنا تركت العمل ولن تراني هنا مرة أخرى.

- يابني افهم.. الموضوع أمام مدير الأمن الآن، وجورج أبوه سياسي مهم، لن ينفعك.. سيخاف على اسمه وعلاقاته مع المسلمين، واحتمالية نزوله الانتخابات في أي وقت واردة؛ ولن يخاطر بأصوات المسلمين في دائرته.. بذمتك ودينك.. يضحي بك أم يضحي بملايينه ومصالحه ومستقبله السياسي؟

قاطعته وقد نفد صبري:

- ماذا تريد منا بالضبط.. صلح وتصالحنا.. هل هناك شيء آخر؟

اتسعت ابتسامة فؤاد:

- سؤال جميل.. أنا أريد من خليل وميلاد أن يختفيا تمامًا ولا يعرف أحد لهما طريقًا.. وإلا سنقبض عليهما ونرسلهما إلى أمن الدولة، وأنا سأرسل تقريرًا بأنهما اختفيا تمامًا.

لم أفهم شيئًا.. وبدا على ميلاد وخليل فزع البُلْه.. فسألته في حيرة:

- ولماذا ترسل تقريرًا بذلك؟ يكفي أن تقول إن الموضوع انتهى.

قام من مكانه وهو يضحك ساخرًا:

- لم يعد ممكنًا.. عندي أمر تحويلهما إلى أمن الدولة فورًا.

سقط ميلاد على المقعد الذي كان إلى جواره، وصاح خليل في رجاء مقيت:

- تصرف يا فؤاد.. نحن عِشرة عُمْر.

ربت فؤاد كتفه وهو يقول:

- لأننا عِشْرة عمر سأفعل ذلك.. اسمعوا كلامي وأنا سأخرجكم منها وستكسبون أيضًا.

سألته في شك:

- وأنا أختفي أيضًا؟

أجاب فؤاد بهدوء:

- أنت وضعك مختلف.. التقرير الذي سأرسله من هنا سيحدد إذا كنت متهمًا أم مجرد شاهد كما تقول.

- وما الذي سيحدد وضعي في التقرير؟

- أنا.. بشرط أن تتعاون معي.

نظرت إليه في صمت.. شعرت أنه يدبر أمرًا ما لا أعرفه، تصورت للحظات أنه يريد أن يصنع موضوعًا من لا موضوع ليبدو بطلًا أمام رؤسائه، لكنه كان أشر من ذلك.. تابع فؤاد:

- أنتم يمكن أن تعيشوا بقية عمركم كالمطاريد.. تتركون بيوتكم

وعملكم ولا تجدون ما تأكلونه.. مع احتمال القبض عليكم في أي لحظة، ويمكن أن تهربوا ويتحول كل منكم إلى بطل في عيون أهله وأصحابه.. وتكسبون آلافا مؤلفة، هل تريدون أن تكسبوا أم لا؟

أجاب خليل على الفور:

- لا يهمني أن أكسب.. أريد أن أعيش في حالي فقط.

ضحك فؤاد في سعادة:

- ماشي يا خليل.. تعيش في حالك وتكسب أيضًا، اسمعوني جيدًا.. ميلاد أنت متزوج أليس كذلك؟

أومأ ميلاد برأسه.

سأله بابتسامة واسعة:

- زوجتك ما اسمها؟

أجاب ميلاد بصوت مبحوح:

- اسمها تريزا.

تابع فؤاد:

- جميل.. كل المطلوب أن نقول إن سبب المشكلة الحقيقي هو أن خليل كان يحب تريزا زوجة ميلاد، وميلاد عرف ذلك؛ لهذا كان يريد أن يثير طلبة الكلية عليه، وإن خليل عندما عرف أن الموضوع سينتشر أقنعها بالهرب معه، وأنا سأقوم بعمل

تسجيل لخليل وهو يقول إن تريزا هربت معه لأنها أرادت أن تُسْلِم، وميلاد سيقول إن خليل اختطف تريزا غصبًا عنها في تسجيل آخر.

صِحْت في دهشة:

- لماذا؟ الموضوع لا يستحق كل هذه الحكاية.

أشار إليَّ بالصبر وهو يجيب بخبث:

- الموضوع كما قلت لكم خرج من يدي، لا بد أن نتصرف فيه بحكمة ونستفيد، دعني أكمل.. سيشيع خبر في كل مكان يقول إن المرحوم هو الوحيد الذي يعرف مكان خليل وتريزا، وإنهم على وشك أن يموتوا من الجوع بسبب الحصار عليهم، وإن هناك من يحاولون الضغط عليهم بالمال لتعود تريزا وليقول إنه اختطفها، وإن خليل يحتاج نقودًا ليحافظ على بيته وعلى زوجته المسلمة فاطمة الزهراء.

نظر إليه ميلاد في دهشة:

- زوجة من وفاطمة من؟ وزهراء من؟! أنا لن أترك تريزا.

أشار إليه فؤاد إشارة الصبر نفسها وهو يقول:

- من قال إنك ستترك تريزا؟ تريزا ستكون في بيتك.. بل في حضنك، كل ما في الأمر تصوير فيديو سريع وهي بالحجاب، ستبدو متوترة وخائفة، طبعًا إخواننا المسلمون سيقولون إنها خائفة من المسيحيين.. وإخواننا المسيحيون سيقولون أنها تتكلم تحت

ضغط، وإنها مضطربة فكريًا ومهزوزة، في الحالتين الدعم سيأتي لميلاد لإعادة زوجته.. وللمرحوم لإيصاله إلى خليل، صدقوني الحكاية ستأتي لنا بما لا يقل عن مائة ألف جنيه والتقسيم سهل.. الثلث لميلاد وتريزا والربع لخليل، والمرحوم عشرة في المائة وأنا الباقي.. قسمة العدل، كلٌّ على قدر جهده.. موافقون؟

ساد الصمت لدقائق.. قطعته عليهم:

- فيم تفكرون؟ أنا لن أشارك معكم.

تشجع ميلاد:

- ولا أنا.. ولا تريزا سترضى بهذه الفكرة.

هز فؤاد كتفيه:

- أنا لن أضغط عليكم.. لكن في هذه الحالة أنا مضطر لتحويلكم جميعا إلى نيابة أمن الدولة للتحقيق في الفتنة الكبرى التي كانت ستحدث، كلكم.. حتى أنت يامرحوم، أنت جزء من القضية.

ضحكت ساخرًا:

- ليس عندي ما أخاف عليه.. أنا معتاد على الزنازين.

أضاف ميلاد:

- في الحالتين سنعيش كالمطاريد.. ولن تنفعنا الأموال في شيء.

هز فؤاد رأسه نافيًا:

- لا طبعًا.. الموضوع سينتهي تمامًا بعد شهر على الأكثر، مناشدات

من البابا والأزهر.. مظاهرات هنا وهناك وتدخُّل أمني لحماية الوحدة، فكر يابني كم مرة سمعت عن موضوع مثل هذا.

أجاب ميلاد:

- لا أدري.. ربما مرتين أو ثلاثا.

- جميل.. هل عرفت في أي مرة منها كيف انتهى؟ هل عرفت مرة أن أحدًا من الأطراف دخل السجن، الموضوع يجب أن ينتهي بسلام، وأفضل حل أن يعود إلى ما كان عليه، ويتضح أن تريزا كانت تعاني من لوثة.. وأن خليل «فهم غلط» وأن ميلاد سامحها من أجل المسيح.. هل هناك أسهل من ذلك؟!

أفلتت مني ضحكة ساخرة وأنا أقول:

- ما هي مِلَّتك يا سيادة الأمين؟

- مِلَّتي لا دخل لها بالأمر.. هذا عمل.

واصلت ضحكي:

- عمل؟! عمل من جهنم على رأس شيطان.

نظر إليَّ فؤاد في غضب.. ضحكت مرة ثالثة في استهزاء:

- يا حضرة الأمين لا تغضب مني.. أنت تريدهما أن يلعبا بالنار ويتفرج الناس وأنا أجمع النقطة وأحضرها لك لتوزع الأجرة في آخر اليوم، حتى لو أكلت النار الجميع.. المفروض أن تكون سعيدًا بي.. أنا أساعدك في عملك الحقيقي؛ أليس المفروض أن تحفظ الأمن؟!!

ظل فؤاد يحدق فيَّ طويلًا.. ألقى بقلمه على المكتب في بساطة وهو يقول:

ـ أنت مغفل يا مرحوم.. تظن نفسك فصيحًا لكنك مغفل، ما أفعله هذا جزء من عملي.. هذا هو الأمن؛ أن يظل هناك مسلم ومسيحي.. وغني وفقير.. ولص وشريف.. وحتى أهلاوي وزملكاوي، هكذا نحفظ الأمن، هل تظن أن كل هؤلاء البشر إذا أصبحوا شيئًا واحدًا وتحول الأمر إلى طائفتين فقط هما الشعب والحكومة سيستقر الأمر؟! بالعكس.. سيكون الجميع في خطر، سيكون المحكوم أقوى من الحاكم وستنتشر الفوضى.

هززت رأسي رافضًا:

ـ ربما أكون مغفلًا.. لكن ليس لهذه الدرجة، أنت تبحث عن المال هذه المرة، مؤامرة من أجل المال لا من أجل العمل.. صارح نفسك.

أجابه فؤاد في لامبالاة:

ـ لعلمك أنا يمكن أن أخبر بعض قادتي أنني سأرتب هذا الأمر لمنع المظاهرات السياسية التي زادت في الجامعة في الفترة الأخيرة، وقد أحصل على ترقية، لن أخبرهم أنني سآخذ نقودا طبعًا.. لكن.. ما المانع؟ الخطة بسيطة وسهلة ولا يوجد جريمة في الأمر، ناس ستدفع نقودًا بإرادتها وسيكونون في منتهى السعادة وسيشعرون أنه في حصّالة الآخرة، في النهاية سيعود الوضع على ما كان عليه ويكون الجميع سعداء.. والقانون لا يحمي المغفلين يا شاطر!

قُمت من مكاني في برود:

ـ أنا لست معك.

ـ أتدري ما يمكن أن أفعله فيك؟

اتسعت ابتسامتي أكثر:

ـ لا شيء.. في البداية كنت خائفًا منك.. لكن الآن عندي ما أقوله إذا فكرت في أن تتعرض لي.

هز فؤاد رأسه متوعدا:

ـ اتفقنا.. لن أتعرض لك، وسننسى جميعًا هذا الأمر، لكن إذا تكلمت عن هذا الأمر سيكون عليَّ وعلى أعدائي.. لكن خذ حذرك مني.

نظرت إليه في تحدٍّ ثم غادرت مسرعًا.. تَبِعني ميلاد، تأخر خليل عنا ثم لحق بنا هو الآخر، سار كل واحد منا منفردًا، لا أعرف ما كان يدور في ذهنيهما.. أما أنا فقد كنت أؤكد لنفسي أن أيامي في هذا المكان أصبحت معدودة؛ لذلك كان ينبغي عليَّ أن أسرع في حركتي قليلًا.

العلامة الخامسة عشرة

الدائرة

(هكذا تدار اللعبة.. رقعة شطرنج قذرة كل مربعاتها وقِطَعها سوداء).

عندما دخلت المشرحة كنت أشعر بغضب شديد، بدأت أُخرج الجثث واحدة تلو الأخرى وأرصها متجاورة وظهرها إلى الحائط، عشرون جثة تقريبًا يجلسون في سكون ورءوسهم تتدلى على صدورهم، ركلت أقربهم إليّ في غضب.

في تلك اللحظة بالتحديد وقعت عيناي على جثة رجل عجوز نامية اللحية.. هززت رأسي مستحسنًا الفكرة، قلبت في باقي الجثث في حيرة، اخترت واحدة منها لشاب، وضعتها إلى جوار الشيخ.. أخرجت من جيبي قلمًا أزرق الحبر ورسمت على يد الشاب وعلى جبهته وعلى خديه صلبانا صغيرة وأنا أصر على أسناني حانقًا.

وضعتهما متجاورَيْن.. ثم أحدهما على رأس الآخر ثم العكس،

ثم ألقيتهما على الأرض.. غبت في الداخل قليلًا ثم عدت حاملًا سكينًا ضخمًا مزقت به أيديهم الأربع، جلست على الأرض وبدأت في تقطيع الأصابع ثم جمعت كفًا وخمس أصابع عشوائيًا في كيس بلاستيكي صغير.. رفعته إلى أعلى في انتصار قائلًا:

- يد واحدة!

قهقهت ساخرًا.. درت على الجثث واحدة تلو الأخرى، كنت أقطع ألسنتها وأضعها في كيس آخر وأنا أهمس لكل منهم في حنق:

- بعد إذنك.. افتح فمك.. أنت ميت لا تحتاجه، كلنا لسان واحد، لسان المرحوم فقط هو الذي سيبقى في فمه.

توقفت عند جثة أشرف البشلاوي.. ترددت كثيرًا، رفعت رأسه بيدي وخفضت رأسي أمامه للحظات ثم ملت على أذنه:

- لا مؤاخذة يا أشرف بك.. لسانك لا يستحق القطع، أنا أقطع لسان أولاد الكلاب الباقين الذين لا يحتاجونه في أي شيء فقد عاشوا وماتوا يعانون من الخرس والغباء.

واصلت قطع الألسنة وجمعتها في كيس واحد.. ألقيتها في أحد جوانب المشرحة، جلست منهكًا واضعًا رأسي بين كفيَّ، التفت إلى أشرف مرة ثانية وقلت مغلوبًا على أمري:

- لا مؤاخذة مرة ثانية يا باشا.. اسمح لي بأن أرتدي جسدك غدًا وأنا سأحسن استخدامه وسأفعل ما كنت تريد أن تفعل حتى وإن كلفني حياتي، لأ يا باشا لا تخف عليَّ أنا حياتي لا تساوي الكثير، بالعكس.. لو مت أنا كما مت أنت سيكون شرفًا لي

وسأكون فخورًا بنفسي كما أنني فخور بأنك موجود معي هنا في المشرحة.

جلست على الأرض منهكًا.. يوم أسود آخر، وجدت نفسي في بدايته محاطًا بما حاولت أن أهرب منه في حكاية أشرف البشلاوي في صورة أخرى، ربما عقابًا لي على خوفي، ووجدت نفسي في نهايته مضطرًا أن أقتحم حكاية أشرف البشلاوي قبل أن يفوت الوقت، تذكرت أيضًا محروس الذي ضاع وأنا أتساءل عما وعمن أضاعه فلا أجرؤ على الرد بأن ما حدث ربما كان عقابًا لي على إساءة فهم تكليفي بأشرف قبل محروس، محروس وخليل وميلاد، أي بصمة تركوها في حياتي وحتى حياة محمود؟ أحكم الآن على الأمور بشكل مختلف، التافهون لا يساوون شيئًا في موازين الحياة، مع ذلك يمكن أن يكونوا مصدرًا لمصائب أكبر من حجمهم كثيرًا، لن يمكنك أن تعرف أبدا حجم الضرر الذي يمكن أن يسببه لك إنسان مهما تراه تافهًا؛ ذبابة واحدة قد تفسد عليك أشهى أطباقك حتى ولو كان حجمها بالنسبة له لا يُذكر، لا زلت أنا أذكر جيدًا عندما أخذني أبي معه لأساعده، كان السرادق الضخم في حي راقٍ لا أذكر اسمه، وأنا صغير بما يكفي لأخدم في جناح السيدات، الشعور ناعمة والبياض شاهقًا والروائح بديعة، كنت متأكدًا أن الرجل الذي حضر عزاءه كل هؤلاء الجميلات لا بد أن يكون في الجنة، وشعرت أنا للحظات أنني معهم في الجنة إلى أن دخل هو السرادق طائرًا ببطء؛ مجرد صرصار.. حتى وإن كان ضخمًا بعض الشيء، حط على رأس إحداهن فتعالت صرخاتها وهي تجري وتصرخ كالمجانين، فيتركها فزعًا ليحط على رأس أخرى.. ثم أخرى ثم أخرى، كنت واقفًا أشاهد

وأضحك ساخرًا.. وهن يجرين ويتدافعن ولا أحد من الرجال يأتي على الصراخ ربما لظنهم أنه جزء من طقوس العزاء، ثلاث أو أربع دقائق كانت كافية لتنقلب عشرات الكراسي ولتسقط عشرات النساء وليخرج عشرات الرجال ليأخذوا نساءهم اللائي كُنَّ في حالة هستيرية ليغادروا بهن السرادق، ولأعرف بكل وضوح وصراحة أنني لست في الجنة وليلح عليَّ هاجس أن الرجل الذي يفسد عزاؤه صرصار لا بد أن يكون في النار، رأيته ساعتها بمنتهى الحماقة على أنه مجرد حشرة دخلت المكان الخطأ في الوقت الخطأ، وزادته غربته وخوفه خطأ على خطأ فأفسدت كل شيء، هو نفسه مات بنعل حذاء قاس سوَّاه بالأرض، لم يتحرك بعدها مرة أخرى، وقفت أتأمله جيدًا.. انحنيت وأمسكته من جناحيه بأصابعي ثم كفَّنته في منديل ورقي أخذته من على واحدة من المناضد ودفنته خلف السرادق، لم أكن أدفن الصراصير.. لكن هذا كان يختلف، كنت أراه مظلومًا وكنت أتساءل في حيرة ما الذي أدخله وما الذي جعله يتحرك بهذا الشكل؟ الآن أشك في أنه كان مرسلًا، ربما كان هو المرحوم نفسه في محاولة لجعل النساء اللائي كن يضحكن ويثرثرن في عزائه يصرخن ولو قليلًا، فعلها وارتاح ورحل مرة أخرى، وربما كنت أنا هناك لأدفنه لأنه - وإن لم يكن بشريًا - كان يحمل شيئًا من روح بشري بدليل أنه قدر له أن يكون هو الصرصار الوحيد الذي يكفن ويدفن، لكنه كان قد أفسد كل شيء، ما الذي أكتبه الآن؟ لماذا يبدو لي أنني أدافع عن نفسي فيما يخص الزفت محروس؟ لست أنا الذي أفسد حياة محروس، لست الصرصار الذي دخل في رأسه.. بل على العكس كنت أصلحها له.

فؤاد بالفعل كان صرصارًا دخل حياة ميلاد وخليل ليفسدها، أما

أنا فكنت مبعوثًا لأضع يدي على حياة محروس التي كادت تنتهي.. أنا الأداة التي جاءته بأمر علوي ليعود إلى الحياة، وكان جزائي أن أصبح لي أخيرًا صاحب، محمود لم يكن صاحبي.. ولا يصلح لذلك الدور؛ لا أنا مثله ولا هو مثلي، أردته فقط أن ينقل حكايات المرحوم لتخلد وليصبح هو شيئًا ما، فضوله لم يكن قليلًا؛ لذلك فهو يؤدي دوره على أكمل وجه، كنت أذهب إلى المقهى الذي أصبح محروس نجمه الرئيسي.. أجلس معه، ما زال لا يتكلم ولا يعبر عن أي شيء.. مجرد تمثال جالس في سكون تخرج من فمه الكلمات التي لا يعيها فأبتسم ساخرًا لكني كنت أستمتع بجلوسي معه، حكيت له كل شيء.. ربما أكثر مما حكيت لمحمود، لا بد أن يتكلم واحد منا وأنا أحب الكلام وهو لا يهمه، كنت أحتاجه كما كنت أحتاج محمود.. أكره وحدتي التي تحكمت في حياتي منذ طفولتي، كما قال مدرس الرياضيات في المدرسة.. الخط الوحيد لا يصنع أشكالًا، ظلت هذه الفكرة تلح على رأسي لسنوات طويلة، سميحة وسعيد والمرحوم.. كنا مثلثًا متساوي الأضلاع.. فُقد منا ضلعان فتحولت أنا إلى خط وحيد مرة أخرى.. في ليلة مظلمة اكتشفت وأنا أبكي أن الخط الذي أرسمه على الحائط يمكن أن يتحول إلى شكل، أخطأ مدرس الحساب.. إذا اتصلت نهاية الخط ببدايته يصبح شكلًا.. تحولت أنا إلى دائرة.. دائرة صغيرة تحمل في داخلها رسالة كبيرة.

محروس كان هو بداية رؤيتي الجديدة لرسالتي ونهايتها كذلك، ذهبت إليه يوميًا على مدى أسبوعين، ألبسوه وهذبوا شعره ولحيته وإن لم يحلقهما تمامًا، لا أدري لماذا ألبسوه قميصًا وبنطلونًا بدلًا من الجلباب الذي أظنه أنسب له.. كانت تلك فكرة واحد من أصدقاء

محمود؛ أن يمثل نسخة جديدة ممن يغنون المواويل، تمنيت أن يشكرني يومًا أو أن يقول لي كلمة تريحني؛ يخبرني أنه لن ينسى معروفي، أو أنه سيظل مدينًا لي باقي عمره.. لكنه لم يفعل، أكثر ما أدهشني كانت قدرته الخرافية على الأكل.. يأكل بشراهة وبكميات كبيرة، ظننت أن ذلك من جراء الحرمان.. وأنه بعد يوم أو يومين سيعود إنسانًا طبيعيًّا، لكن ذلك لم يحدث، على العكس.. شراهته كانت تتزايد، وجهه يستدير وبطنه يكبر كل يوم عن سابقه، بعد أسبوع واحد اضطر صاحب المقهى إلى تغيير الملابس التي اشتراها له بمقاسين أكبر، أصبح له زبائن بعينهم يجالسهم ويغني لهم.. كنت أراهم وهم يضعون في حجره نقودًا بقيمة مختلفة فأضحك عندما أراه ينظر إليها في لامبالاة، ويتركها تسقط دون أن ينحني ليلمها وهو قائم، ملت عليه في إحدى الليالي وجمعت له نقوده وأنا أقول:

- لا تترك نقودك.. حقك.

أجابني في برود:

- لا أريدها.. أنا أريد أن آكل وأشرب.

درت خلفه لأجمع له النقود التي كان يتركها وسط دهشة الناس، بدا منظري غريبًا وأنا أجمعها.. لكني لم أخجل، محروس هو رسالة ولا بد أن أستكملها، في يوم واحد جمعنا ما يزيد على مائة جنيه، أخذته من يده في نهاية اليوم ودخلنا إلى واحد من محلات البقالة، بدأ يجمع هو في كيس كبير كل ما يريده، ينظر إليَّ فأشير له برأسي موافقًا فيضعه في الكيس وهو يضحك.. فأبتسم أنا مشجعًا. عندما وصلنا إلى الباب وقف مضطربًا، مددت يدي إلى جيبه وأخرجت

النقود ووضعتها أمام البائع فشكرني وغادرنا، لأول مرة أسمع ضحكة محروس، ضحكة جافة خشنة خالية من السعادة، ضحكة انتصار متوحش.. لكني ضحكت عليها.

متى تغير محروس؟ بعدها بأيام قليلة، أصبح يجمع نقوده بنفسه في نهاية الوصلة، أصبح يمد يده لمن يسمعه ويعجب بصوته في إلحاح وهو يقول:

- فلوس!!

يجمع ماله ويضعه في جيوبه في حرص، لم يعد يأتي ليجلس معي بل أصبح يتجاهلني تمامًا، أراه ينظر إليَّ وهو يتنقل من مائدة إلى أخرى، أنتظره إلى النهاية فأجده اختفى تمامًا، كانت كرشه تكبر كل يوم، أصبحت هناك سيجارة مزروعة على طرف فمه وأخرى على أذنه يأخذها من أي مائدة يجلس عليها وهو يبتسم في بلاهة، لم يعد يغني كثيرًا.. يكتفي بعزف قبيح على ربابته، حتى عندما أمره صاحب المقهى بالغناء.. لم يأت غناؤه شجيًّا، أصبح مجرد كلمات تخرج باردة من صوت بحَّته السجائر التي لا تفارق فمه طوال اليوم، عندما التقيت بمحمود في واحد من الأيام هناك كان ينظر إليه وهو يتحرك بين الموائد بثقة شديدة.. أخذ يضحك وهو يراه يجمع نقوده وسجائره من الزبائن، اندهشت لضحكه.. واندهشت أكثر عندما التفت إليَّ مبتسمًا:

- هل رأيته؟!

هززت رأسي موافقا وأنا أتنهد.

ضحك وهو يقول:

- تغير.

أجبته بإحباط:

- تغير.

خبط كتفي وهو يقول بسعادة:

- ما لك؟ المفروض أن تكون سعيدًا، يبدو أنك رسول بالفعل.. أنت غيرت حياته.

هززت رأسي مؤمِّنًا:

- صحيح.. أنا غيرت حياته.

لم يعد تغير محروس يسعدني، على العكس، شعرت أنني أفسدته لكني لم أقل ذلك، حتى عندما عرفت منه أن محروس اختفى من المقهى، أخذ كل ما في الأدراج من نقود واختفى في إحدى الليالي، حكى لي محمود غاضبًا وهو يجيل عينيه في أنحاء المشرحة ويتحرك في كل جوانبها في صباح باكر، بدا لي أنه يستجوبني، أما أنا فكان حزني أكبر من غضبي. لم أستطع أن أحبس دموعي.. جلست في مكاني مكسور الخاطر، لم أقل حرفًا واحدًا إلى أن انصرف محمود، تأكدت أنني أخطأت.. رسالتي لم تكن للأحياء، الأرواح الخبيثة الساكنة في الأجساد ستكون أقوى مني إذا لم أكن داخل الجسد بنفسي، أزحت المائدة التي أخفيت وراءها شِعره الذي ألقاه عليّ في أول ليلة.. جلست أقرؤه واحدًا تلو الآخر.. تعلقت عيناي بواحد

منها، سمعت صوته وهو يتردد في جنبات المشرحة كما تردد في الليلة الأولى:

ياللي كسيت البرص بالفروة أهو برصك صبح دبة

صبح أكله بميت قنطار.. وكان في الأصل بالحبة

كررت وراءه وأنا أبكي في غضب، كنت أعرف أنني سأفتقده.. وتمنيت من قلبي أن أراه مرة أخرى، رأيته واقفًا أمامي في المشرحة بصورتيه؛ صورته في الشارع وصورته في المقهى، ظللت أنقل عينيَّ بين الصورتين، لم أستطع أن أحدد أيهما أريد أن أراه عليها في المرة القادمة، أغمضت عينيَّ وهززت رأسي وأنا أشير إليه في احتقار:

- انصرف.

فتحت عينيَّ مرة أخرى لأجده قد اختفى، تلفتُّ حولي بحثًا عنه لكني لم أجده.. فخرج صوتي عاليًا:

- يا محروس.

جاء صوتي مختنقًا بالدموع وأنا أقول:

- حقك عليَّ يا محروس!!

الغضب.. كان هذا هو الشعور الذي طغي عليَّ عندما عرفت أن محروس سرق إيراد القهوة في الليل واختفى.. ما يقرب من ألفي جنيه، لم أعرف أن المقاهي يمكن أن تتحصل على مثل هذا المبلغ في وردية واحدة، آه لو عرف ناظر مدرسة العلوم الحديثة لا بد أنه سيعيد التفكير في أولويات الحياة.. سيضع المقاهي قبل محال البقالة، لم يكن هذا هو مصدر غضبي بل مجرد فكرة عابرة طرأت إلى ذهني.. كنت غاضبًا لأنني شعرت بشكل ما أنني شريك في السرقة التي حدثت، أنا الذي أحضرت لهم محروس من الشارع وجعلته يقيم في المقهى، كنت أنا الضامن غير المباشر له حتى ولو لم أضمنه لفظًا.. لهذا بحث عني المعلم عبد الغفور واتصل بي ليبلغني دون أن يتهمني بشيء لكنني اتهمت نفسي، أنا مغفل وهذا شيء أكيد.. ومحروس لص؛ هذا مؤكد أيضًا، أما المرحوم فهو شريك لأحدنا.. إما لص آخر وإما مغفل آخر، لماذا لم أفكر في هذا الاحتمال من قبل.. أن يكون المرحوم جزءًا من عصابة كبيرة تخصصت في النصب

والسرقة.. هو ومحروس وميلاد الذي شهد بأن جسد سميحة اختفى.. الآن يبدو لي الأمر أكثر منطقية، ألقوا لي بالطعم في حكاية صالح الإسناوي.. ضحوا بمبلغ زهيد دفعوه للمدرسة لكي تزداد ثقتي فيهم، سرقوا المقهى من خلالي في خطوة أولى أو أخيرة لعلاقتي بهم.. الغريب أن المعلم عبده قرر ألا يبلغ الشرطة فالمكان غير مرخص وقد يضطر على حد قوله إلى دفع أضعاف هذا المبلغ إذا وضعه أمناء الشرطة في رءوسهم، ضحكت في عصبية وأنا أسمع هذا الكلام.. المكان ليس شقة مغلقة على ما فيها بل عشرات الموائد التي تحتل رصيفًا ضخمًا في شارع رئيسي.. لا بد أن هناك العديد من الضباط والأمناء يجلسون فيه، ربما يجلس فيه المحافظ إذا أراد أن يضرب حجرين في منتصف النهار.. إنه جزء آخر من عصر الفساء الذي كان الناظر يتحدث عنه.

ارتديت ملابسي وانطلقت إلى الكلية.. راجعت في رأسي كل حواراتي مع المرحوم، كان يريدني أن أتزوج فرحة لكنني أفسدت ذلك عليه.. لم يطلب مني نقودًا مرة واحدة رغم أنه يعرف أنني طالب ميسور الحال، ربما هذا جزء من خطته.. اكتساب ثقتي.. النقود التي كان يقول لي إنه أعطاها لميلاد ولسائق السيارة ولكل من يعاونونه في استخراج الجثث المزعومة إن وجدت، كنت أندهش من كلامه عن النقود كأنها لا شيء.. يعطي ميلاد مائة جنيه ليوقظه!! كم مائة جنيه يمتلكها هذا الشحاذ؟ سألته مرة فقال لي إنه يصرف كل نقوده على رسالته.. ربما ليست رسالة بل هو مشروع تجاري، يضع قرشًا ليحصد قرشين، كيف صدقت شخصًا مثل المرحوم؟ وكيف صدقت أن مجذوبًا في الشوارع يمكن أن يتحول إلى شخص شريف عاقل

يعيش في مجتمع طبيعي ويتحول إلى صاحب حرفة لأنه موهوب؟! أنا خدعت.. لكن إذا كنت أنا خدعت فلماذا لا أصدق أن المرحوم أيضًا خدع؟ لماذا لا يكون المرحوم صادقًا لكن محروس هو اللص الوحيد في اللعبة؟ تذكرت اليوم الذي قلت له فيه إن محروس تغير.. رأيته وهو يرددها ورائي في امتعاض: تغير.. هل كان المرحوم يرى بوادر تغيره شرًا بينما أنا لم أر ذلك، يبدو أنهم يعرفون بعضهم أكثر مما أعرفهم أنا، قد لا يكون لصًا.. المرحوم يتصرف كالشرفاء ويتعامل كالشرفاء.. مجنون لكنه شريف، قد تكون مشكلته أنه تخيل أن من الممكن أن تأتي بكلب من كلاب الشوارع وتربيه كحيوان أليف، تجعله ينام في بيتك على بعد أمتار من الثلاجة وهو يشم رائحة الطعام الخارجة منها دون أن تتصور أنه سيهجم على ما فيها في لحظة ضعف أو قوة، ربما عضك أنت شخصيًا إذا فكرت في أن تمنعه، الحمد لله أن الموضوع انتهى بسرقة تافهة نسبيًا دون أي خسائر أخرى.

شخص مثل محروس قد يكون مجنونًا بما يكفي ليرتكب جريمة في نوبة من نوبات هياجه، قد يكون المرحوم مجرد أحمق لأنه وثق في شخص مثل هذا وحاول أن يساعده، المصيبة التي لاحظتها وأنا أقول لنفسي هذا الكلام أن كل ما قلته ينطبق على المرحوم، وكل ما تحمله هذه الفكرة عن المرحوم ينطبق عليّ أنا أيضًا في علاقتي به؛ لماذا تحولت فكرتي من تسجيل ما يحدث في عالمه إلى تحويل عالمه من صورة إلى صورة.. هذه حماقة أخرى، الآن أرى بوضوح ما لم أره من قبل، لا يجب أن أحاول فعل ما يفعله المرحوم.. عليّ أن أدع الأموات في قبورهم، استخراج جثة لها رائحة كريهة ووضعها في قصر أنيق لن يجلب لي شيئًا إلا الرائحة الكريهة والدود الذي سيملأ المكان، فرحة ـ إن وجدت ـ

فهي دودة ومحروس دودة أخرى والمرحوم هو الجسد الميت كريه الرائحة والملمس، وقفت أمام باب المشرحة ما يزيد على نصف ساعة وأنا أفكر أن أنساه إلى الأبد، يبدو أنني أكبر.. أبي كان يرفض أن ألعب في الشارع وأنا صغير لأنني لا يجب أن أختلط بأبناء البوابين، كنت أراه شريرًا قاسي القلب، أنا الآن ألعب مع ابن التربي وأتساءل في عجرفة عما إذا كان من الواجب عليَّ الاختلاط به أم لا.. الإجابة هي لا.. فهو مجنون أو لص، لكني لن أتركه يخدعني.. إن كان لصًا فلن أرحمه، لن أتركه يبحث عن ضحية جديدة يقودها فضولها إلى أن تساعده في عملية جديدة، أما إذا كان مجنونًا فيجب أن يغادر هذا المكان.. لا يجب أن يتحرك بيننا أمثال المرحوم ولا أمثال محروس.. قررت أن أدخل إلى المشرحة، كانت الساعة لم تتجاوز السابعة بعد، طرقت الباب بغضب.. فتح لي مبتسمًا كعادته، شعرت لأول مرة أنني أريد أن أصفعه على وجهه لتغيب ابتسامته، كنت أريده أن يبكي.. ربما ليعترف لي بالحقيقة، على الأقل ليتوسل لي لأساعده وليعرف أنني لست أحمق يمشي وراءه، هو يجب أن يمشي ورائي ويسمع كلامي، دفعت الباب ودخلت.. بدت عليه الدهشة، أخذت أجيل عيني في كل مكان بحثًا عن محروس أو عن أثر من آثاره.. لم يسألني حتى عن سبب غضبي، لا بد أنه يعرف.. بدت نبرتي حادة وأنا أسأله:

- أين محروس يا مرحوم؟

أجاب ببراءة مستفزة:

- في المقهى طبعًا يا دكتور.

أجبت في غضب:

- ليس في المقهى يا مرحوم.. محروس سرق الإيراد وهرب.. ألا تعرف؟

نظر إليَّ في دهشة.. تجولت أنا في المشرحة، فتحت باب الاستراحة ونظرت في الداخل.. لم أجد شيئًا، نظرت إليه في شك.ارتسمت على وجهه ملامح الذهول، وقفت أحدق فيه.. بدا لي أنه سيبكي، خرجت لهجتي مليئة بالتهديد:

- محروس حرامي يا مرحوم.. وأنت الذي أتيت لنا به وأنا مشيت وراءك، والآن أنا وأنت متهمان بأننا شركاء في السرقة.. والمعلم عبده سيبلغ الشرطة، وطبعًا أنت المتهم الرئيسي.. أنا ابن ناس ولا يمكن أن أكون شريكًا في هذا الأمر، لو تعرف أين ذهب أخبرني وأحضر النقود وأنا سأنهي الموضوع.. فكر بسرعة ولا تضيع نفسك.

لم يبد عليه الخوف.. لكن بدت عليه الحسرة، احترت فيه.. هل يمكن أن يتصنع هذه الملامح؟ أحنى رأسه وصمت تمامًا، ظننت أنه سيعترف.. رفع رأسه بعد دقائق طويلة عندما ناديته غاضبًا:

- رد عليَّ.. هل تعرف أين محروس؟

كان يبكي.. كانت دموعه تسيل بغزارة وهو يحاول أن يمسكها بإغماض عينيه.. لدهشتي آلمتني دموعه، لحظتها عرفت أنني أصبح في قلبي شيء ما للمرحوم.. عطف.. ألفة.. معزَّة، لا أدري، لكني لم أبدها له وأنا أقول في حدة:

- اسمع.. أنا تحملتك كثيرًا، لكن أقسم بالله لو عرفت أنك شريكه

وأن كل الحكايات التي تحكيها لي نصب لن أرحمك، حتى لو كانت حقيقية لن أرحمك، أنت مصيبة توزع مصائب.. مكانك ليس هنا، وأنا سأعمل على أن تكون في المكان الذي تستحقه.

انتظرت أن يجيبني بأي كلمة لكنه لم يعقب.. فغادرت غاضبًا، صفقت الباب خلفي ووقفت مترددًا للحظات، المرحوم يبدو صادقًا.. وأنا أشعر بغصة في حلقي من أجل هذا المجنون، سمعت صوته يأتي من الداخل بكلام لم أتبينه.. جريت إلى واحدة من النوافذ المفتوحة.. كان واقفًا في المكان نفسه محدقًا في الحائط وهو يشيح بيده في غضب شديد ويقول:

انصرف.. لم يكن أمامه أحد، وجدته بعدها ينادي على محروس في لوعة.. ثم يمد يده مفرودة أمامه في اعتذار وهو يصرخ:

- حقك عليَّ يا محروس.

العلامة السادسة عشرة

الكفر

سيطر عليَّ محروس لأيام طويلة.. قررت للمرة العاشرة تأجيل موضوع أشرف إلى أن أشفى من موضوعه تمامًا، لكنني لم أكن أتماثل للشفاء، بل على العكس، اعتبرت ذلك علامة أخرى على أن هناك ما ينبغي عليَّ فعله لأستريح، الصورة بدت لي أوضح عندما فكرت في أن محروس هو البشري الوحيد الذي حاولت مساعدته لكن ذلك أدى بي إلى أن أفقده، أنا لم أخلق لمساعدة الأحياء.بل خلقت من أجل الموتى.. أخطأت عندما أجلت مهمتي من أجل مهمة فرعية لا تخصني لأنني - أعترف الآن - كنت خائفا.ربما لهذا كان من الضروري أن تأتيني علامة قاسية لتخبرني أنه لا بد من الحركة في اتجاه الرسالة التي جاءتني من أشرف البشلاوي.. ظهور فؤاد في حياتي لم يكن مصادفة.. تأخرت كثيرا فجاءني رسول آخر من جهنم التي كان أشرف ينتمي إليها ليريني المزيد.

فجأة وبعد مقدمة واضحة لم ألتفت إليها أثناء انشغالي بمهامي

أصبح خليل وميلاد وتريزا أشهر ثلاثة أسماء في مصر، الكلام ينتقل بسرعة في المشرحة.. والآذان تنقله إلى الأفواه دون أن يمر على العقول، لم أشاهد بعيني غير المشاجرات التي كانت تنشب بين طلبة المشرحة من آن لآخر.. والتي جعلت رئيس القسم يمنع دخولهم إلا بعد دخول الأستاذ الذي سيعطي المحاضرة، والحوارات طويلة ووجهات النظر متضادة.. لم أجد ذلك غريبًا، البداية كانت في شريط مسجل لتريزا يتداوله الطلبة المسلمون في فخر وهي ترتدي الحجاب وتقول بخشوع:

ـ أنا تريزا موريس حنا.. اسمي الآن فاطمة الزهراء عبد الله الصالح، ربنا هداني وانتقلت إلى الإيمان، أنا كنت أقضي ليالي طويلة أفكر أين الحق وأين النور، وكنت أقول لزوجي إنني محتارة ولا أعرف ما أفعل لأرتاح، وهو كان طيبا ومؤدبا وجميلا معي.. لكن الإسلام ناداني، وأنا مرتبطة بشاب مسلم وهو حمدي.. وإن شاء الله سنعلن زفافنا قريبا بمجرد أن يرزقنا ربنا بما نبدأ به حياتنا الجديدة، وأطلب من إخوتي المسلمين أن يحموني ويساعدوني.

لم يدهشني اختلاف الاسم.. هذه هي تريزا زوجة ميلاد.. أراني صور فرحه، إذن من هو حمدي؟ طبعا هو خليل! لا بد أنها لم ترفض، ربما عرض عليها ميلاد الفكرة في ليلة هادئة فرفضتها ثم قاومت ثم وافقت على مضض وهي تهمس لنفسها أن ما في القلب في القلب، لعلها الآن تقول لنفسها إن الفقر هو الكافر.. ربما لا يكون ميلاد طرفا في الأمر، ويكون خليل التف من خلف ميلاد وأبلغها بالخطة فوافقت من أجل النور الساطع الذي انتظرته سنين طويلة لكنها لم تصل إليه.. المال.

بعد يوم واحد شاهدت فيديو آخر مع جورج عزيز ورفاقه، ربما ليجعلوني أهتدي أنا أيضًا.. الفيديو فيه خليل يقول إنه ترك الإسلام ودخل المسيحية، وخرج في فيديو على الإنترنت يقول إن النور دق بابه وإنه جاءته رؤيا للهداية، وطبعًا لم ينس أن يذكر أنه مطارد من المسلمين، أفلتت مني ضحكة عالية عندما سمعته يقول إنه كان يعمل حلاقا في المرج.. جميل، هناك فريقان الآن يلعبان اللعبة نفسها، كل منهم له جمهوره الذي سيدفع من أجل الفوز، فريق تريزا وفريق خليل. مع من يلعب ميلاد ومع من يلعب فؤاد؟ لا أدري!!

نظر لي جورج عزيز في غضب وهو يسألني:

ـ علام تضحك؟

أجبته في دهشة:

ـ ألا تعرف؟! أليس هذا الذي تشاجرتم معه هنا، عامل المشرحة؟! أنت تعرف أنه كاذب.

هز جورج رأسه نافيًا:

ـ طبعًا يجب ألا يقول معلومات كاملة عن نفسه.. أصحابك سيقتلونه.

هززت رأسي في دهشة.. أي منطق يحكم هذه العقول؟

ـ ألا يعجبك ما أقول.. عندك تفسير آخر؟

صمتُّ فتابع هو تشغيل الفيديو وهو يرمقني باحتقار.

في نهاية التسجيل قال إنه لا يريد أن يختفي عن الأنظار، يريد

أن يواجه الجميع بدينه لكنه ـ قالها بالكثير من المسكنة والضعف ـ يحتاج إلى مسكن يحتمي فيه ومبلغ من المال من أهل الخير ليبدأ به صالون حلاقته الخاص في أي مكان.

انفجرت مقهقهًا مرة أخرى، ونظروا هم إلى بعضهم وبدأت التفسيرات التي كادت تصيبني بالغثيان، خليل باع القضية.. وربما تكون تريزا باعت القضية، لم أستطع أن أقاوم.. أخذت رقم ميلاد من على الحائط واتصلت به على الفور من أقرب هاتف، لم أتوقع أن يجيبني لكنه أجاب في لهفة، أفهم الآن أنه كان ينتظر مكالمة من زوجته التي اختفت، أخبرته أنني أريد أن أزوره، فرحب بي وهو يبكي أخذت العنوان وذهبت إليه على الفور.

عانقني ميلاد في لهفة عندما رآني فاحتضنته في تقدير وهو يبكي في انكسار.. حكى لي ما حدث؛ تريزا رفضت الفكرة تمامًا.. وقبلت رأسه عندما أخبرها أنه رفض، لكنها كانت تشرد كثيرًا.. بعدها طلبت منه أن يلتقيا بفؤاد، هو وهي وخليل جلسوا معه، لا بد أنهم غيروا الخطة.. تريزا كانت لها وجهة نظر أخرى وخليل كان يحتاج إلى ترتيب آخر بعد انسحاب تريزا من المشروع المشترك وفؤاد كان يريد أن يستثمر في كل الاتجاهات الممكنة، وميلاد كان هو العبيط الوحيد في المجموعة.. اختفت تريزا فجأة في واحدة من الليالي واختفى معها جارهم حمدي الذي كان يحمل حقيبة كبيرة مليئة بالشرابات وماكينات الحلاقة يدور بها على المقاهي، وعندما يقبض عليه يخرج صورة شهادة التخرج من كلية التربية الرياضية وهو يبكي للضابط فيتركه شفقة وعجزًا، عرف أنها كانت على علاقة به منذ ما يقرب

من عام.. هو الذي أعطاها الفكرة.. الضربة المزدوجة، الهروب مع عشيقها وجمع ثروة لا بأس بها لبداية جديدة والانفصال القانوني عن رجل كانت تصفه على حد قوله بأنه قليل الحيلة تفوح منه رائحة الأموات، احترمت ميلاد لأنه الوحيد الذي ظل ثابتًا في مكانه ولم يقبل بتنفيذ خطة فؤاد القذرة.

كان ميلاد يبكي وهو يقول:

ـ أنا السبب.. أنا لعبت برأسها، تصدق يا مرحوم أنني قلت لها إن الموضوع مغر وإنني فكرت فيه كثيرًا لولا خوفي من الحساب، تريزا كانت مسيحية متدينة.. تذهب إلى الكنيسة وتقرأ الإنجيل.. أنا كفّرتها.

ربت على كتفيه في شفقة وأنا أقول:

ـ المتدينة لن تقيم علاقة مع جارها يا ميلاد، والتي خانت زوجها ودينها تبقى لامؤاخذة.

أشار إليّ في غضب:

ـ لا تسبها يا مرحوم.. تريزا لا تزال زوجتي.

هززت كتفي في لامبالاة.. سألني بعد قليل في حيرة:

ـ تفتكر تريزا أسلمت عن اقتناع؟

مططت شفتيّ دون أن أجيب.. كنت أريد أن أقول له رأيي، الدين علاقة بينها وبين الله لكني لا أستطيع أن أصدق امرأة قالت إنها آمنت بخالق من أجل مخلوق، ولا أستطيع أن أقبل فكرة أن الهداية جاءتها

بينما كانت ترتمي في أحضان رجل لمجرد أنه أكثر إثارة لها من زوجها، ولا أصدق أن أولى خطوات الهداية فرارها مع جارهم، ولا أصدق أنها ستبدأ حياتها في دين جديد بإعلان مثل إعلانات تبرعوا لبناء أسرة.. ترددت في أن أخبره برأيي صراحة، قلت له في غضب:

- لا بد أن تفضحهم جميعًا يا ميلاد.. خليل وفؤاد وتريزا، لا أحد سيصدقني إذا تكلمت، سيقتلونني جميعًا.. أما أنت فالكل سينصت لك.

هز رأسه رافضًا:

- لا يا مرحوم.. لا زال عندي أمل، أبونا يقول إن نفسيتها تعبانة وإنها ستعقل سريعًا.

- أبوكم عارف أن الموضوع فيه آلاف الجنيهات؟

هز رأسه نافيًا.

تابعت:

- إذن أخبره أولًا يا ميلاد ثم اسأله عن رأيه.

نظر في الأرض ثم قال دون أن يرفع رأسه:

- لا أريد أن أفضحها يا مرحوم.. لا زالت هناك فرصة.

خيم علينا صمت ثقيل.. الأمر صعب، قطع هو الصمت مكررًا:

- تفتكر تريزا أسلمت عن اقتناع يا مرحوم؟!

لم أستطع أن أقاوم غضبي.. قمت صائحًا قبل أن أغادر:

- طبعًا.. اقتنعت بجاركم.

التفت إليه قبل أن أخرج من الباب.. نظر إليَّ في حزن، ثم أشاح بوجهه بعيدًا.

توالت الفيديوهات والمصادر، أسبوع كامل.. قناة البشارة وقناة الثمرة الطيبة، لا بد أنهما شركاء أو حمقى، لم أكن أدري أأضحك أم أبكي عندما قرأت ما كتبه وقاله المشايخ والقساوسة في الجرائد والتلفزيون، خليل أصبح هو رمز الهداية وتريزا هي المجاهدة في طريق الحق وميلاد هو الزوج الشرير الذي لم يحافظ على خليلته، والقصة تكبر وتكبر.. كنت أسمع بأذني وأرى بعيني الطلبة وهم يجمعون الأموال ليرسلوها إلى القنوات، كل هذه النقود من هنا فقط.. كم كان نصيب كل منكم يا أولاد العفاريت؟!

زارني فؤاد في المشرحة مرة واحدة في نهاية الأسبوع، سألني عن ميلاد وخليل فأجبته أنني لا أعرف عنهما شيئًا.. أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يقول:

- سرقوني أولاد النصابين.. سرقوا الفكرة ونفذها كل منهم منفردًا.

تظاهرت بالسذاجة وأنا أسأله:

- كيف؟

نظر إليَّ بشك وهو يسأل:

- ألم تسمع شيئًا؟

هززت رأسي نافيًا.. تابع هو:

ـ تريزا هربت مع جارهم، لمّت ما يزيد على مائتي ألف جنيه في أسبوع، والزفت خليل لم يجمع سوى خمسين ألف جنيه.. النسوان أشطر دائمًا يا أخي.

نظرت إليه في دهشة.. كنت أريد أن أسأله من أين عرف المبالغ.. لكني فضلت أن أصمت.. مال عليَّ وهو يسأل:

ـ أنت تعرف بيت ميلاد؟

أجبته بثقة:

ـ لا طبعًا.

تنهد وهو يقول:

ـ أنا نويت أن أفضحهم.. وأريدك أن تشهد معي.

هززت رأسي نافيًا في إصرار:

ـ أنا لم أر شيئًا ولم أسمع شيئًا، دعني في حالي يا سيادة الأمين.

ظل يحدق فيَّ للحظات.. انفرجت أساريره فجأة وهو يقول:

ـ أنت فعلًا لم تسمع عنهما أي شيء؟

ـ لا يا سيدي لم أسمع عنك ولا عنهما.. أنا لا أسمع.

هز فؤاد رأسه متفهمًا:

ـ يعني أنت أطرش.. تصدق حظك حلو.

في النهاية حدث ما وعد به فؤاد.. اختفت قصة تريزا وخليل وميلاد

فجأة كما بدأت فجأة، لم يسمع أحد عن خليل ولا عن تريزا مرة أخرى، أما ميلاد.. فقد ظهر اسمه كسطر واحد في صفحة الحوادث بعد أن تلقى رصاصة في منتصف جبهته من مجهول في بيته، ولم يشر الخبر ولا الكنيسة ولا المسجد من بعيد ولا من قريب إلى أنه الزوج السابق للأخت فاطمة الزهراء عبد الله الصالح المجاهدة في سبيل الحق!

العلامة السابعة عشرة

المولد

المرارة تتزايد، أنا شاهد على جريمة أكبر مما كنت أتصور. نصب جماعي وقتل فردي.. من الذي قتل ميلاد؟ لا أدري! هل جاءت الرصاصة من عند تريزا وحمدي أم من عند خليل أم من عند فؤاد؟ قتلوه بعد أن نصبوا على الشعب بأكمله لكيلا يفضحهم.. الصنارة هذه المرة اصطادت سربين كاملين من الأسماك. في طفولتي كنت لسبب ما أخشى المسيحيين وأظنهم أشرارا، وجورج ورفاقه لا زالوا حتى الآن يظنون المسلمين أشرارا، الحقيقة التي تعلمتها جيدا هي أن الأشرار هم الأشرار. فليلبسوا ما يلبسون وليقولوا ما يقولون وليبقَ ما يفعلونه هو الدليل والبرهان. صادق كان نصابا وشريرا، وأنا بحماقتي فتحت له طريقا للنصب الجماعي، لماذا أصبحت المصائب تتوالى مترابطة لتكمل لديَّ الصورة؟ الصياد العجوز في الرواية التي كان محمود يتكلم عنها في أول لقاء بيننا لم يكن هو الخاسر الوحيد كما كنت أظن. والسمكة لم تكن هي الفائزة! الصياد كان

أحمق مثلي صارع السمكة فأتاح بفعلته لعشرات الأسماك الصغيرة التافهة التي كانت تفر من أمامها رعبا أن تأكلها.. خسر هو وخسرت هي والمكسب الوحيد ذهب لمن لا يستحقه.. الفارق الوحيد أنني صارعت صادق فأتحت له أن يأكل مئات الحمقى في كرشه الضخمة.

كلمتني فرحة لتقول لي إنها أصبحت تخاف على نفسها منه أكثر وأكثر.. ما الذي تغير فيه؟! لماذا تخشاه هكذا رغم أنها قبل ذلك كانت تكرهه أكثر مما تخشاه؟ لا بد أن جديدًا حدث، خبطت جبهتي وأنا أقولها.. ما الذي جعلني أثق في صادق؟ ذيل الكلب لا ينعدل أبدا، يجب ألا أغيب عنهما أكثر من ذلك، قمت في وقتها جاريًا إلى الخارج وأنا أرتجف من البرد والخوف، كل ما قلته لفرحة عن أنه لن يتعرض لها مرة أخرى كان كلامًا فارغًا بدون دليل؟ غالبًا كنت أحاول أن أقنع نفسي به، لم يبد عليها هي الأخرى الثقة فيما قلت لها.. طوال الطريق إلى المقابر كان سؤال واحد يدور في ذهني: لماذا فشلت في نقل محروس من الموت إلى الحياة؟ ولماذا فشلت في نقل صادق أو الطبيب من الحياة إلى الموت؟ أدركت الحقيقة التي بدت أكثر وضوحًا.. أنا كاره للنقل بين العدم والحياة وبين الحياة والموت، لا يمكنني أن أؤدي دورًا لا يحق لي أداؤه.. لست مَلَك الموت ولا مَلِكه.. أنا مجرد مندوب بشري بسيط؛ لذلك أسعدني أنني لم أقتل أحدًا حتى الآن.. لو صبر القاتل على المقتول لمات حتمًا؛ حكمة خالدة، مَن يفهمها؟! كل شيء يحله الوقت، لا أعرف في الدنيا عقدة ظلت موجودة إلى الأبد إلا ما يخلقها الإنسان ويعيش فيها بكل جوارحه.. حتى هذه تحل بموت صاحبها ويكون خلودها مجرد تصور فردي محدود، لكن صادق خطير.. لماذا ضعفت أمام

أمي، الحقيقة التي أقولها أنا الآن بكل وضوح أنني ضعفت أمام ضعفي.. لم أكن بالشجاعة الكافية لأعيش بعد أن أزهقت روحًا أخرى حتى لو كانت خبيثة، لكن تبقى مسئوليتي تجاه فرحة.. لا أستطيع أن أتركها هناك، صادق ليس شريفًا بما يكفي لأثق بكلمته، واصلت الجري وأنا ألهث، عندما وصلت كانت الأجواء مختلفة تمامًا عن الليالي المعتادة، حوش صادق ـ أو الذي أصبح حوشه ـ كانت عليه قبة خضراء صغيرة وأنوار ملونة، أصوات الدفوف والإنشاد تأتي من الداخل بشكل عشوائي، وقفت أحدق في حيرة.. رأيت فرحة هي الأخرى واقفة أمام الحوش في ذهول.. سألتها مستفسرًا:

ـ مولد؟

هزت رأسها مؤكدة:

ـ آه يا سيدي.. مولد سيدنا الشيخ صادق.

حكت القصة باختصار.. أمي أحضرت الرجال ليُخرجوا الشيخ صادق الذي اتضح أن ساقه كسرت، دهشوا عندما وجدوه في قاع غرفة الدفن، حكى لهم عن الروح التي ألقت به في المقبرة وأغلقتها عليه وأنه ظل يقرأ آيات من القرآن ويلح في الذكر إلى أن تزحزحت الأحجار واحدةً تلو الأخرى، نظروا إلى أمي العجفاء وإلى الأحجار الضخمة وإلى المقبرة الخالية وهتفوا في صوت واحد:

ـ بركاتك يا شيخ صادق.

قرروا بالإجماع أن يخصصوا يومًا للاحتفال بالولي الذي تأكدت ولايته، بضع ساعات كانت كافية لتعليق الزينات والأنوار وتركيب

القبة الجبسية ودهانها باللون الأخضر، هؤلاء الحمقى الذين تحترق المصابيح المعلقة على أبوابهم فلا يغيرونها لأشهر وربما لأعوام.. ملعون هذا الصادق، كل شيء يجد فيه ما يحوله لمصلحته.. أنا خرجت من مقبرة مثل هذه ففررت خوفًا من اللعنة أما هو فأصبح قديسًا، أكاد أقسم إنه بعد أعوام طويلة سيصبح هذا المكان مزارًا للبُلَهاء والدراويش، يُصلون أمام الرجل المدفون فيه وهو ليس صاحب المقام الذي يقصدونه، يدعونه ويستنجدون به ويضعون أوراقًا صغيرة وكبيرة يطلبون فيها أحلامًا كثيرة.. زواج وإنجاب وأموال ومناصب.. هكذا تُصنع الأساطير، لا شك أن صادق أسطورة.. لكنه أسطورة ملعونة نتنة، لم أستطع أن أقاوم الدخول.. كان يجلس على كرسي مذهب ومنجد بالقطيفة الحمراء على رأسه عمامة خضراء وعشرات من الرجال والنساء والأطفال يُقبّلون يده، عندما رآني بدا عليه الاضطراب للحظة.. قام بعدها بالرغم من ساقه المكسورة ليحييني، حملوه على أكتافهم إلى أن وصل إليّ.. أخذني بين ذراعيه وأنا أكاد أختنق، كنت أريد أن أفضحه أمام الجمع لكني لم أر في وجوههم ما يدل على أن أحدهم سيسمعني، ربما يفتكون بي إذا أسأت إلى الرجل الصالح الطاهر الشريف، نظرة عينيه قالت لي ذلك.. يده التي مدها أمام فمي كانت رده على ما رآه في عيني من خوف، دفعتها بعيدًا فسمعت من يستغفرون الله نيابة عني لأني دفعت يد الشريف ابن الشريف بعيدًا، نظرت إليهم في يأس وغادرت باستسلام.

سألتني فرحة عما حدث في اليوم الذي تركتها فيه.. حكيت لها فضحكت بغيظ وسعادة، كانت سعيدة لأني لم أقتله وتشعر بالغيظ لأنني لم أقتله، أنا أيضًا كنت أشعر بالسعادة والغيظ، لكن الفرصة

لا تزال سانحة وإن أصبحتْ أصعب كثيرًا، قَتْل ولي من الأولياء له مريدون وربما نجد على أبوابه حراسة دائمة أصعب ولا شك من قتل رجل عادي له أنصار، المريدون سيرون أن الدفاع عن سيدهم واجب ديني مقدس والموت في سبيله شهادة.. لعنة الله على عقول هؤلاء البشر الفارغة، صادق أصبح وليًّا.

لم أكن قد حسمت أمري بعدما أخذت فرحة في يدي وتحركت خارجًا من مقابرنا، الآن أصبح عليَّ أن أبحث لها عن مكان جديد ليأويها ويأويني فيما بعد، بعيدًا عن صادق الذي حولته أنا لرمز كبير، مشينا في الشوارع حتى تعبنا.. كنت أفكر فيما يجب عليَّ فعله، أين أذهب بها، خارج المقابر فرص الحياة معدومة لنا، ما الذي يمكن أن تفعله فرحة لتجد مكانا يأويها.. الحلول محدودة؛ أن أخفيها في المشرحة وهو احتمال مستحيل.. سنتكشف سريعا بالتأكيد، أو أن يأويها محمود.. أطلب منه أن يستخدمها كخادمة في بيته مقابل اللقمة والنومة، ارتحت للفكرة الثانية أكثر ليس ثقة في محمود؛ فأنا لا أثق في أحد.. لكن ثقة في فرحة، كنت أعرف أنني إذا كلمته في التليفون فلن يقبل؛ لذلك قررت أن أذهب إليه في بيته، تذكرت العنوان بصعوبة.. ركبنا الميكروباص ونزلنا في ميدان الدقي، عصرت ذهني وأنا أبحث عن بيته.. الشوارع متشابهة، تُهنا قليلًا رغم أنني في المرة السابقة ركزت جيدًا لأحفظ العنوان، هو بالطبع لم يلحظ ذلك.. وفي المرة الوحيدة التي ذهبت معه إلى هناك عندما تركني واقفًا ولم يفكر في أن يدعوني إلى الصعود، قلت له إنني سأنتظر في الشارع ليعرض عليَّ ذلك لكنه لم يفعل، فدخلت خلفه لأتبين في أي دور توجد شقته.. الدور السابع.

لا أعرف يومها لماذا تعمدت أن أخيفه وأنا أمسك بالسلك.. كيف لا يعرف الفرق بين سلك الكهرباء والتليفون؟ المدهش أنه قال إن كل هؤلاء الناس لا يعرفون، أنا عرفت من النظرة الأولى؛ ولذلك أمسكت به بثقة شديدة.. كان يريحني من وقت لآخر أن يراني مجنونًا، أنا أفزعه.. كما كنا نفعل في المقابر في كل غريب يأتي في الليل، كنا نسميها لعبة عفريت التربة، وكنا نضحك عندما نرى هلع الزائر الذي قد ينسيه حتى السبب الذي جاء من أجله، أشرف البشلاوي جعلني أتوب عن هذه اللعبة تمامًا.. كانت آخر مرة أفعلها فيها. وجدت اسم عائلة محمود على الشقة.. ضربت الجرس وانتظرت قليلًا، فتح لنا الباب.. ليتني لم أذهب، لا أدري لماذا انزعج كل هذا الانزعاج.. نظر إليّ في خوف وإلى فرحة في دهشة.. رفض حتى مناقشة الفكرة، أغلق بابه في وجهي تقريبًا بعد أن أكد لي أن أباه لن يرضى بذلك أبدًا، لم أجرؤ على أن أطلب منه أن يفعل ذلك سرًّا، أعترف الآن أن رفضه أراحني ربما أكثر مما كان سيريحني قبوله للفكرة، فرحة أيضًا بدت عليها السعادة.. أمسكت بيدي ونحن نخرج من البناية وهي تقول ضاحكة:

- على قلبك يا حبيبي.. تريد أن تبعد عني.. أنا عفريتتك.

جرت في الشارع في طفولة وأخذت ترميني بالأحجار الصغيرة وهي تضحك.. جريت خلفها وأمسكت بها ضاحكًا، كنت سعيدًا بسعادتها، لكنني كنت حائرًا وغاضبًا من نفسي، أشعر بحماقتي بسبب ما فعلته.. على الأقل محمود رأى فرحة وعرف أن هناك فرحة، ربما لم يكن الوقت مناسبا بعد مصيبة محروس، لكن فكرت أنه عندما يراها

سيتأكد من صدقي، بدا لي أنه لم يكن ينكر وجودها.. بل كان بالفعل يظننا عصابة، الآن يجب أن أبحث عن طريقة أستعيد بها محمود قبل أن أتحول إلى أشرف؛ فأنا أحتاجه ويجب أن أبحث عن ترب أخرى تختفي فيها فرحة إلى أن ألحق بها، أين سنذهب؟

ليس لنا سوى المقابر مرة أخرى، لا بد أن يكون هناك من نعرفه في المقابر الجديدة، فالأمور ليست بالبساطة التي يظنها الآخرون، إنك لا تفتح مقبرة وتبيت فيها فتصبح بيتك وتعيش بعدها في هدوء، من السهل أن تدخل ليلًا وتستخرج جثة وتغادر بها إذا كنت تعرف توزيع البشر ومواعيدهم، المهم أن يكون ذلك من مقبرة فارغة بلا حراسة، أما أن تسكن هناك وتعيش وتوصل كهرباء ومياهًا إلى واحدة من المقابر فأمر آخر.. قد تكون تخص غيرك كما حدث مع الشحاذ الذي وضعه صادق في حوشنا، وقد يكون صاحبها الأصلي معتادًا على زيارتها وتفتيشها فتجد نفسك في مصيبة قد تصل بك إلى السجن.. وهكذا، لا بد من بداية من أجل النقلة.. الحلول تزداد تعقيدًا، لم يبق أمامي سوى عباس.. لا بد أنه يعرف مكانًا آمنا في مقابر أخرى يدلني عليه، له في كل مكان من يتعامل معه في شيء ما.. عباس ليس شريرًا، قد يكون تافهًا وغبيًّا لكنه ليس شريرًا، على العكس هو من النوع الذي تطغى شهامة أولاد البلد على كل سماته السيئة بمجرد أن يرى ضعفك وحاجتك إليه، أتذكر جيدًا أنه لم يطلب من صادق ورقة واحدة قبل أن يسمح لي بالعمل في المشرحة، مثله مثل الموظف الذي تلقى الأوراق بعد ذلك ولم يفكر في رؤيتي ولا اختباري، عباس اكتفى بمعرفة أنني يتيم ومسكين لدرجة أنني تركت التعليم من الغلب،

لم يفعل شيئًا سوى الحوقلة والتربيت على كتفي، سبني بعدها في الصباح مثلما يسبنا جميعًا كل صباح لكنه طيب بالفعل، لم أره يفعل شرًّا في أي منا، عدت بها إلى المشرحة وتركتها تنام في الاستراحة حتى السادسة.. لم أنم، كنت أخاف أن يفوتني موعد الاستيقاظ ويأتي أحدهم ليقول إنه وجد معي امرأة في المشرحة، أخذتها إلى مكان انتظار المرضى وأجلستها هناك، وقفت أمام المشرحة في انتظار عباس، كانت المعضلة الوحيدة عندي في تقديم فرحة له؛ هل سأخبره أنها أختي أم زوجتي؟ كيف يمكن أن يفهم مثل هذا الرجل أنها زوجتي ماديًا وشقيقتي روحيًا؟ كيف يمكنني أنه أشرح له نظرية الفصل التام بين الأرواح والأجساد؟ طبعًا لن يفهم، ربما أشعلَ فيَّ النار حيًا وجَمَعَ الناس لترقص حولي وأنا أُشوَى، رأيت أنه من الأسلم أن أميل في اتجاه كونها أختي؛ فهذا يجعل الأمور أكثر قبولًا والأسئلة أقل طرحًا.

لم يخيب عباس آمالي.. أخبرته أنني في مشكلة مع صادق بخصوص زواج فرحة من رجل عجوز، وأنني تشاجرت معه، وأنني لا بد أن أنقلها إلى مكان آخر بعيدًا عن سطوته.. هز رأسه في استياء وهو يقول:

- سبعون سنة؟ إخص عليك يا صادق، طول عمرك خسيس، ولا يهمك يابني.. اختر المكان الذي تريد أن تذهب بها إليه وأنا تحت أمرك.

لم يكن لي طلبات خاصة، أي مكان قريب والسلام، أدهشني عندما أخرج من جيبه ورقة طويلة تحتوي على أسماء أصدقائه وبدأ

يتلوها عليَّ؛ المعلم بطل في الإمام والمعلم إمام في العاشر والمعلم شديد في المجاورين، و... و...

ابتسمت ساخرًا وأنا أسأل:

- هل كل أصحابك بهذه الأسماء؟ ألا يوجد محمد أو عوض أو ربيع مثلًا؟

ضحك بصوت أجش وهو يقول:

- يا ابن الَّذين.. تصدق عندك حق، أول مرة ألحظ أن أسماءهم هكذا.. ربما لأن هؤلاء هم «المعلمين» في المناطق.. كل واحد منهم يختار اسمه على مزاجه، وهؤلاء من يجب أن تدخل أختك الترب عن طريقهم لكي تكون مطمئنًا عليها، تمامًا مثل صادق في منطقتكم الآن.

قلت له في رجاء:

- هل سأترك صادق لأذهب لصادق آخر؟ عم عباس.. أريد منطقة لا يوجد فيها معلم كبير، ناس تعيش مع بعضها دون أن يحكم عليهم زعيم عصابة.

هز رأسه في فهم:

- إذن أنت تريد أن تذهب إلى المدن الجديدة.. مقابر المحافظة هناك لا زالت في البداية، اختر بين العبور و٦ أكتوبر، لكن بمجرد أن تزدحم المنطقة سيظهر المعلم

ضحك ضحكة قصيرة وهو يقول:

- الْحَقّ يا ولد يا مرحوم حتى تصبح أنت المعلم.. وسَمِّ نفسك المعلم نمر.

هززت رأسي رافضًا:

- لا يا عم.. لا تلزمني، اختر لي مكانا أذهب بفرحة إليه وأتركها تحت عين صديق تضمنه من أصدقائك الذين يعيشون في حالهم.. بَلا معلمين بَلا زفت.

مط شفتيه وأشاح بيده:

- لا يا حلو.. تذهب إلى واحد من المعلمين، يعطينا كلمة شرف إن أختك في حمايته أضمن لك أن أحدا لن يجرؤ على أن يمس منها شعرة، لكن نذهب إلى منطقة بدون معلم يبقى لا ضمان يا حبيبي.. ويبقى كل واحد معلقًا من عرقوبه.

نظرت إليه في حيرة فتابع:

- معلوم يابني.. من غير معلم الكل يتساوى، الكل يضع عينه على ما مع الآخر، وكلما أخذ كلما أراد أكثر.. وكل واحد وأصله، واحد يطمع في لقمة.. واحد يطمع في هدمة.. واحد يطمع في حُرْمَة، ولا أحد يوقف كُلًّا عند حده، لكن لو هناك معلم - حتى لو ابن ستين كلب - كل واحد سيأخذ ما يسمح له المعلم أن يأخذه فقط وإلا ستكون ليلة أمه سوداء.. قانون يعني.

جلست أحدق فيه صامتًا.. سحب هو نفسًا عميقًا من سيجارته وهو يسأل:

- ها.. تختار كلبا واحدا كبيرا أم كلابًا صغيرة من غير كبير؟

شعرت بحسرة شديدة وأنا أقول بمرارة:

- كلم لنا واحدًا من المعلمين يا عم عباس.

هكذا استقرت فرحة مع المعلم إمام في مقابر العاشر، ارتحت من همها تمامًا بعد أن التقيته، ليس لطيبته الشديدة لكن لأن زوجته التي بدت لي هي المعلم الحقيقي كانت تبدو متوحشة، وكان يبدو هو إلى جوارها كالحمل الأليف، أصرت على أن تسكن فرحة الحوش المجاور لهما تمامًا، هكذا أثق أن إمام لن يلعب بذيله وإلا قطعته له زوجته وعلقته في رقبته لتجعل منه عبرة، فكرت طويلًا هل أخبره أنها زوجتي أم أختي.. أخبرته أنها زوجتي، فهذا يجعل الأمور بالنسبة لزوجته أكثر قبولًا والأسئلة أقل طرحًا.

بخروج فرحة من المقابر التي تربينا فيها بدا واضحًا لي أن الوحي سينقطع عني، وأدركت أنني أعاقب وأن قدرتي ستُسحب مني، لن أعرف مَن دُفن كل أسبوع لأعرف من يحتاجني منهم، ولن نستطيع أن نواصل اللعبة في مقابر سيكون ظهري فيها مكشوفًا، لن يكون دخولي وخروجي حاملًا أو فارغًا سهلًا، ربما يمكنني أن أدخل متسللًا بألف طريقة أستطيع أن أحصرها في لحظة، لكن المشكلة الكبرى كانت في الطريقة التي سأصل بها حاملًا جثة أو آخذًا جثة، من المستحيل أن تركب سيارة من سيارات الأجرة وتدخل حاملًا جسدًا ملفوفًا على كتفك.. كنت أستخدم عربة نقل الموتى الموجودة في المستشفى، عبده السائق لم يكن يسأل كثيرًا.. يأتي بها ويتركها بعيدا ونجلس إلى أن ينتصف الليل ثم نحمّلها أو نفرغها ونذهب، يأخذ الجنيهات

المائة ويضحك أو يبصق أو يصمت، ليس لي في المنطقة الجديدة مكان نختبئ فيه أنا وعبده إلى أن ينام الجميع.

أدركت أنني لن أضيف إلى رصيدي من الموتى المعلَّقين شيئًا إلا ما سيأتيني دون بحث عنه، ربما يكون هذا إيذانًا بانتهاء مهمتي عندما أرسل إليَّ من الجثث، أو ربما سأكلف بمهمة جديدة، توقفت أمام أقرب تليفون وكلمت الدكتور محمود.. لم أطل كثيرًا، أعرف أنه أصبح يشك في أنني لص وشريك لمحروس وأننا عصابة كبيرة، لم أكلمه بكل هذا الاستعطاف والتوسل من قبل، أريده أن يأتي ويراني وأنا أرتدي جسد أشرف ليعرف أنني لست لصًا ولا مجنونًا، كان مترددًا.. كيف يمكنني أن أطمئنه؟ كيف يمكن أن أجعله يثق فيَّ بعد أن خربها محروس وخربتها أنا أكثر بذهابي إليه بفرحة؟! أخبرته أنني سأرتدي جسد أشرف غدًا مساءً، وأنني أريده أن يأتي هو ليشاهد بنفسه كما كان يريد، لم يبد عليه الاقتناع، كنت قد فكرت جيدًا.. قلت له ألا يأت معه بنقود، وأن يترك سيارته في الخارج مع حرس الكلية، وأن يأتي معه بواحد من أصدقائه إذا كان يريد، أو أن يترك خطابًا يحكي فيه حكايتي كاملة، أو حتى ينشرها في مجلة الكلية، سألني عما أعنيه.. أجبته ببساطة:

- يعني ستأتي بلا نقود ولا سيارة وستفضح حكايتي قبل أن تأتي.. فلو أنني لص فلن أجد ما أسرقه، ولو أنني خائف أن تفضحني فلن يكون هناك داع لأذيتك؛ لأنك ستكون قد فضحت كل شيء قبل أن تأتي، أو ابحث أنت عن الضمان الذي تريده فأنا أعرف أنك أصبحت تشك فيَّ، وقبل أن تأتي أريدك أن تسأل من هو

أشرف البشلاوي ومن هو أحمد عمار لتعرف أنني لا أكذب وأن الأمر يستحق. طلب مني أن أتصل به بعد ساعة مرت عليَّ كساعات، وافق محمود بشرط واحد؛ فقد طلب مني أن أترك فرحة «رهنًا» في المقهى مع أصدقائه إلى أن يعود.. فضحكت ببساطة وأنا أطلب منه أن يطلبوا لها العشاء، فصمت قليلا ثم أعلن تنازله عن الشرط.

كنت أشعر أن الوقت قد حان لأترك هذه الحكاية وأبتعد عن المرحوم، أصبح خوفي منه جزءًا من علاقتنا مما يزيد من تعقيد الأمور، بدأت أشعر أنه كالنداهة التي تحاول أن تأخذني لأعيش معه عالمه، جرأته تتزايد.. يبدو لي طيبًا لكن الأمر تفاقم إلى أن وصل إلى أن يأتي بها إليَّ في شقتي ويطلب مني أن تعيش هي معي مؤقتًا، هل هذا عشم أم وقاحة أم خطة أفسدها عليهما رفضي لها؟ للحظة فكرت أن مجيئه بها يؤكد ظني أنهم لصوص، تبيت معي كما بات محروس في المقهى ثم تأخذ ما تأخذ وترحل، بدت لي فرحة في اللحظة التي نظرت لها فيها جميلة؛ عيناها سوداوتان واسعتان وبشرتها بيضاء ناصعة لكنها كانت تنظر في عينيَّ بوقاحة وجرأة لا تقلان عن جرأة المرحوم نفسه، كنت أريد أن أسألها هل هي أخته أم زوجته لكني لم أفعل، بدت لي مجنونة أكثر من مجرمة.. مثله تمامًا، طردتهما على استحياء وأغلقت الباب بعنف، رأيتهما من النافذة وهما يغادران، كان يمسك بيدها وهي تقفز وتجري وتلقيه

بالأحجار الصغيرة وهما يضحكان في سعادة، لا يبدو عليهما أنهما جزء من عصابة فشلت في خطتها، بل ربما هما حبيبان في نزهة غرامية.. يا أولاد المجانين!

عندما كلمني وطلب مني أن أذهب إليه في المساء فزعت للحظات ثم وجدته يقدم لي كل ما يمكن لأطمئن، لكنني لم أطمئن فطلبت منه أن يتصل بي مرة أخرى بعد أن أكون قد فكرت، ذكر لي اسمين فتشت عنهما على صفحات الإنترنت، لم أتوقع أن أجد عنهما شيئًا. مفاجأة جديدة، وضعت يدي على رأسي في حيرة، من هو المرحوم ليعرف مثل هذه الأسماء؟ لا يمكن أن يكون فردًا في عصابة أبله مثل محروس ويعرف ناشطًا سياسيًا مثل أحمد عمار، ولا ضابطًا سابقًا مات في ظروف غامضة مثل أشرف البشلاوي، سيطرت عليّ فكرة أن المرحوم بريء، مجيئه لي بفرحة لم يكن دليلًا على الشر بل دليل سذاجة، أي نصاب أو لص كان سيقرر أن يبتعد عن طريقي لا سيما بعد أن اتهمته صراحة بأنه فرد في عصابة، على الأقل كان سيجري مبتعدًا بعد أن أغلقت بابي في وجهه خشية أن أبلغ عنه الشرطة، لا أن يقفا سويًا يلعبان ويضحكان ويجريان خلف بعضهما أمام المنزل، سألته في الهاتف عن فرحة فأخبرني أنه ذهب بها إلى مقابر أخرى، لا أدري لماذا سألته عن المكان ولا أدري لماذا ضحك دون أن يجيب، كان قلبه دليله كما يقولون.. حماني وحمى نفسه من معرفتي للمكان، الحقيقة أنني فكرت مرة أخرى.. غلبني الفضول، المرحوم حتى وإن كان لصًا فهو ليس مؤذيًا، عندما كلمني أمليت عليه شروطي؛ فرحة ستظل جالسة على المقهى في حماية أصدقائي إلى أن أعود.. وأنا الذي سأحدد الليلة، كالعادة وافق في بساطة، ما رأيته منهما أمام

بيتي يؤكد أنه لن يضحي بها، إذن المرحوم لن يؤذيني لكيلا يؤذيها، المدهش أنني تنازلت عن الفكرة عندما قَبِلها هو، لا أريد أن أحوّل شقيقته لسلعة مرهونة، ولم أرض لها أن تجلس على المقهى في حراسة طاقم من الرجال. الأمر له مخارج أخرى، أنا الذي سأحدد الليلة وسأفعل ما قاله ولن يجد معي ما يسرقه، أخبرت واحدًا من أصدقائي في الكلية الذين رأوه معي عدة مرات على المقهى أنني سأذهب في الليل لأكتب تحقيقًا عن المرحوم داخل المشرحة، لم يجد هو الأمر غريبًا؛ فقد كان يعرفه ويعرفني.. شرحت له مخاوفي فوافق على مضض، أخذت معي كاميرا التصوير لأسجل اللحظة الهامة.. المرحوم يريدني أن أشهد لحظة دخول روحه في جسد جثة جديدة، لم أتصور أن يطلب مني هذا يومًا ما، ولم أتصور أن يترك فرحة بهذه البساطة، الأمر يبدو مطمئنًا ويبدو أنني أخيرًا سأشهد اللحظة المرتقبة لأفك طلاسم المرحوم المزعجة.. هل ما يقوله حقيقة أم جنون؟ الليلة سيُحَل اللغز.

كان الظلام يغطي جوانب المشرحة بالكامل عندما دخلت إليها في المساء، أصدر الباب صريرًا مزعجًا وأنا أدفعه لأجده مفتوحًا كما أخبرني، شعرت بالخوف للحظات، وقفت في مكاني متسائلًا عن الجنون الذي وصلت إليه أنا أيضًا لآتي إلى هذا المكان في الليل لأوقظه بدلًا من ميلاد الذي شهد لي بنفسه على جنون المرحوم، والذي اتهمته بيني وبين نفسي بالجهل والسذاجة عندما عرفت أنه فعل نفس ما أوشك أنا على فعله الآن، الفضول مرة أخرى.. ليس مجرد فضيلة كما قال فرانس، بل أحد اللعنات الخالدة التي أُلقيت في عقل الإنسان.

أنا باحث عن الحقيقة.. يجعلني هذا أفضل وأشرف من ميلاد الذي كان باحثًا عن الجنيهات المائة، ابتلعت ريقي عدة مرات، قررت ألا أدخل قبل أن أطمئن إلى ما يحدث في الداخل، لم يعد بيني وبينه من الثقة ما يكفي، درت حول المشرحة مرة واحدة بحثًا عن كل المخارج، توقفت أمام واحدة من النوافذ التي تكشف القاعة الكبرى بجميع جوانبها، مثلها مثل كل النوافذ مغلقة ومتربة، جلست على ركبتي وألصقت وجهي بها وأنا أنظر في الداخل، كان الظلام يغشى المكان لولا إضاءة ضعيفة تأتي من أعمدة الإنارة الموجودة في الخارج لتنعكس على عالم الأشباح الموجود في الداخل، الموائد والجثث المسجاة عليها والأعمدة الضخمة، لا شيء بدا لي حيًّا ولا بدا لي ميتًا، حركة خفية ثابتة مخيفة تملأ المكان، فكرت في العودة ألف مرة من حيث أتيت.. لكن يبقى لي أنها فرصتي الحقيقية التي ستكشف لي كل شيء، المحير تمامًا أنني كنت أعرف أن المرحوم لن يقبل أن آخذ هذه الفرصة لأكشف خديعته أو أكون شاهدًا على جنونه الذي ينكره، والحقيقة التي تأكدت منها حتى قبل أن أدخل أن المرحوم أيا كانت حقيقته يصدق نفسه تمامًا لدرجة أنه أتاح لي هذه الفرصة، إلا إذا...، وقفت أمام الباب للحظات أتصفح الـ «إلا إذا» في رأسي، أسخر من نفسي عندما أتذكر كل هذه الاحتمالات، ليس لأني فكرت فيها.. لكن لأنني دخلت رغم كل هذه الأفكار الأقل سوادًا بكثير من الجو الذي كان يحيطني؛ لص.. عصابة.. سرقة.. مجنون.. قتلى.. شذوذ.. مع ذلك دخلت، كان الهدوء والسكون مخيفًا مثل أي حركة أو صوت تمامًا، تحركت وسط الضوء الخافت..

أمكنني أن أتعرف على صوت أنفاس المرحوم العميقة تأتي من أسفل المنضدة، أدركت بالطبع أن الجثة التي عليها هي جثة من يعتبره المرحوم ضابطًا وأسماه «أشرف»، ملت عليه لأتأكد من أنه لا يتظاهر بالنوم، خرجَتْ من المرحوم شهقة عميقة ارتجفتُ لها.. بدأت قدماه تتحركان بعنف وهما تصطدمان بأرجل المنضدة فتحرك الجسد المسجى عليها، لم أستطع المقاومة أكثر من ذلك.. انطلقت خارجًا وأغلقت الباب بعنف من خلفي، اتجهت نحو النافذة نفسها مرة أخرى ورقدت على الأرض مراقبًا، كان هناك جسدان يحمل أحدهما الآخر، دخلا إلى المخزن.. وغابت عني الرؤية، ظهر بعد قليل جسد مفرود يرتدي قميصًا ورديًّا مفتوح الصدر وبنطلونًا من الجينز الأزرق في يده حقيبة أوراق صغيرة، لم أصدق نفسي وأنا أقولها.. المرحوم بالفعل يرتدي أجسادًا غير جسده، ليست هذه قامة المرحوم ولا هي مشيته، ألصقت وجهي بالنافذة محاولًا تبين ملامح وجهه لكنني لم أستطع، ولم أجد من الشجاعة ما يكفي لأدخل إليه، انتظرت إلى أن خرج.. نظرت إليه في دهشة، كان واقفًا أمامي بجسد مشدود يختلف تمامًا عن جسده الذي اعتدت رؤيته حتى إنه بدا لي أطول كثيرًا.. نظرت إليه ساخرًا وأنا أتنهد في ارتياح:

- يخرب عقلك يا مرحوم.. فزعتني.

التفت إليَّ وعلى وجهه ابتسامة صارمة:

- أهلًا يا دكتور.

مد يده ليصافحني وهو يقول:

- صدقتني يا دكتور محمود.. هل رأيت بعينيك؟

مددت يدي في تردد قائلًا وأنا أهمس قلقًا:

- رأيت؟ آه رأيت، أنت المرحوم مرتديًا قميصًا جديدًا، والجثة الأخرى لا تزال في الداخل.

تعالت ضحكاته وهو يقول:

- طبعًا أنا المرحوم.. لكني في جسد الضابط، والجثة التي تتكلم عنها هي جسدي بدون روحي.

أجبته في هدوء:

- أنا أقول لك إنك المرحوم.. صدقني.. أنت مريض.

كانت سبابته تحفر في رقبته ورأسه في توتر، بدأ الدم يسيل منهما، قلت له بقلق حقيقي:

- أنت جرحت نفسك.. كفى.

هز رأسه نافيًا وهو يرسم على وجهه ملامح الألم:

- مكان الرصاص الذي قتلوه به.

أجبته في إصرار:

- لا قتلوه ولا قتلوك.. أنت واقف أمامي تتكلم معي بصوتك وجسدك.

أخرج من جيبه سيجارة، أشعلها وأخذ منها نفسًا عميقًا ثم نفخ عود الكبريت بكبرياء وألقاه بعيدًا، نظر إليَّ في تفحص وهو يسأل:

- ماذا تريد بالضبط يا دكتور.. لماذا تحاول أن تقنعني أنني مجنون؟ أنت لا تفهم شيئًا، مجرد إنسان عادي لا تملك من العلم ما يجعلك تفهم ما يحدث، ألم أعطك قبل ذلك إيصالات الأسطى صالح وتأكدت بنفسك منها؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل كل ذلك خيال؟ الناظر والمدرسة والولد والرجل الذي مات؟ صدق يا دكتور.

نظرت إليه في حيرة:

- أُكذب عينيَّ وأصدقك؟! أنت المرحوم.. صدقني أنت.

أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وهو يقول ببساطة:

- أنا أصدق أنك تراني في الجسد الذي تعرفه، لأن عقلك الباطن لا يقبل الفكرة التي أحدثك عنها طوال الأيام الماضية؛ لذلك تأتي الصورة مؤكدة للفكرة الأسهل في القبول.. باختصار أنت تراني كما تريد أن تراني.

ضحكت بعصبية وأنا أقول:

- كلامك يعني أنني المجنون وأنت العاقل؟

ابتسم ساخرًا:

- تقدر تثبت العكس؟ أنا أقول إنني المرحوم في جسد أشرف وأنت لا تريد أن تعترف بذلك.. بل وتريد أن تقنعني؛ لأنك أجبن من أن تصدق ما لا يبدو لك منطقيًا، لهذا أرجوك.. اتركني في حالي ولا تحاول أن تجنني.. لا ينقصني الجنون.

تحرك في اتجاه زجاج أقرب نافذة، كانت صورته تنعكس عليه باهتة، جلس على الأرض محدقًا.. وقف ينظر إلى نفسه بتفحص:

- تعال وانظر.. أنا أشرف البشلاوي، هل هذا وجه المرحوم؟ هل هذه ملامحه؟ هل المرحوم مات مقتولًا بطلقتين في الرأس والرقبة كهاتين الفتحتين اللتين تسيل منهما الدماء؟ صدق يا دكتور.

نظرت إليه في شفقة:

- المرحوم لم يمت.. أنت حي.

ضحك بصوت عالٍ:

- وهل إذا قلت لك إنه مات ستصدقني؟

هززت رأسي رافضا، فغمز بعينه وأشار بسبابته إلى رأسه وهو يقول:

- إذن أنت لا تعرف شيئا ولا تصدق شيئا إلا ما يأتي من داخلك، أنت أيضا تتبع ما يأتي من هنا فقط.

أنا مجنون.. كان لا بد أن أعترف لنفسي بها وأنا أراه يتهمني بالجنون، مجنون لأني هنا الآن ولأنني أجلس مع شخص مثل هذا قبيل الفجر، جئت أتأكد من جنونه فأضاف لي فرضية جديدة أن أكون أنا المجنون، نظرت إليه في تردد.. بدا أنه يشعر بشيء من الانتصار، اقترب مني فتراجعت بضع خطوات.. مال عليَّ وهو يهمس:

- يا دكتور.. الموضوع الآن كلمتي ضد كلمتك، أنت تراني شيئًا وأنا أراني شيئًا آخر، تمامًا مثلما حدث مع عم صالح السائق.. وأعطيتك الدليل، تريد الدليل على أنني أشرف البشلاوي؟

هززت رأسي في استسلام.

جلس على الأرض وفتح الحقيبة التي كان يحملها ببطء، قلبت فيها في فزع، نظرت إليه في شك وملت على النافذة المجاورة لأنظر لنفسي فيها لأتأكد من ملامحي.. جلست على الأرض في حيرة وأنا أسأله:

- من أنت؟

أجاب في بساطة:

- اختر الأسهل عليك.. الأقرب إلى التصديق، روح أشرف البشلاوي في جسد المرحوم، أو روح المرحوم في جسد أشرف البشلاوي، في الحالتين أنت تقف أمام خليط من جسدين وروحين ولا يهم ما تراه أنت ولا ما أراه أنا، المهم هو الموجود في هذه الحقيبة.

لم أكن قد رأيت ما داخل الحقيبة جيدًا.. لكني تبينت بسهولة المسدسين اللذَيْن بديا لي من طرازات متقدمة كالتي أراها في أفلام الجاسوسية، إلى جانب عدة جوازات سفر للشخص نفسه بأسماء مختلفة، بطاقة شخصية باسم أشرف البشلاوي - ضابط شرطة - والذي لم أعد متأكدًا ما إذا كان هو الواقف أمامي أم لا، وحفنة من الأوراق وسي دي ومظروف مليء بالصور التي فتحتها لأجد أن جميعها - الله يخرب بيتك يا مرحوم الزفت - صور لجثث، أشكال وألوان.. المرعب أنني عرفت بعضهم.. كانوا من المشاهير، وعرفت أيضًا أنني على أبواب كارثة حقيقية، خاصة عندما فكرت جيدًا في أنه من

المستحيل أن يكون المرحوم يمتلك هذه الأشياء ولا حتى أن يكون سرقها، ما في الحقيبة يقول إن صاحبها ليس من النوع الذي تسهل سرقته، وحتى لو سرقها المرحوم لا أعتقد أن الأمر سيستغرق أكثر من ثلاث دقائق لكي يقبض على من سرق هذه الحقيبة وعلى كل شركائه وكل من يعرفون حتى إنه يمتلكها، إلا إذا كان هذا الواقف أمامي الآن أحد اثنين: الضابط الذي يقول إنه هو ملبوس بروح آدمية، أو مجرمًا محترفًا جرني معه ولن يتركني أرحل بعد أن عرفت ما عرفت، في الحالتين كان لا بد أن أستشعر أن الأمر لم يعد مسليًا، بل أصبح مخيفًا.

في هذه اللحظة بالتحديد قررت أن أهرب.. زهدت الحكاية ولم أعد أريد منها شيئًا، فليحترق المرحوم وكل الجثث التي معه في المشرحة وكل الجثث التي في الصور، سفاح؟ يقتلهم ويصورهم، سفاح يختبئ في المشرحة ويفعل منها ما يريد، لم أعرف ما الذي أراده مني، لذلك وجدت أنه من الأفضل أن أبدأ بالتفاوض معه.. فقط ليتركني أرحل.

ـ ممكن أمشي؟

نظر إليَّ في دهشة حقيقية وهو يقول:

ـ ألا تريد أن تكمل معي الطريق؟

أشرت إليه بالنفي وأنا أقول:

ـ طريقنا مختلف.. أنا حتى لا أعرف ما الذي يحدث، دعني أرحل من فضلك، أنا لم أؤذك في أي شيء.

خرج صوت المرحوم الذي أعرفه وطريقته المستعطفة فجأة:

ـ وأنا لم أؤذك في شيء يا دكتور.

ـ إذن دعني أرحل.

هز رأسه نافيًا:

ـ ليس الآن.. أنت مكلف مثلي تمامًا، استلم معي الرسالة ثم افعل ما تريد أن تفعله.

نظرت إليه في استسلام، لم يغلبني الفضول هذه المرة بل الخوف منه، جلست على الأرض إلى جواره.. فتح الحقيبة.. أخرج منها المظروف الكبير وهو يقول بصوت آمر:

ـ اقرأ بصوت عالٍ.

كانت رغبتي الملحة في الخروج من الموضوع برمته تسيطر علي تمامًا، لكن الحقيبة التي تحوي المسدَّسَيْن والموجودة في يد ذلك الشخص؛ أشرف البشلاوي أو المرحوم أو أي شخص بأي اسم آخر، جعلتني أفكر جيدًا، تمسكت بآخر أمل.. أشرت إلى سيارتي وأنا أقول:

ـ نجلس في السيارة من أجل الإضاءة.

أشار إليَّ بالموافقة، تحركنا سويًا في اتجاه السيارة، لم يبد لي أنه بالخطورة الكافية لكنني كنت حذرًا، جلوسي في سيارتي مَنَحني بعض الأمان، أضأت النور.. ألقيت نظرة سريعة على الورق.. ثم بدأت القراءة...

العلامة الثامنة عشرة

الضابط

جلست إلى جوار محمود في السيارة، كلما انفردت به رأيت في عينيه قلقًا شديدًا، كنت أحاول أن أطمئنه، لكن شيئًا ما من صفات أشرف كان يجعلني أكثر صرامة، ما جعلني أتمسك بوجوده معي رغم أنني كنت أرى بوضوح أنه لا يؤمن بالحقيقة أو لا يراها؛ هو أنني كنت قد قرأت هذه الأوراق قبل ذلك، ولأول مرة وجدت نفسي لا أملك أدنى فكرة عما ينبغي عليَّ فعله من أجل هذا المرسل إليَّ والمرسل أنا أيضًا إليه، كنت أحتاج إلى المساعدة.. وكان محمود هو أملي الوحيد تقريبًا، أمسك بالأوراق وبدأ ينقل عينيه بين سطورها.. تجاهلني عندما طلبت منه أن يقرأ بصوت عال، انتزعت الأوراق منه وهو ينظر إليَّ مندهشًا.. بدأت أنا القراءة، أراح محمود رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه وهو يسمع في اهتمام أسعدني.

حدائق القبة ١٢/٢٤

هذا ما جناه عليَّ أبي.. وأنا جنيت على المئات، إذا وصلتكم هذه الرسالة فأنا ميت أو في طريقي إلى الموت، طباخ السم يتذوقه.. بعد ماراثون طويل أنهي المائة متر الأخيرة شريفًا، والفضل لذلك الشاب الذي كان راقدًا أمامي تتدلى الخراطيم والأسلاك من أنفه وذراعيه.. والذي لقنني درسًا أفضل من عشرات الدروس التي تعلمتها من أبي والتي لم تنتهِ حتى بعد أن ضللت طريقي على يديه تمامًا.

أبي صنع مني ما كان يريد.. رجل المستحيل الذي كان يجبرني على أن أقرأ أعداده في كل شهر، طفولتي كانت شاقة، الخطة محكمة.. رجل أمن سابق يعد ولده ليكون أفضل منه، يعرف جيدًا ما ينقصه وما يمكن أن يحتاجه.. ومكان التدريب كان هو جهاز الشرطة الرياضي رغم أننا كنا أعضاء في النادي الراقي الملاصق للبيت، لكن الفكرة متبلورة.. يجب أن تغرس ولدك منذ طفولته في المكان الذي تريده أن يتجانس معه، هناك كان الحديث بالرتب.. والبدل الميري أكثر من الملابس الرياضية، سباحة وجمباز لمدة خمسة أعوام ثم كاراتيه ورماية وملاكمة عشرة أعوام، ماذا تحتاج أكثر من ذلك لتصبح نجمًا في كلية الشرطة؟! بطل الكلية في عدة لعبات.. وأبوك لواء في الخدمة وأنت طالب مقبول المستوى، لا أدري إذا ما كان أبي وراء

ذلك أم لا.. لكنني وجدت نفسي أقفز بالعرض، من الأمن العام إلى الأمن المركزي إلى أمن الدولة.. دائمًا أنا البطل.. وأصبحت أنا كبير السحرة في العرض الدائم.. لماذا أسمونا السحرة؟! كل واحد منا يملك القدرة على أن يخفي عشرات البشر في يوم واحد، إلى أين يذهبون؟! لا دخل لك.. المهم أنهم يختفون، كلما زادت مهارتك على الإخفاء كنت ساحرًا أميز، وكلما قلَّت الأسئلة بعد أن تنتهي من عملك يكون هذا هو النجاح الحقيقي.

١٢/ ٢٥

قائمة أعمالي طويلة.. سامية البنان وأميرة حاتم والعباسي هل تذكرونهم؟ ماتوا بسبب هبوط في الدورة الدموية.. أنا الدو الدموية التي هبطت بهم إلى القبور، محسن العبادي والسويفي وخليل عبد الرحمن ونهاد جمعة.. سقطوا من الشرفات بعد أن اختل توازنهم.. أنا توازنهم الذي اختل وأسقطهم أمواتًا، مع ملاحظة أن خليل احتاج إلى أن أدوس بقدمي على رقبته إلى أن خمدت أنفاسه تمامًا، كان متعبًا في حياته وموته، القس أنطون واللواء الحناوي والراقصة منتهى انتحروا بطلق ناري في الرأس في لحظات إحباط.. أنا المسدس الذي صوبوه إلى رءوسهم لينهوا به حياتهم، وأنا من أخفى شريف واصف من على وجه الأرض إلى الأبد، هذه هي الفقرة الرئيسية في العرض.. شريف واصف اختفى، هل دفن كما يقولون في أساسات مبنى أم دفن حيًا في الصحراء.. أم ألقوه في الجير الحي؟ من يريد الجائزة الكبرى؟!!

١٢/٢٨

شريف واصف مدفون معزز مكرم في أفضل أماكن القاهرة.. في حوض زرع من أحواض حديقة قصر الرئاسة، أعجبتهم فكرة أن يصبح جسده سمادًا للورد الذي يستمتع الرئيس برؤيته في الصباح والمساء، الرئيس لا يعرف، لكن مَن هم أهم مِن الرئيس في قصر الرئاسة يعرفون ويضحكون، ويجعلون هذا المكان بناء على فكرتي هو مبولة كلاب القصر، الفكرة التي حصلت بسببها على وسام الجمهورية قبل أن أترك الخدمة للأبد، لم أتركها برغبتي.. هم أجبروني على ذلك بعد أن عرفوا- رغم كل حرصي - أنني بدأت في عملي الخاص، بعد أن دخلت نادي المائة قررت أن أستثمر قدراتي.. مائة قتيل أعرفهم واحدًا واحدًا، كنت أخالف التعليمات وأهتم بمعرفة كل شيء عمن نفذت بيدي عقوبته، مجرد فضول.. أربعون منهم على الأقل كانوا يستحقون القتل بالتأكيد، وتسع لا يستحقون بالتأكيد، والباقي لا أعرف.. لكن المتهم متهم حتى تثبت براءته، الحقيقة التي قلتها لنفسي وأنا أضحك ساخرًا هي أنني قاتل محترف، ليس هذا عملي كضابط لكني قاتل تابع لإدارة الضباط.. جميل، لماذا لا أعمل لحسابي الخاص وأقبض مقابلًا محترمًا بدلًا من العمل الخيري؟!! دائرة العلاقات كبيرة.. وفي عالم الكبار يجب أن تكون الملابس ناصعة ونظيفة تمامًا، لا حدود للدفع مقابل مسحوق إزالة

البقع، ما أخذته في أول عملية يساوي كل ما أخذته وما ورثته عن أبي، لكنهم طلبوا أن أتوقف عن العمل الخاص وإلا «سمحوا لي بالاستقالة»، بالفعل استقلت.. المدهش أنني أصبحت أعمل معهم بصفة غير رسمية وبمقابل مادي محترم، بالطبع أعطيهم تخفيضًا خاصًّا.. أي شيء أفضل مما كنت آخذه.

١٢/٢٩

المهمة الأخيرة كانت سهلة.. أدهشني أن يأتيني تكليف بمهمة مثل هذه من جهة أمنية بهذه القوة، «عيل» عمره لا يزيد عن الخامسة والعشرين، كان من السهل أن يختفي تمامًا، عندما أخبروني بالمطلوب ضحكت.. قلت للوسيط إنني يمكنني أن أمضغه بأسناني في نصف ساعة، لكن المطلب كان واضحًا.. يجب أن يموت أحمد عمار وسط مشاجرة كبرى تدب في حرم الجامعة، الأكيد كما قالوا لي أنه سيتدخل كالمعتاد، ربما كانت هذه من الأصل تهمته.. التدخل.

يجب أن يسقط مضرجًا في دمائه وسط حشد كبير، أعرف اللعبة جيدًا.. الأسهل أن يختفي لكن طالما أصروا على أن يتم ذلك في الزحام وحددوا الزمان والمكان إذن فهم يريدونها «بلياردو»، هذا هو الاسم الذي وضعته أنا لمثل هذه العمليات في منهجي الخاص، طالما وصفتها لعملائي الأعزاء بالتفصيل عندما أكون أنا الكرة البيضاء التي ستصطدم بكرة أخرى بقوة وبعملية مدروسة لتسقطها في حفرتها، في طريقها

للسقوط ستدفع بكرة أو أكثر في طريق السقوط في الجيوب المحددة مع بعثرة بعض الكرات الأخرى في الطريق لتسمح لك بالمزيد من الاتساع، عملية مركبة.. وبالطبع لها سعر خاص، وسط زحام كهذا ستسود الفوضى ولن يستطيع أي كائن أن يجزم من رأى ومن لم ير، وسيوجه الاتهام إلى ثلاثة أو أربعة منتقين ومعدة لهم الأدلة (أو غير معدة) لا يهم، المهم هو الزج بهم إلى السجن على ذمة قضية القتل، السبب غالبًا ما يكون سياسيًا لهدم تنظيم أو فكرة، تقتل واحدًا من قادتهم وتتهم الآخرين فيصبح الأخطبوط أذرعًا بلا رأس فيسهل قطعها جميعًا.. الأمر بسيط.

٣٠ / ١٢

قتلت رجال أعمال ورجال سياسة ومغنيات وراقصات وعاهرات.. قتلت صحفيين وكُتابًا وجواسيس، فما الذي أصابني عندما جلست إلى جواره؟ لأول مرة في حياتي أشعر أني غير متحمس لمهمتي، كان كثير الحركة والكلام وعندما يتكلم ينصتون له جيدًا، لكنه لم يكن مخيفًا ولا مؤثرًا في رأيي.. أمنيًا هو مجرد بعوضة، ما الذي يجعلهم يريدونه الآن؟ البلد مليئة بالجراد، فلماذا هو؟! عمره أصغر من أصحاب الفضائح الجنسية مع زوجاتهم، لا بأس.. أنفذ ثم أتقصى كالعادة، عالم الجامعة يختلف تمامًا عن عالم كلية الشرطة.. فتش عن المرأة، وجود البنات يضفي على المكان بهجة وجمالًا مختلفين، كلام وحركة ثم حركة وكلام.. نصف ساعة وأنا جالس على المقعد أسمع وأراقب دون أن ألتفت، أمسكت نفسي وأنا أبتسم ثلاث مرات

وكادت أن تفلت مني ضحكة مرة واحدة، خطأ أمني آخر في هذه المهمة.. لا تتواصل مع الهدف، هذا التجمع كان احتفالًا من الطلبة بمولوده الجديد، بدأت أتوتر.. يجب أن يزيد الزحام وأن تأتي الإشارة لأبدأ في التنفيذ.

ـ ماذا أسميته؟

ـ عمار طبعًا.

ـ إن شاء الله يكون مميزًا مثل أبيه.

ـ لا طبعًا.. كيف يكون مميزًا وهو مثل أبيه؟

تعالت ضحكاتهم.. كدت أضحك أنا أيضًا.. خرج صوتها مبحوحًا:

ـ قصدي.. لو قلد أباه لن يكون مميزًا.. يا ساتر عليكم.

صدقتِ يا صغيرة.. لكني لم أكن أقلده، كان هو يقلد نفسه أو كما يقول بعد أن ترك الخدمة؛ كان يحدث النسخة الأصلية من البرنامج.. لكنا فشلنا، ربما أصابني فيروس ما، ربما استمراري لأصل لما وصل إليه كان يشترط عدم التحديث، نفس درجة الذكاء أو الغباء تكفي.. نفس درجة الكرامة أو المذلة تكفي.. نفس درجة القوة أو الضعف تكفي، هذا ما تعلمته وليتني أعلمه لك الآن يا أبي، إنه عجين الخبز.. توازن الدقيق والماء والملح، أي زيادة في مقدار ستفسده ولن يؤكل حتى وإن كنت ترى أنك أضفت إليه.

الإشارة ظهرت.. سيارة حملة التبرع بالدم، وكلمة السر تذاع في المكروفون: من أجل أطفال مصر، العملية مليئة بالأطفال.. كلمة السر

وهو وابنه وأنا وحكايتي مع أبي، مفارقة.. اشتعل الشجار في لحظات، لم يكن دوري لكنه تم باقتدار، خلطة البنات والشباب وزحام وصراخ ثم زحام أشد وضرب أشد ودائرة واسعة لا يخرج منها أحد دون أن يلحظ أنه ممنوع من الخروج، وأنا أتحرك خلفه وأراقبه، كان على وجهه خليط من الدهشة والفزع.. لا زال غريرًا، لا تحاول أن تبرر ما تراه أنت غير مبرر، افهم أنها مؤامرة لم يتم ترتيبها جيدًا.. أو لم يكن من المهم ترتيبها، يكتفي بالغباء والخوف والرغبة في التصديق، لو فكر هكذا لما استمر في الحركة بينهم محاولاً حل المشكلة التي لم يعرفها أحد، وأنا أمشي خلفه على بُعد أمتار قليلة.. تعثر وسقط فجأة فتلفت حولي في دهشة.. ظننت أن هناك غيري مكلفًا بالمهمة لكنه قام في لحظة وانحنى ليربط رباط حذائه الذي أسقطه.. كانت لحظة ذهبية.

اقتربت منه وهو منحن في الزحام.. ألصقت مسدسي الموجود في جيبي في ظهره وهو منحنٍ وأطلقت النار، سقط دون أن يطلق صرخة واحدة، وطأته بقدمي وأنا أبتعد سريعًا في وسط الزحام، عشرات الأقدام داست جسده في الفوضى قبل أن تنطلق صرخة واحدة تبعتها متتالية من الصرخات لتعلن عن سقوط ضحايا، كان صراخ البنات باكيًا وصراخ الشباب هستيريًّا، تشم فيه رائحة شعورهم بالذنب.. أغبياء، كل هذه المشاجرة.. وقتيل واحد؟ إذن كان مستهدفًا أيها الحمقى، لم أكن أحتاج إلى أن أستدير لأرى طبيب سيارة التبرع بالدم وهو يدفعهم بعيدًا ويلتقطه على النقالة ويدفنه في سيارته مع أكياس الدماء قبل أن يعاين أحد منهم جسده ويعرف مصدر الدماء التي غطته، وينطلق مبتعدًا قبل أن يفكر أي منهم في أي شيء غير حُسن حظ عمار الذي أصيب على بعد أمتار من سيارة الإسعاف.

١/١

في المساء بدأت في البحث عن هذا الشاب.. جميل الفيس بوك، صفحته.. مقالاته.. زوجته.. صور ميلاد ابنه الذي كان يتحدث عنه، ظني لم يكن في محله.. تخطى مبكرًا جدًّا حجم البعوضة بما يكفي ليكون مزعجًا، أتباعه كثيرون.. ثقافته واسعة.. كلامه مؤثر، رغم كل شيء ظللت مصرًّا على أنه لا يستحق القتل بدانة مدفع من عياري.. فالتخلص منه كان أسهل من ذلك كثيرًا.

بأقدام الطلبة.. إصابة خطيرة لمعيد أثناء حفل مختلط للشواذ داخل حرم الجامعة.

طلبة الجامعة داسوا المعيد الشاب لعلاقاته الشاذة في الجامعة.

تنظيم الأحرار التقدميين يدعو إلى تجمع للدفاع عن الحرية التامة لطلبة وطالبات الجامعة وللمطالبة بعلاج عمار في الخارج على نفقة الدولة.

«الأحرار التقدميون» يدّعون أن عمار أصيب بطلق ناري في ظهره وهو «منحنٍ» أمام أحد الشباب ويطالبون بالتحقيق.

هل كان المعيد الشاب عضوًا في تنظيم للشواذ؟

ألقيت الجرائد التي في يدي كلها في غضب، ما الذي أغضبني؟ هل لأنني فشلت لأول مرة في إنهاء المهمة والشاب لا يزال حيًّا؟ أم لأن الأمر سيصبح حديث الساعة لبضعة أيام مما قد يفتح أبوابًا من

الأفضل أن تغلق؟ أم لأنهم وصموه إلى الأبد وفتحوا الطريق لكل مروجي الإشاعات عن الشاب الذي أصابته رصاصاتي؟! هناك شيء لا أعرفه.. الموضوع يأخذ حجمًا لا يتوافق مع التفاصيل التي أعرفها.

اندهشت عندما وجدت نفسي أردد في استنكار:

- حفل شواذ؟!

عندما رن هاتفي توقعت أن ألقى لومًا لأن عمار لم يمت.. فاجأني سيادة اللواء:

- لا يهمك.. هكذا أفضل كثيرًا.

ثلاثة أيام كاملة لم أنم فيها، صور ومقالات تتابع فتملؤني غضبًا على غضبي، سامية البنان كانت مومسًا، وصفوها في كل الجرائد أنها خسارة قومية لمصر، نهاد جمعة كان جاسوسًا قالوا عنه إنه واحد من رموز الوطنية، خليل عبد الرحمن كان تاجر مخدرات.. قارنوه بعد موته بطلعت حرب وأسموه رائد الاقتصاد الحديث، أما أحد عمار فقد وصموه إلى الأبد بأنه شاذ.. شياطين.

١/٢

ذهبت إلى المستشفى غصبًا عني، أقدامي قادتني إلى هناك كالمعتاد، أريد أن أعرف المزيد عنه، ليتني لم أذهب.. بل ربما أحسنت بالذهاب إلى هناك، مظاهرة حاشدة أمام الأبواب تطالب بحرقه حيًا، لم أندهش عندما عرفت عددًا كبيرًا منهم، أمناء الشرطة

القدامى، مخلوطين بحمقى يخافون على فتحات أشراجهم إذا أصبح اختراقها عرفًا مقبولًا، البسطاء من أصحاب اللحى الذين يرون أن هذا الشاب سيكون سببًا في أن ينزل الله بنا عذاب أهل لوط، لم يكن الدخول سهلًا.. اضطررت إلى أن أخرج بطاقتي الشخصية وتعريف نفسي لعسكري الأمن كضابط سابق.

قبل أن أصل إلى غرفته جاءتني مكالمة من سيادة اللواء:

- ما الذي ذهب بك إلى المستشفى يا أشرف؟ صعب عليك أنك لم تقتله؟ المفروض أن تتحرك بأوامر واضحة منا، لا بأس.. الولد بدأ يفيق وسيجد من يسمعه، طالما أنك موجود عليك أن تعاين الغرفة، عندما تعود إلى منزلك ستجد خريطة للمداخل والمخارج، موعدنا بعد ثلاثة أيام، يجب أن تقتل عساكر الحراسة وأي مرافق له في الغرفة وتضرم النار في جسده، بعدها بدقائق سيقتحم المستشفى المتظاهرون الذين في الخارج.. أريد آثار الإسلاميين على الجريمة، عندنا بضعة أسماء نريد أن نجمعها.. اتفقنا؟

تحركت في اتجاه الغرفة بخطوات مترددة، قبلها بأمتار وجدت أمامي شابًا يبتسم وهو يحمل باقة أنيقة من الورود، اقترب مني وأعطاها لي وهو يهمس:

- لزوم المعاينة.

أخذتها منه وتفحصتها، عليها بطاقة صغيرة تحمل اسم حمدي سعفان المحامي، عضو المنظمة الدولية لحقوق الإنسان.

دخلت إلى الغرفة لأجد عمار مسجى على السرير تتدلى منه الخراطيم، قسطرة بول على جانب السرير، الملاءة منحسرة عن وسطه

تكشف لي أنه يرتدي حفّاضة، سيدة خمسينية إلى جوار سريره تمسك مصحفًا تقرأ فيه وهي تبكي.. الكدمات تغطي وجهه في كل مكان.

أعطيت السيدة الورد فنظرت إلى البطاقة وهي تستنجد بي:

- الحقنا يابني.. أحمد ضُرب بالرصاص ولم يسحق بالأحذية، الرصاصة دخلت من ظهره وخرجت من بطنه قطعت نخاعه الشوكي، شلل كامل في النصف السفلي وتهتك في الطحال، رفضوا أن يطلعونا على التقرير الطبي، لم يسمحوا لأحد بزيارته إلا أنا.. لولا أن زوجي لواء شرطة كبير لما سمحوا لي بذلك.

نظرت إليها في دهشة:

- زوجك لواء شرطة؟

همست بين دموعها:

- المفروض ألا يعرف أحد.. أنا زوجة اللواء محسن سالم.

كدت أسقط في مكاني.. محسن سالم هو أكبر رأس في الجهاز، لا بد أنه يعرف ما حدث ويحدث بالتأكيد، هو جزء من الخطة.. أو واضعها.. شاهدت السيدة صدمتي فتابعت:

- بالله عليك لا تخبر أحدًا.. محسن مرشح ليصبح وزيرًا أو محافظًا.. لا نريد فضائح، أنا لا يهمني منصبه.. لكن أخبرني أنه يستطيع المساعدة طالما هو في الخدمة، لكن لو عُرف الأمر ابني سيضيع.

جلست متهالكًا إلى جوارها.. بدأت تحكي، أحمد عمار هو ابنها الأكبر من زوجها الأول المتوفى، حاول اللواء محسن أن يعده ليكون

ضابطًا مثلما فعل معي أبي لكنه أصر على أن يكون شيئًا آخر، كلاهما يعتبر الآخر عارًا منذ سنوات، لذلك بقي الأمر في طي الكتمان.

- منذ أسبوعين تشاجرا بسبب مظاهرة دعا أحمد لها في الجامعة.. اسمه جاء بعدها في قائمة الاعتقالات، هدده محسن بأنه سيعتقله إذا لم يتوقف عما يفعله لأنه قد يقضي على مستقبله، وهدده أحمد بأنه إذا قبض عليه سيخبرهم أنه ابن زوجة اللواء محسن وأنه يعرف الأخبار منه، محسن أخبره بأن ما يكتبه ويقوله لن ينتهي بخير.. لكن أحمد أصر، ليته سمع كلامه.

انهارت في البكاء.. فتح أحمد عينيه بضعف، تغيرت ملامحه تمامًا.. كسروا نفسه، ليته مات.. نظر إليّ ومد يده وهو يقول:

- أنا أعرفك.. رأيتك في المشاجرة.

أجبته بابتسامة مشفقة:

- حمدي سعفان.. محامي وناشط حقوقي.

- أنا أريدك أن تقاضي لي هذه الجرائد.. أنا لست شاذًا كما يقولون.

أشار إليّ فقربت أذني من شفتيه فهمس:

- زوجتي رفضت زيارتي وقالت إنني لن أراها ولن أرى ابني مرة أخرى.. هي في داهية لكن ابني لا.

التفتُّ إلى أمه سائلًا:

- من أخبره؟

أجابت بغضب:

ـ كلهم كما لو كانوا موجهين.. الأطباء والتمريض حتى العاملة التي تغير له الحفاضة.. قالت له ساخرة:

ـ المفروض أن يخترعوا حفاضة بقفل لأمثالك.. لكي لا تفتحها إلا تحت إشراف الطبيب.

١/٢

خرجت من غرفته متألما رغم أنني من فعلها فيه، هل تعرف الفارق بين ضربة واحدة على رأس حشرة في الأرض لتقضي عليها تمامًا، وبين أن تراها بعد ضربتك تجر سيقانها في وهن مخلفة سائلا مقززا خلفها؟! لحظتها تشعر بخليط من القرف والقسوة وتتمنى أن تتركها في حالها، عندما وطأت رقبة خليل عبد الرحمن إلى أن مات كنت أعرف أنه يستحقها لذلك لم أتألم، أما اليوم فهذا الشاب ضحية زوج أمه الخائن.. لعبها صح محسن سالم، يعرف جيدًا طريقه بعد أن وصل إلى هذا المنصب، يحتاج إلى أن يثبت للجميع أنه يستحق أن يصبح وزيرًا، لذلك ضرب بحجر واحد كل الأطراف؛ تخلص من ابن زوجته الذي كان يزعجه وأثبت للنظام أنه (يبيع أهله من أجل الداخلية)، ووصم تنظيم الأحرار التقدميين وفي الوقت نفسه حقق لهم أهم شيء.. أصبحت عنده نقطة سوداء في ملفه تضمن لهم أنه لن يحاول القيام بدور البطل الخارق.. في أي وقت يمكن أن يقولوا

إن ابن زوجته كان شاذًا أو إرهابيًا أو أي شيء، وإنه كان وراء مقتله.. نقطة ضعف ملف محسن سالم قبل ذلك كانت أنه بلا أخطاء بما يعني أنه بلا ولاء، لأن الفضائح والملفات السوداء فقط هي ما يضمن لك الولاء الدائم إلى الأبد، لا يوجد مقابل مادي يمكن أن يمنح كبديل للولاء لأن هناك دائمًا أكثر يمكن أن يُدفع، وهناك أحيانًا حد يمكن أن تستغني بعده عن النقود، وهناك ضمائر تستيقظ في لحظة كما حدث لي، لذلك كان محسن سالم ذكيًا بما يكفي لأن يضع في ملفه هذه الورقة لكيلا يترك لهم احتمالًا واحدًا لاستبعاده، غالبًا أخبر الوزير أن الولد خطير وأنه يملك معلومات تقول إنه يعد لمصيبة كبرى.. وسيضحي به من أجل مصر.

١/٥

خرجت من المستشفى واستعدت بطاقتي، درت حول الأسوار دورة كاملة.. في المساء عدت وقفزت من السور الخلفي، دخلت غرفته وأنا أرد التحية للعسكري الذي كان موجودًا منذ الصباح، انحنيت عليه ووضعت على وجهه وسادة ثم أطلقت النار على أمه تبعتها بطلقة في رأسه، طلقة واحدة في رأس السيدة وطلقة أخرى في رأس الشاب.. رفعت الوسادة لأجده لا يزال ينازع سكرات الموت، كيف يستعصي بشر على الموت لهذا الحد؟ أعتقد أنني رأيت ابتسامة امتنان تتراقص على شفتيه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أتمنى أن يتقبل مني الله ما فعلته معه فهذا أول خير أفعله، ناديت بعدها على الجندي

وأرديته بطلقة ثالثة ـ أتمنى أن يغفر الله لي قتله ـ أخذت بطاقة السيدة من حقيبتها. على ظهرها مكتوب أنها حرم اللواء محسن سالم، وجدت كارنيه أندية الشرطة يحمل اللقب نفسه، وضعته على صدر الشاب وانصرفت، أفسدت عليهم كل شيء.. هم يستحقون، وهو كان يستحق الرحمة ويستحق أن أرفع عنه هذا الاتهام المقيت لكنني لن أستطيع، فلا بد أن أختفي الآن إلى أن أرحل لأنهم لن يرحموني، لا أستطيع أن أذهب إلى زوجته وابنه لأنني متأكد أن هناك جيشًا يراقبها.

على أية حال.. أنت واحد من ثلاثة معهم نسخة من هذا الخطاب، وطالما أنت تقرؤه الآن فلا بد أنني الآن بعيد؛ إما تحت الأرض وإما في الجهة الأخرى من الأرض، لا شك أنك من المقربين إليَّ بشكل أو بآخر طالما تقرأ هذا الآن.. لذلك أؤكد لك أنني لا أعرف ما الذي قد تستطيع أن تفعله، لكن لا تحاول أن تكون بطلًا لأنني إذا فشلت في فضحهم فلن تنجح أنت، على الأقل ادع لي بالمغفرة ولو سرًّا وأشرِك معك شخصًا واحدًا تثق فيه على الأقل في هذه القصة، ربما في يوم ما يعرف الجميع الحقيقة التي أهم ما فيها أن عمار لم يكن شاذًا.

خيم الصمت الثقيل علينا بعدها.. أغمضت عينيَّ على ما سمعته محاولًا تحويله إلى صور، أفقت على صوت المرحوم وهو يغمغم:

ـ قتلوه بعدها أولاد الشياطين.

أجبته في حيرة:

ـ هذه الأوراق لعنة على من تقع في يده.. كيف عثرت عليها؟!

مط المرحوم شفتيه وهو يقول:

ـ لا يهم.. المهم الآن أنك أصبحت شريكي في حكاية هذا الجسد، أنت الآن تعرف الحقيقة.. وطالما عرفتها إذن فأنت مكلف مثلي من هذا الميت باسترداد حقه، ألم أقل لك قبل ذلك ليس المهم مَن في جسد مَن.. المهم ما سنفعله؟

سألته في حدة:

ـ طالما جعلتني شريكًا لك لا بد أن أعرف ما الذي يحدث..

ما قصة هذه الجثث؟ كيف تتعرف عليهم؟ لماذا أنت الوحيد في المشرحة الذي يعرفهم؟

أجابني بجدية:

- لو قلت لك.. هل تعدني أن تساعدني في موضوع أشرف؟

أجبته في لهفة:

- قل يا مرحوم.

- هو الذي أوصل لي هذه الأوراق بنفسه.

نظرت إليه باستهزاء:

- تخريفة جديدة.. ضابط أمن الدولة اختارك أنت لتفضح المؤامرة.

بدا عليه الغضب وهو يقول:

- لا تسخر مني.. أشرف البشلاوي جاء إلى المقابر في ليلة ما، من عاداتي أنا وبعض أصحابي عندما نرى غريبًا يدخل المقابر في الليل أن نخرج له فجأة من بين الشواهد؛ لعبة كنا نسميها «عفاريت التربة»، المتعة أن ترى رجلًا من البهوات أمامك وهو يصرخ من الرعب أو يدخل في إغماءة أو يجري في كل مكان، مجرد لعبة، بناء على ترتيب علوي مسبق. أنا الذي رأيت أشرف وأنا الذي قفزت في وجهه.

سألته في اهتمام:

- وماذا فعل؟

ضحك المرحوم وهو يقول:

- أجمد كف أخذته في حياتي.. لم يخف ولا اندهش ولا ارتعب للحظة، بل نزل بكفه مباشرة على وجهي فأسقطني على الأرض ووضع قدمه على رقبتي ومسدسه في رأسي وهو يسألني: من أنت؟ أجبته أنني من الغفراء.. سألني عن مقابر عائلة البشلاوي التي كنت أعرفها جيدًا، أعطاني نقودًا وطلب مني أن أحضر له مصباح غاز وطعامًا، وجعلني ناضورجيًا.. قضى هناك ثلاثة أيام كاملة ثم اختفى ثم عاد ثم اختفى، كنت أراقبه خلسة وهو يكتب هذه الأوراق، قبل أن يرحل أعطاني نقودا كثيرة وطلب مني أن أفتح له المقبرة ليضع فيها هذه الحقيبة.. ليجدها أول من ينزل المقبرة ليدفنه هو شخصيًا - على الأغلب - كما كان يتوقع، أو ليدفن شخصًا آخر في حالة نجاحه في السفر خارج مصر.

- وفتحت أنت المقبرة بعدها؟

الحقيقة أنه جاء بنفسه بعد ثلاثة أشهر تقريبًا ليُدفن فيها بالرصاصتين اللتين تراهما أمامك الآن، طبعًا فتحت المقبرة قبل وصوله وأخذت الحقيبة.. وأدركت أنها رسالة جديدة، فرحة هي التي أخبرتني بالاسم وبالإجراءات الأمنية فعرفت ما حدث.. وفهمت أن التكليف قد جاء.

سألته في حيرة:

- وكيف جاءت الجثة إلى هنا؟

ضحك ساخرًا:

- ألم تفهم بعد؟

هززت رأسي نافيًا.

واصل ضحكه وهو يقول:

- هذه الجثث مكانها معي لحين إتمام مهمتنا سويًا، لا يمكن أن أتم المهمة بدون أجسادهم ولا بدون روحي.

نظرت إليه في حيرة:

- أنت تنبش القبور؟

هز رأسه نافيًا:

- أنا أستكمل المهمة لكل من يأتيني الأمر به.

- ومن أين يأتيك الأمر؟

أشار بسبابته إلى الأرض وهو يقول:

- من الميت نفسه.

مططت شفتيَّ مستفهما فأجاب:

- طالما لاقيته قبل موته وأخبرني عما يريده ثم جاءني خبره، ثم جاء جسده إلى مقابرنا، إذن هو كان يكلفني. هذه علامة واضحة يادكتور.

وجمت تماما.. هذه علامة واضحة، بالفعل سلسلة من الصدف المثيرة للارتياب.. تجاهلت الاقتناع الذي بدأ يعبث بعقلي وأنا أسأل:

- وسميحة؟

تنهد في أسى:

- سميحة كانت قطعة مني.. كانت أختي وزوجتي، الله يجازي من كان السبب.

- قلت سميحة وليس فرحة.

- وأنا أيضًا قلت سميحة وليس فرحة.

نظرت إليه في دهشة.. لم أفهم شيئًا لكني تابعت:

- وصالح الإسناوي؟

نظر إلى السماء كأنه يتذكر وهو يقول:

- صالح الإسناوي كان رجلًا طيبًا.. يأتي بابنه إلى المقابر كل شهر لزيارة جده وقراءة الفاتحة، كنت أعرفهما جيدًا، طالما تحدث معي عن خوفه ألا يتعلم ابنه إذا مات، هل تصدق أنه مات بالفعل بعدها.. فرحة أخبرتني وهي تبكي، كانت قد رأته معي هو وابنه.. فعرفت أنه تكليف آخر.

هززت رأسي في فهم:

- إذن فرحة تخبرك بأسماء من سيُدفنون يومًا بيوم.

هز رأسه مؤكدًا:

- بالتفصيل الممل.

- وأنت تختار زبائنك منهم!

- شركائي يا دكتور.. قلت لك. من عرفتهم قبل موتهم لأساعدهم بعده.

ضحكت ساخرًا في غيظ:

ـ أنا قلت إنها مجنونة مثلك تمامًا.

أشار بيده لأهدأ وهو يقول:

ـ فكر معي بهدوء مرة ثانية يادكتور. أشخاص يأتون إليَّ وهم أحياء يكلمونني ويحكون معي ويخبرونني عن أمانيهم، بل ويتركون وصاياهم معي أحيانا. ثم أجد جثثهم أمامي بعد أيام. أنا فقط أعرف أنهم كانوا يريدون شيئا ما. وأنا فقط أستطيع أن أحفظ جثثهم وألبسها بعد ذلك. ألا يعني لك هذا شيئا؟

هززت كتفي في لامبالاة مصطنعة، يزعجني منطقه، صمتُّ قليلًا ثم سألته:

ـ وتدخل وتخرج بسهولة لأنك تعرف كل شيء عن المكان؟

هز رأسه موافقًا.

ـ وأين جثة صالح؟

ابتسم وهو يقول:

ـ في مكانها.. الحكاية خلصت، دفنتها مرة أخرى بالطبع.

ـ وهل دفنت جثة سميحة؟

ملأ الحزن وجهه وهو يجيب:

ـ لا أعرف أي شيء عنها، اختفت.

ـ وماذا ستفعل الآن في جثة أشرف؟

هز رأسه في حيرة:

ـ لا أعرف.. هو نفسه بجلالة قدره لم يستطع أن يفعل شيئًا في هذه المصيبة، وأنا الآن ارتديت جسده؛ ربما تأتيني أية بشارة.. لكن لا أعرف نوعها، لكن طالما أنك أصبحت شريكي في هذا الموضوع بالتحديد إذن فقد جاء الأمر الإلهي بأن تكون جزءًا من الحل.. جاهز؟

ـ ماذا تريد مني يا مرحوم؟

ـ ببساطة.. أولًا أن تساعدني في هذا الموضوع، ثانيًا أريدك أن تكتب كل ما حدث، اكتب حكاياتي حتى النهاية.. هذه هي أمنيتي أنا بعد الأخيرة.

ـ وما الذي تريد أن تفعله مع أشرف؟

أجاب المرحوم بابتسامة:

ـ لا أدري بعد.. لكني كما ترى مكلف بمهمتين؛ إحداهما تخص أشرف والأخرى تخص عمار، عليَّ أن أفعل شيئًا لهما.

ـ لن تستطيع أن تفعل شيئًا هذه المرة.. لن تستطيع حتى أن تخدشهم.

ـ من قال إنني أريد خدشهم.. كل ما أريد أن أفعله هو فضحهم.

أجبته باستهزاء:

ـ من تظن نفسك.. أفق يا مرحوم، من تتكلم عنه أصبح وزيرًا للداخلية.

أجاب ببساطة:

ـ وأنا المرحوم في جسد أشرف وأنت الدكتور محمود سلمان، كل منا لديه عقله.. معنا عقلان وروحان وثلاثة أجساد عليك وعليَّ أن نفكر سويًّا إلى أن نجد طريقة لإنقاذ أرواح هذين، عمار أرسل لنا رسالة بعد موته.. وأشرف أوصلها لنا، ألا ترى معي أنك أصبحت مكلفًا مثلي بمساعدتهم؟

ـ ربما لا.

ـ افهم.. لا شيء يحدث يا صديقي بلا هدف.. هذه الأوراق لم تقع بين أيدينا بالمصادفة، الميت اختارك كما اختارني.. لا بد أنهما علما أن الأمر أكبر مني؛ لذلك أختاراك لتفعل ذلك معي.. حاول أن تفهم.

ضحكت بعصبية:

ـ هل تريد أن تجرني معك؟

هز المرحوم رأسه:

ـ أنا لم أجرك معي.. حاول أن تفكر قليلًا، ما الذي أوقعك في طريقي أو أوقعني في طريقك؟ ما الذي جعلك تشاركني في المهمة هذه المرة بالتحديد؟ لأنك مكلف.. حتى إذا أنكرت ذلك.. ماذا ستفعل؟ هل ستترك مظلومين تمسك بين يديك بالدليل لبراءتيهما؟ هل ستعيش وأنت تعلم أنك كنت تستطيع أن ترفع عنهما الظلم ولم تفعل؟

فكر يا دكتور جيدًا.. جاءتك الفرصة لتفعل شيئًا.. هل ستفعل أم ستصمت؟

لم أعلق.. أدرت محرك سيارتي دون أن أتكلم، صمت المرحوم طويلًا ثم قطع صمته فجأة:

ـ تكلم يا دكتور.. هل ستكون معي أم سأكون وحدي؟

أجبته باقتضاب:

ـ إنزل يا مرحوم.

ـ لم تجبني يا دكتور.. ماذا ستفعل؟

خرجَتْ مني نفخة طويلة وأنا أقول بغضب:

ـ إنزل يا مرحوم.. ربنا يأخذك.

أنا منسحب.. طظ في المرحوم وفي الكتابة وفي المجد، تحول المرحوم بالفعل إلى النداهة التي ستأخذني إلى قاع الترعة في الظلام فلا أخرج منها مرة أخرى، عندما كان الموضوع مليئًا بالأشباح ومَن يلبس جسد مَن ومَن يخلع جسد مَن.. كان يمكن أن أنغمس فيه، لكن وزير الداخلية وضابط أمن ومسدسات وأوراق فيها أسماء تشعل بلادًا بالكامل.. لا ياعم.أنا مالي.

ما أصابني بالرعب هو أنني عندما كنت أسترجع ما حدث لاحظت أن المرحوم نزل من السيارة وأنا شارد فيما سأفعل. نسيت أن من كان يجلس إلى جواري مختل، وجلست مع نفسي لساعات أناقشها فيما يجب عليَّ بعد أن جاءتني بشارته. أي أنني أصبحت أصدق أن المرحوم له قوة سحرية ما؛ جَعَلَت كل هذه المصائب تقع في حجره، والمصيبة الأكبر أنني أصدق أن كل من يعرف يصبح شريكًا.

خطيرة هي المعرفة.. من الذي قال ذلك؟ أفتش في دفاتري بحثا

عن الأقوال المرتبطة بالمعرفة، أحتاج إلى ما يريحني ويقنعني بالابتعاد بدلا من وسوسة المرحوم في أذني والتي لا تنتهي.. وجدته، أمسكت بدفتري وأخذت أقرأ بصوت خافت، ألقيته بعيدا في عنف. لا أريد أن أقرأ شيئا، أنا خائف، لعنة الله على المعرفة وعلى المرحوم الذي عرفني ما لم أرد أن أعرف وما لا أطيق أن أعرف، أشرف البشلاوي سفاح محترف ويستحق.. لكن عمار؟ الله يخرب بيتك يا مرحوم، ما الذي يجعلك تنبش مقبرة الرجل وتأخذ جثته وتعبث بأوراقه التي كانت سببًا في موته وستكون سببًا في موتك أنت أيضًا، أما أنا فلن ألعب هذه اللعبة.. محسن سالم هو الذي قتل ابن زوجته وأنت يا مرحوم تكون مخلص العالم من شرور محسن سالم؟

تستحق ما يحدث لك.. ما لك ومال الأمن والداخلية؟ ربما هكذا يجب أن تكون تفاصيل الأمور، ربما هذه هي مصلحة البلد، أنت شخصيًا مجرم مثلهم تمامًا.. نباش قبور حقير تتدخل فيما لا يخصك، لن أدخل معك هذه اللعبة، وجدت نفسي فجأة في عالم مليء بالأشباح التي لم أكن أريد أن أعرفها.. أتساءل إذا كان هناك مَسٌّ أصابني فقلبني مجنونًا مثل المرحوم؟! أرى بوضوح أشرف البشلاوي.. أبتسم غصبًا عني وأنا أراه يصفع المرحوم على وجهه في المقابر، وأتخيل الفزع والبلاهة على وجهه، أراه وهو يقتل أحمد عمار في المرتين.. ثم أراهم وهم يقتلونه ثم أرى جثته البُنية التي غيَّر الفورمالين لونها أمام عينيَّ فأرتعب، لكن رعبي الأكبر عندما أرى المرحوم وهو يرتدي جسد أشرف ويدق على بابي يعاتبني على أنني لم أحقق له أمنيته بعد الأخيرة.

الشك ينتابني، هل كنت أرى المرحوم في جثث الآخرين بالفعل لكني لم أصدق فلم أر؟! والآن بعد أن بدأت أصدق أصبحت أرى؟ هل أصابني مس أو عمل شيطاني أو لعنة بسبب دخولي وخروجي من المشرحة ومشاهدة هذا العبث في جثث الموتى؟ لا أستطيع أن أستكمل اللعبة ولا أستطيع أن أنسحب، أصبحت أطلق سور القرآن في البيت صباحًا ومساءً.. سورة البقرة وآية الكرسي، اشتريت بخورًا وأصبحت أشعله (لا أعرف فائدته لكن الرجل كان يبيعه وأعرف أن له علاقة بالعفاريت)، فكرت أن أطلب من شيخ المسجد أن يفعل شيئًا يبعد عني الأرواح لكني استكبرت، على أية حال لم تنصرف.. أصبحَتْ جزءًا من حياتي في هذا البيت الخالي، والقلق والأرق يأكلان عقلي تماما، لا أريد أن أذهب إلى الكلية ولا أريد أن أرى المرحوم ولا أريد أن أدخل المشرحة لأجد جثة أشرف البشلاوي تعاتبني على ما لم أفعل.. أنا أجن غالبا.

كلمت أبي في التليفون.. اندهش وشعر بالقلق عليَّ عندما طلبت منه أن يرسل لي تذكرة لأذهب بها إليه ولو لبضعة أيام قبل امتحاني، كان من الطبيعي أن يقلق.. عادة أتكاسل عن الذهاب إليه في الإجازات وأفضل البقاء في مصر.ما الذي تغير الآن؟ سألني فكانت إجابتي أكثر إزعاجا له: «أريد تغيير الجو»، أبي يعرف أنني أكره الجو هناك؛ لذلك بعد يوم واحد كانت كل إجراءات سفري معدة تماما.

لم يكن من الممكن أن أسافر بدون أن أنهي الحكاية مع المرحوم، أخيرا كتبت له خطابًا قصيرا:

إلى المرحوم:

سأسافر بعد يومين إلى أبي في الخليج، وسأعود على الامتحانات وغالبا لن أراك مرة أخرى.. فأنا أعتقد أنك مجنون، حتى إذا كنت عاقلا فأنت خطر مباشر على كل من حولك. لقد وجدت سطرا لأينشتاين والذي لا بد أنك تعرف أنه كان أذكى منك يقول فيه:

إن القليل من المعرفة خطير والكثير كذلك.

أنت عرفت أكثر مما تحتمل فجننت، وتحاول أن تعرف أكثر فستموت أو تعتقل أو تنتهي أي نهاية سوداء، لا أريد أن أكون أنا طرفا فيها.

الرجل الذي تحدثتُ عنه المذكرات وحش آدمي معروف بقسوته. وأنت لا شيء يا مرحوم؛ لذلك أقترح عليك أن تنسى فكرة التكليف والتخريف الذي تتحدث عنه.. وأنت حر!

تأملت ما كتبته.مناسب تماما.طويت الورقة ووضعتها في مظروف، شعرت بالتردد للحظة كانت كافية لأخرجها وأضيف إليها بضعة سطور أخرى.محسن سالم على عداوة معروفة للجميع مع عمر نفادي الذي كان مرشحًا ليكون وزيرًا للداخلية بدلًا منه، إذا كان مصرًّا على ما ينوي أن يفعله يجب أن تكون بدايته مع عمر نفادي، لن يجد من يفضح محسن سالم إلا من في قوته ومن تقتضي مصلحته إزاحته من الوزارة؛ لأنه بالتأكيد يريد أن يتغدى به قبل أن يتعشى هو به.. وهذه هي الخلاصة.

تركت له الخطاب دون أن أضع اسمي عليه مع عم عباس الذي

كان جالسًا يبكي وهو يخبرني أن ميلاد قُتل ويقول إنه كان طيبًا، هذا الرجل الذي كان كل ما كان يفعله ويحكيه لي المرحوم يؤكد أنه كان يكره ميلاد.. يبكي الآن بكل هذه الحرقة عليه، هل رأيتم جنونًا أكثر من ذلك؟ ربما لو قابلت المرحوم لأخبرني الآن أنه استخرج جثة ميلاد، وأن علينا أن نبحث عمن قتله.. سحبت الخطاب من يد عباس مرة أخرى، خفت أن يفتحه أو يعطيه لأي شخص آخر فتكون مصيبة، دخلت إلى المشرحة، وجدت المرحوم أمامي.. أعطيته الخطاب دون أن أقول له حرفًا واحدًا.. قبل أن أغادر المشرحة وجدت نفسي ألتفت إليه، كنت أريد أن أنظر إليه جيدا؛ فأنا أعرف أنني لن أراه مرة أخرى.

العلامة التاسعة عشرة

الملك

أجد أنني لا بد في هذه العلامة أن أقولها صراحة.. يُلعن أبو الأمن الذي يصنع على حساب البشر، ويلعن أبو الدولة التي تقوم على جثث ميلاد وعمار، ويلعن أبو كل من يصنع رجالًا من أمثال أشرف البشلاوي وفؤاد ومحمود وينهي الحكاية كما انتهت، محمود الآن أصبح في نظري مثلهم.. أعطاني الخطاب وجرى عندما وجد أنه سيدخل في الجد!! جبان.. خيبة أملي فيه لا تقل عن خيبة أملي في محروس!! لا أذكر تحديدًا ترتيب الأحداث بعد لقائي أنا وهو وأشرف البشلاوي.. الأيام أصبحت أكثر قسوة، اكتشفت أن الحياة ميتًا في المقابر أفضل مائة مرة من الحياة في الغابة كما أطلق عليها عباس الذي اتضحت لي حكمته المختبئة خلف جسده الضخم وبلاهته وشراهته، كل الأدوار مقيتة في الغابة.. الله يمسيك بالخير يا محروس، لا يعجبني دور النعجة ولا دور الضبع ولا دور الذئب ولا دور الحمار ولا الخروف ولا الأسد الذي بالتأكيد ليس ملكًا

للغابة كما كانوا يقولون لنا في المدرسة، مجرد حيوان.. أي ملك هذا الذي يأكل رعيته؟ ما الذي تميز به ليصبح ملكا؟ هل السر في قوته أم سرعته أم أنه يجيد مضاجعة اللبؤة أم أنه يحترف أكل الرعية دون أن يشعروا؟ اللعنة على كل حيوانات الغابة، محمود وأشرف البشلاوي وسميحة وأحمد عمار ومحسن سالم وزوجة محسن سالم ومن طالبوا بقتل أحمد عمار، فؤاد وميلاد وخليل وتريزا، والميت المزمن الذي هو أنا.. اللعنة على الحيوانات التي تأكل والحيوانات التي تؤكل واللعنة ألف لعنة على الفيل والخرتيت وأمثالهم من الحيوانات كبيرة الحجم والقوة قليلة الحيلة والحركة والتي لا أعرف دورها الحقيقي سوى أنها مجرد استكمال لصورة الغابة الممتلئة، لكن هل الموت أفضل لي؟ لا بل الحياة، أن يتحول كل الموتى إلى صيادين ليفرغوا الغابة من كل الحيوانات الخبيثة.. فنحن أحق بالغابة الشاسعة منهم جميعًا لأنهم مجرد حيوانات.

أمسكت خطاب محمود في يدي وابتسمت ساخرًا في حزن، أعطاه لي وهو ينظر في عينيَّ معتذرًا ثم اختفى كما اختفى محروس، لم يعد أمامي وحولي سوى الموتى وفرحة، لم أره من يومها، أنا وحيد في عالمي الذي لم يعش فيه أحد سواي مهما حاولت؛ محروس اختفى لأنه اعتاد حياة الشوارع، ومحمود اختفى لأنه اعتاد حياة المتفرجين.. إنه مجرد واحد من أصحاب الأدوار الثانية والذين يفزعون من فكرة أداء دور البطولة، الكثيرون يهتفون ضد الظلم عندما يكونون في مقاعد المتفرجين، ويتظاهرون بالخرس إذا طلبت منهم كلمة واحدة يقولونها في وجه الباطل، أتفهم موقفه جيدًا، أنا أيضًا كنت خائفًا.. رغم أنني لا أملك ما أخاف عليه.. أما هو فقد كان لديه الكثير ليخاف

عليه، نظرت إلى السطر الأخير واسترجعت الاسم جيدًا (عمر نفادي) مدير أمن القاهرة، ماشي يا عم محمود.. تشكر.

في الصباح كنت أمشي في تردد وبطء ممسكًا بمظروف كبير إلى أن وصلت إلى العنوان المكتوب في الجريدة التي في يدي، وقفت أنظر إلى المبنى الضخم واللافتة الكبيرة الموجودة على واجهته (جريدة الحقيقة) اقتربت من رجال الأمن في تردد.. قلت بصوت خافت:

ـ أريد مقابلة الأستاذ مرتضى بدوي من فضلك.

تفحصني رجل الأمن.. أجاب بهدوء من اعتاد مثل هذا الموقف:

ـ هل لديك موعد؟

هززت رأسي نافيًا وأنا أقول:

ـ لا.. لكن عندي موضوع هام أريد أن أتكلم معه فيه.

أمسك الرجل بسماعة الهاتف الموضوع أمامه، تكلم فيه للحظات.. أشار بعدها إليَّ لأدخل:

ـ اتفضل.. الدور الرابع.

ابتسمت وأنا أتلفت حولي في مدخل المبنى، صور عشرات الكُتاب والصحفيين الكبار الذين طالما قرأت عنهم ولهم، اتسعت ابتسامتي أكثر عندما وقعت عيناي على شعار الجريدة المعلق في لافتة ضخمة:

«الحقيقة شمس لا تخفى».

شعرت بالتفاؤل.. كنت أظن أن لقاء الأستاذ مرتضى سيكون

أصعب من ذلك كثيرًا، طالما سمعته وهو يتكلم بلهجته الصعيدية التي كانت محببة إلى قلبي في الراديو الذي كان يؤنس ليلي في المقابر وفي المشرحة، فصاحته وقوة بيانه جعلته من أشهر الصحفيين في مصر، المعروف عنه أنه لا يخاف.. أتذكر جيدًا عندما شن حملته الموسعة على وزير المواصلات بعد انقلاب أحد قطارات الصعيد، وعلى وزير الخارجية الذي اتهمه بالعمالة، وعلى وزير الثقافة الذي اتهمه بالجهل، كانت مواقفه أكثر من أن تحصي في دقائق.. لكنني كنت أعرف جيدًا أن حملات مرتضى بدوي تنتهي دائمًا بإقالة الوزير، بل وأحيانًا بحبسه؛ لذلك وجدت فيه الأمل لمهمتي الجديدة، فكرت للحظات أن أغير خطتي وأكتفي بالمظروف الذي سأسلمه له وأبتعد عن طريق نفادي، لكن همست لنفسي.. «زيادة الخير خيرين».

توقفت أمام باب مكتبه.. دخلت أتعثر في خطواتي، كان المكان شاسعًا.. عشرات الجالسين يحملون أوراقًا ويطلبون اللقاء، اقتربت من الشابة الحسناء الجالسة على المكتب وقلت في بطء:

- صباح الخير.

ابتسمَتْ في ود وهي تجيب:

- صباح النور.

خرج صوتي مرتعشًا:

- كنت أريد مقابلة الأستاذ مرتضى.

- بخصوص؟

أجبتها بتوتر:

- عندي موضوع هام أريد أن أطلعه عليه.

أجابت بشفقة:

- كل هؤلاء عندهم مواضيع هامة يريدون أن يقابلوه من أجلها، لكن الأستاذ مشغول.. اشرح لي الموضوع وأنا سأخبره.

هززت رأسي في عناد وأنا أقول:

- لن أتكلم مع أحد سواه.

نظرَت إليَّ للحظات:

- أخبرني بطبيعة الموضوع وأنا سأبلغه وهو سيحدد إذا كان سيرضى بمقابلتك أم لا.

فكرت قليلًا ثم ملت عليها قائلًا بصوت هامس:

- الموضوع يخص أحد الوزراء.عندي أوراق هامة أريده أن يطلع عليها.

أشارت إليَّ لأجلس، غابت داخل المكتب لدقائق ثم عادت.

- ثواني وسيخرج إليك.

ظللت جالسًا أهز ساقي قلقا، كنت أحاول مراجعة كلماتي التي ستخرج مني شارحة الأمر، قررت أن أترك له الورق دون أن أخبره بأية تفاصيل، لكنني كنت أريده أن يتسلم الورق يدًا بيد، لا أستطيع أن أضمن أي يد ستصلها هذه الأوراق قبل مرتضى بدوي.. والأمر لا يحتمل المخاطرة.

خرج الرجل من مكتبه وعلى وجهه ابتسامة ودود، تجمَّع حوله كل من كانوا يجلسون.. لم ينهر أحدًا منهم بل بدت عليه المودة للجميع وهو يقول باهتمام:

ـ كل ما تريدونه سأفعله.. اتركوا الأوراق مع الأستاذة منار وأنا سأقرأ ما فيها.

ظللت جالسًا إلى أن التفت مرتضى إلى سكرتيرته فأشارت بيدها ناحيتي، فأشار هو إليَّ وخرجنا إلى الطرقة المؤدية إلى المكتب.

ـ خير؟

قالها بهدوء.

تلفت حولي ثم قلت هامسًا:

ـ أريدك أن تقرأ هذه الأوراق.. ثم افعل فيها ما تراه مناسبًا.

فتح مرتضى المظروف.. بدأ يقلب فيها وهو يسأل:

ـ مذكرات من هذه؟

هززت كتفي في بساطة:

ـ مذكرات ضابط سابق.. اسمه أشرف البشلاوي.

رفع مرتضى عينين متسعتين وهو يسأل بدهشة:

ـ أشرف البشلاوي.. ضابط أمن الدولة؟

اندهشت متفائلًا وأنا أجيب:

ـ حضرتك تعرفه؟

هز مرتضى رأسه:

ـ طبعًا أعرفه.. كيف وصَلَت إليك؟

ترددت قليلًا.. أجبت بعد لحظات:

ـ أنا سائقه.. أعطاني هذه الأوراق قبل أن يُقتل بيومين.

بدا على الرجل الاهتمام وهو يقلب في الأوراق:

ـ هل قرأتها؟

هززت رأسي نافيًا:

ـ أنا لا أجيد القراءة والكتابة يا أستاذ.. لكن هو أخبرني أن فيها كلامًا هامًّا جدًّا. وطلب مني توزيعها على الجرائد إذا حدث له شيء.

هز رأسه في تفهم:

ـ أكيد أكيد.. لكن كيف يمكن أن أتأكد أن هذه الأوراق تخص أشرف البشلاوي.. سامحني يا ولدي لكنني لن أصدق كل من يأتي إلى مكتبي ليخبرني أن هذه الأوراق تخص فلانًا أو علانًا.

ابتسمت وأنا أجيب:

ـ حضرتك ستقرأ ما فيها وتتأكد بمعرفتك مما كتب، أنا دوري سينتهي بتسليم الأصول والأشياء التي كانت مع الأوراق في الحقيبة إليك وأنت عليك الباقي.

نظر إليّ مرتضى باهتمام وهو يسأل:

- هل يوجد أشياء أخرى أيضًا؟

أجبت على الفور:

- أسطوانات كمبيوتر يا أستاذ.. وصور وشريحة محمول، وسلاحه الميري.

- معك هذه الأشياء؟

تعمدت أن أجيب في بلاهة:

- عندي في البيت.. لكن أشرف باشا قال لي أن أدور بنسخ على كل الجرائد، ومن ينشر الموضوع سأعطيه هذه الأشياء.

اقترب مني مرتضى، وضع يده على كتفي وهو يقول بصوت خافت:

- خلاص.. اترك لي هذه الأوراق، أنا سأقرؤها وأحدد إذا كانت تستحق النشر أم لا، هل أعطيتها لصحفيين آخرين؟

هززت رأسي نافيًا:

- حضرتك أول واحد.. لكني سأذهب الآن إلى الباقين.

عاجلني:

- لا.. لا.. اترك رقم تليفونك وأنا سأتصل بك غدًا أو بعد غد على الأكثر، إذا كان هناك ما يستحق النشر سأخبرك.

أجبت بهدوء:

- سعادتك أنا لا أملك تليفونًا.. أنا سأتصل بك بعد يومين.. ممكن آخذ رقمك.

أخرج من جيبه بطاقة صغيرة.. كتب على ظهرها رقمًا وهو يقول:

- هذا هو رقمي الشخصي.. سأنتظر منك اتصالًا.

انطلقت بعدها سائرًا في اتجاه مديرية الأمن التي تبعد خمس دقائق بالتحديد من الجريدة، خطوات رسالتي الأخيرة تنتهي بحكاية أشرف، أنا أيضًا اكتفيت.. سأذهب إلى فرحة وأختفي معها إلى الأبد، كنت قد قررت أن أترك المظروف الآخر عند العساكر في الخارج، لكن عندما رأيت ذلك الولد الصغير الذي كان يبيع غزل البنات غيرت رأيي، أعطيته خمسة جنيهات وطلبت منه أن يعطي الأوراق لأمين الشرطة في خارج المديرية، كتبت على المظروف بخط كبير «عناية اللواء عمر نفادي».. مرتضى قد يخاف أو قد يكون أعجز من أن يفعل أي شيء، أما عمر نفادي فمصلحته وثأره ومنصبه قد يجعلانه يفعل أكثر بكثير مما سيفعل مرتضى.

العلامة العشرون

الصحفي

قضيت اليومين التاليين في ترقب وانتظار، كنت أسخر من نفسي وأنا أشتري الجرائد الصباحية والمسائية بحثًا عن خبر يخص محسن سالم؛ رغم أنني أعرف أن الموضوع سيحتاج وقتًا طويلًا، زرت فرحة عند المعلم إمام، وجدتها في منتهى السعادة والاطمئنان، أخبر هو الجميع أنها من أقاربه فأصبحت تعامَل باحترام وهيبة لم تعرفهما من قبل، لم يعجبني استمتاعها بكونها قريبة المعلم، لكني غادرت مرتاحا لما رأيته.

في اليوم الثالث ذهبت إلى الكشك الموجود في منتصف الكلية وضربت الرقم الذي أعطاه لي الصحفي وقلبي يدق بصوت عالٍ:

ـ أيوه.

ـ أستاذ مرتضى؟

ـ أيوة.. من معي؟

- أنا الذي أحضرت لك مذكرات أشرف البشلاوي.

- آه.. أهلًا.. أنا منتظر مكالمتك، أنا قرأت الأوراق.. سأحتاج إلى باقي الأشياء من أجل النشر.. متى سأراك؟

- لا حضرتك.. انشر تنويهًا عن النشر وأنا سأرسل لك كل شيء.

- يابني لا أستطيع أن أنوه عن شيء إلا إذا أريتني أنت ما يثبت المكتوب، الكلام خطير وإذا لم يثبت ستكون نهايتي ونهاية الجريدة، ولعلمك أشرف البشلاوي لم يكن لديه سائق.. أنت لست صريحًا.

- لا يهم كيف وصلتني الأوراق، على العموم أنا سأرسل لك نسخة مما عندي وأنتظر ردك.

بدا على صوته الغضب:

- الكلام في التليفون لن ينفع.. الموضوع مهم ومحتاجين نقول تفاصيل، تعال غدًا لأني أريد أن أسألك عن بعض الأشياء، وإذا عملنا قصة جيدة سيكون لك عندي مكافأة تستحق التعب.

فكرت قليلا ثم أجبت:

- حاضر.. اتفقنا.

- سأنتظرك.

أغلقت الهاتف شاعرًا بشيء من الراحة، دفعت لصاحب «الكشك» مقابل المكالمة وسرت ببطء في اتجاه المشرحة، جلست على سُلمها الخارجي.. فكرت أنني لا بد أن أرسل إليه بعض الأشياء الموجودة

في الحقيبة ليطمئن، أتفهم خوفه جيدا، رجل مثل هذا لا بد أن يكون مستهدفا من كل أصحاب المراكز أمثال محسن سالم. من حقه أن يتأكد، ما الذي سأرسله له؟ الصور أم السلاح الميري؟ لا أعرف ما الذي تحويه الأسطوانات ولا أملك جهازا. أين محمود الجبان الآن؟ كان سيمكنني بسهولة أن أعطيها له ليخبرني بما تحتويه.. محمود رحل، لن يقترب مني مرة أخرى، سيأتي إلى الامتحانات دون أن يفكر في المرور عليَّ، بل على الأغلب سيتجنب أن يمر. نظرة عينيه في اللقاء الأخير عندما استدار ليتفحصني كانت نظرة وداع صريحة. أردت أن آخذه في حضني مودعا.. أنا أحببته بالفعل، وسأفقده كما فقدت كل من أحببتهم من قبل.نصيب.

كم مر عليَّ منذ أنهيت المكالمة؟ لا أذكر لكنها دقائق، بعدها رأيت مشهدًا لم أره في حياتي من قبل؛ ثلاث سيارات سوداء ضخمة مليئة بالرجال الذين يرتدون ملابس مدنية.. تبعتها بعد دقائق سيارة بوكس شرطة، كانوا يمشون بسرعة غير معتادة في داخل شوارع الكلية مما أثار فزع الجميع والطلبة يوسعون الطريق في خوف، انطلقوا إلى «الكشك» الذي اتصلت منه.. قلبوه رأسًا على عقب، وقفت أراقب ما يحدث وسط الطلبة، رأيت البائع يتكلم مع الضابط في خوف وهو يشير إلى المشرحة.. فهمت كل شيء، غمغمت في غضب:

- فعلها مرتضى الكلب.

انطلقت سائرًا بسرعة بين الطلبة الذين يملئون الطريق، لم أجر لكيلا ألفت نظر أحد، اتجهت نحو المستشفى من الباب المطل على الكلية، مشيت في طرقاتها التي أعرفها جيدًا وخرجت من باب

الطوارئ المطل على الجهة الأخرى، أشرت إلى سائق تاكسي وقفزت فيه بخوف.. كنت أحدق في الطريق وهو يجري إلى جوار نافذتي وأنا أرتجف، إذًا فقد وَشَى بي مرتضى بدوي.. الصحفي الشريف لم يكن شريفًا بما يكفي لنشر الموضوع، ولم يكن شريفًا بما يكفي ليتناسى الموضوع ويتركني أفعل فيه ما أريد وأتحمل ما سيأتي، بل باعني ليشتري رضا سيادة الوزير، ترى كم من الناس باعهم مرتضى قبل ذلك؟ الآن تتسع دائرة الرؤية، سلسلة الخونة طويلة وغير معروفة وخروجك من يد أحدهم سيؤدي بك إلى يد الآخر.. الحقيقة واضحة والرائحة تملأ أنفي، عالم الأحياء أكثر تعفنًا ألف مرة من عالم الموتى.

محمود سلمان

لم أستطع أن أتناسى حكاية المرحوم رغم كل محاولاتي، أتخيله لا زال يفكر ويخطط ويحاول ويفشل، كنت متأكدًا أن خطابي أثناه عن صراعه المزعوم مع وزير الداخلية أو أثناه كف على وجهه من مخبر أو أمين شرطة، ما حدث كان يفوق توقعاتي كثيرًا، جاءني أبي في يوم وألقى جريدته أمامي وهو يقول بلامبالاة:

ـ وزير الداخلية في مصر تغير.

سألته في حيرة:

ـ أصبح عمر نفادي؟

رفع حاجبيه في دهشة وهو يسألني:

ـ كيف عرفت؟

ضحكت ملء فمي وأنا أقول ساخرًا:

ـ أحد أصحابي قال لي ذلك قبل أن آتي مباشرة.

هز أبي رأسه في إعجاب، ضحكت أكثر.

فعلها المرحوم؛ نجح عامل المشرحة في تغيير وزير داخلية مصر، كان على حق، هذه الأوراق لم تقع في يده عن طريق الصدفة، كان لا بد أن تقع في يد مجنون مثله ليلقى محسن سالم جزاءه، سلط الله عليه المرحوم شخصيا.. أخذت أضحك سعيدا وساخرا، أمسكت الجريدة في لهفة.. قرأت الخبر.. ماتت ضحكاتي وأنا أغمغم مذهولًا:

ـ يا نهار أسود!

محسن سالم أصبح محافظًا للقاهرة.. صدفة أم مؤامرة؟

تفاصيل الخبر توضح كل شيء؛ محسن سالم اعتذر عن منصبه في الداخلية ورشح «بنفسه» عمر نفادي، وخبرته وكفاءته جعلت من هم أعلى يختارونه محافظًا للقاهرة، إذن فقد وصلت الرسالة.. لا أحد يخسر في لعبة الباطل عندما تكون الحلقة مغلقة، اشتعل في داخلي الفضول.. ما الذي حدث للمرحوم؟ إذا صدق ظني فلا بد أن يكون الآن مرحومًا بالفعل، أو على أقل تقدير معتقلًا، غبي، لماذا ظن أنه بالقوة الكافية ليفعل ما فعل.. لا بد أنه هو من يلقى الآن جزاءه!

سؤال واحد ألح عليَّ في كل ليلة من الليالي الباقية حتى عودتي إلى مصر.. هل جرني المرحوم معه أم لا؟ أنا لم أفعل شيئًا.. لكن في مثل هذه الأمور لا يهم من فعل.. المهم من عرف، سأعرف عندما أعود.. من المستحيل أن أترك خلفي مستقبلي بناء على شك، وحتى إذا وشى بي المرحوم فلن يصدقوه ويكذبوني، لا مفر من عودتي سريعا فامتحانات التقييم بعد أسبوع واحد.

لا زلت أذكر كل الكوابيس التي توالت على ذهني إلى أن وصلت إلى مصر، لم يكن من ضمنها ما حدث؛ فاسمي أنا.. أنا العبد الفقير المسالم كان على قوائم ترقب الوصول في المطار، وجدت نفسي مصحوبًا بضابط إلى حيث لم أكن أعرف، وضعوا عصابة سوداء على عينيَّ، لكن ما رأيته في عينيَّ المغلقتين كان أكثر سوادًا، وضعوني في سيارة لها رائحة الجلد الجديد، أنيقة غالبا، دخان سجائر وصمت تام.. الطريق كان طويلا جدا، أو ربما هذا ما شعرت به أنا، كل ما تمنيته أن يسمحوا لي بأن أخبر أبي وأمي بمكاني وبأنني حي إذا كانوا ينوون الإبقاء عليَّ طويلًا. توقفت السيارة، أخرجوني منها بدون خشونة ولا إهانة وقادوني من يدي.

بعد دقائق كنت جالسًا في مكان ما أمام شخص ما وعيناي معصوبتان.. جلست في توتر، لم يضربوني ولا ربطوني ولا أشعلوا النار في جسدي. لكنهم تركوني لمدة طويلة. لم يقترب مني أحد، كان ذلك كافيا لأنهار تمامًا، حاولت التماسك.. جاءني أخيرًا السؤال المعتاد:

ـ اسمك وسنك وعنوانك؟

سألت في خوف حقيقي:

ـ هل أنا متهم بشيء ما؟

أجاب بحزم:

ـ اسمع يا دكتور.. أنت في تحقيق أمن دولة؛ يعني الأمر لا يحتمل شغل الأفلام العربي، ترد على أسئلتي دون لف ودوران، أنت لست متهمًا بشيء.. لكني لا أحتاج إلى أن أتهمك لأعتقلك

الآن بتهمة التآمر على نظام الحكم.. أنت شاب محترم لكن الموضوع خطير.

أجبت بصوت مبحوح:

- أي موضوع يا فندم؟ ليس بيني وبين نظام الحكم أية مواضيع، ليس لي في السياسة ولا في أي شيء مما يغضبكم.

تنهد الضابط بارتياح:

- برافو.. إذن أنت فاهم.

هززت رأسي نافيًا:

- لا حضرتك أنا لو فاهم كنت أقلق، أنا لا أفهم فيما تفهمون فيه.. أنا حتى لا أعرف لماذا أنا هنا.

كرر بلهجة أكثر صرامة:

- نبدأ من الأول، اسمك وسنك وعنوانك؟

أجبت بتنهيدة طويلة:

- محمود أحمد سلمان.. ٢٣ سنة، طالب طب، مقيم في ٢٧ شارع إيران بالدقي.

شعرت بفمه بجوار أذني:

- نقول من الآخر.. هل كنت دائم التردد على المشرحة؟

- أي مشرحة؟

وضع يده الثقيلة على رأسي وهو يقول بغضب:

- مشرحة الكلية يا دكتور.

هززت رأسي مؤمِّنًا:

- يا فندم أي طبيب لا بد أن يتردد على المشرحة، أنا طالب في البكالوريوس؛ وبالتالي لا بد أن أذهب إليها مرتين أسبوعيًّا.

قاطعني ويده تزداد ثقلا:

- لكن أنت كانت لك علاقة خاصة بأحد عمال المشرحة؟

أجبته في حيرة:

- لا أعرف معنى علاقة خاصة!

- لأ يا دكتور.. لا تفهم قصدي خطأ لا سمح الله، لا أعني علاقة مثل علاقات أحمد عمار.

أجبته على الفور:

- من أحمد عمار؟

تجاهلني تمامًا ثم واصل:

- عباس كبير العمال شهد بأنك كنت مقربًا لواحد منهم، ممكن تخبرني بطبيعة العلاقة التي تجمع بين طالب في الكلية وعامل في المشرحة؟

عرفت أنه لا مجال لإنكار الأمر برمته.. وعرفت أيضًا أن المرحوم

لم يقل عني شيئًا؛ وإلا لما احتاج الضابط أن يقول لي إن عباس هو الذي أخبره، بدأت ثقتي تزداد وأنا أجيب:

- مضبوط يا فندم.. لكنها كانت علاقة عمل.

- بمعنى؟

- بمعنى أنني رئيس تحرير مجلة الكلية.. ولي نشاط أدبي معروف، حصلت على أكثر من جائزة في مسابقات الجامعة، والحقيقة أنني كنت أكتب في المجلة سلسلة عن حكايات عامل في المشرحة، وهذا العامل بالتحديد كان غريب الأطوار.. وأنا كنت أكتب حكايته في فصول.. لهذا كنت أجلس معه من باب تجميع المادة التي أكتبها.

أخذ نفسًا من سيجارته ونفخه في وجهي:

- مفهوم.. مفهوم.. احكِ لي حكايته.

قلت في تأكيد:

- باختصار يا فندم.. مجنون، بين حياته في المشرحة وحياته في المقابر وذكائه الفطري وثقافته التي تفوق إمكانياته كان لا بد أن يجن.. كل حكاياته عجيبة لا تصدق، إلا أن إيمانه بما يقول يجعلك تصدقه أحيانًا ثم تعود فتفكر، فتجد أنك مجنون إذا صدقته؛ لذلك توقفت عن لقائه.

- إممم.. إذن فقد كان يحكي لك كل شيء؟

أجبته على الفور:

- لا أعرف.. حكاياته مزيج من الواقع والخيال؛ لذلك لم أكن أصدقه لكني كنت دائمًا آخذ من حكاياته لقصصي، ممكن حضرتك ساعة واحدة أحضر لك كل ما كتبته لتعرف ما كان يحكيه لي.

رفع يده من على رأسي، ربت على كتفي وهو يقول بهدوء:

- احكِ لي ما كان يحكيه لك.

أخذت أحكي.. حكاية محروس والعجوز والبحر وصالح الإسناوي، لم يقاطعني مرة واحدة، بدا لي مستمتعا ومتفاعلا فجعلني أحكي أكثر. ابتعدت عن موضوع سميحة وفرحة وطبعًا أشرف.. أنهيت كلامي قائلًا:

- صدقني يا فندم أنا لا أعرف أي شيء عن هذا الشخص.. الموضوع كان مجرد عمل بالنسبة لي.

أطلق زفرة طويلة ثم أجاب:

- أنا أصدقك.. لم أجد من يخبرني أي شيء عن ابن العفاريت الذي أبحث عنه، أشعر أنني أحقق بحثًا عن شبح.. حتى اسمه الحقيقي لا أحد يستطيع أن يؤكده.

كدت أبتسم.. فعلها ابن الجنية واختفى قبل أن يعثروا عليه..

أجبت بثقة:

- أما هذه فأنا أعرفها.. اسمه ليس المرحوم، اسمه الحقيقي عبد الحي.. عبد الحي حنفي، وأبوه كان يعمل في ترب البساتين.

ضحك ساخرًا بطريقة مستفزة.. ثم خرجت كلماته دفعة واحدة:

- كلهم قالوا ذلك.. لكنه ليس صحيحًا، عبد الحي حنفي عبد الموجود السيد.. الشهير بالمرحوم، ابن عم حنفي التربي، مات منذ ما يقرب من خمسة أشهر، في اليوم نفسه الذي ماتت فيه زوجته.. ودفن في مقابر الصدقة وهذه شهادة وفاته.

أمسك بيدي ووضع فيها ورقة سميكة مررت أصابعي عليها كما لو كنت أقرؤها بطريقة (برايل)، هممت بسؤال ما.. ضحك الضابط وهو يسبقني قبل أن يتكلم:

- أكيد لن تسألني إذا كانت هذه الشهادة صحيحة أم لا.

سألته في ذهول:

- يعني المرحوم.. مرحوم فعلا؟!

واصل سخريته:

- بالضبط.. ابن العفاريت الذي خدعكم جميعًا ليس هو المرحوم، يعني إما أنكم جميعًا مغفلون أو أنكم تتحدثون عن شبح.

- حضرتك متأكد؟

- متأكد يا سيدي.. غالبًا من تتكلمون عنه هو سعيد عبد السلام عبد المقصود جار عبد الحي في الترب، هو الذي انتحل شخصية صديقه وزوج سميحة أخته واختفى تمامًا في اليوم الذي ماتت فيه سميحة وزوجها عبد الحي صديقه، وهناك شبهة جنائية في أنه قتله.

- وقتل أخته أيضًا؟

- لأ.. سميحة ماتت بنزيف حاد وهبوط في الدورة الدموية، وجدنا جسدها في المقبرة نفسها مفرغًا من الأحشاء ومحقونًا بالفورمالين لذلك لم تتحلل، الذي تحلل هو جسد عبد الحي.. وجدناه مدفونًا في مقبرة أخرى هناك كسر في الجمجمة نتيجة الاصطدام بجسم صلب.. غالبًا حجر، ممكن يكون هو سبب الوفاة.

لم أعلق.. ظل هو أيضًا صامتًا، سألني بعد لحظات:

- تقدر تقول أي شيء يفيدني؟

فكرت للحظة أن أخبره عن فرحة لكنني تراجعت، قررت أن أبتعد عن أي فكرة قد تجعلني جزءًا من هذه المصيبة فهززت رأسي نافيًا..

وضع يده على كتفي مرة أخرى وهو يقول:

- سأتركك ترحل الآن.. لكن كل ما أريدك أن تعرفه أن صاحبك كان نصابًا وكان قاتلًا، لا تصدق أي شيء قاله لك، ولو عرفت أي معلومات جديدة عنه يجب أن تبلغنا فورًا، عندكم في الكلية أمين شرطة اسمه فؤاد. أبلغه وهو سيخبرنا بكل شيء. وإذا كان عندك قديم.. انسه.. انسه تمامًا.. مفهوم؟ أنت في عمر أخي الأصغر ولا أريد لك أذى أو ضررًا.. حافظ على مستقبلك يا دكتور.

هززت رأسي في تأكيد:

- مفهوم يا فندم.

سحبوني مرة أخرى دون أن يرفعوا الغطاء عن عيني. هذا أفضل فأمامي الكثير لأراه في طريق العودة. غرقت في الصمت وأنا أتذكر كل

ما حدث.. برافو المرحوم.. أو سعيد أو الجن الأزرق. بعد كل هذه الشهور التي شغلني فيها تماما وجعلني أدور خلفه أكتشف أنه شخص آخر غير الذي كنت أتعامل معه. ربما لم يكن شخصا آخر بالمعنى المفهوم لكنه كان يظن نفسه آخر وجعلني أنا والجميع نظنه آخر!! ربما لا يكون هذا صحيحا ويكون الضابط مخطئا ويكون المرحوم هو المرحوم لكنه خدعهم جميعا وجعلهم يظنون أنه المرحوم سعيد بينما في الحقيقة هو المرحوم عبد الحي!!

ابتسمت ساخرًا وأنا أهز رأسي في حسرة عندما شعرت أنني فقدت قدرتي على تجميع الكلمات، أضع يدي على رأسي كما لو كنت أعصرها لأعرف الحقيقة. لا أصدق أن الحكاية الوحيدة التي عشتها بنفسي سأحرم من قراءة آخر صفحاتها.. حاولت أن أهدأ قليلا. أمامي اسمان لا ثالث لهما: المرحوم وسعيد.. إذا كان المرحوم فهو غالبا مصاب بمرض عقلي يجعله يتصور أنه ارتدى أجساد الآخرين (وأنا رأيته بعينيَّ في جسده وهو يظن أنه في جسد أشرف).. الحقيقة أن هذا الاحتمال هو الاحتمال الأسهل.. وفي هذه الحالة يكون الضابط قد استخرج شهادة الوفاة واختلق تلك القصة لتنتهي وتدفن معه إلى الأبد. قتلوه كما قتلوا عمار والبشلاوي.. لم أعد أثق فيهم. فالمرحوم ليس أهم من كل من يقتلون ولكنه أكثر إزعاجا.. الحقيقة أن هذا هو أفضل السيناريوهات وأبسطها وأكثرها تقبلا بالنسبة لي. ينقلب الأمر تماما إذا كان ذلك الشخص هو سعيد كما قال الضابط. فلو أنه كان يتظاهر أنه المرحوم فهو إما قاتل انتحل شخصية أخرى وإما تظاهر بالجنون ليهرب بما فعله. قد يكون مجنونا (كما أوشكت أنا على الجنون) أو ملبوسا بروح المرحوم بالفعل!! احتمال أحمق من التفكير فيه..

لا أصدق أنني أفكر في حل اللغز الآن وأنا في هذه السيارة بعد أن خرجت بأعجوبة من مصيبة، غالبا أصبحت مثله. أفتش عن المصائب في كل مكان. من يدلني على الحقيقة؟ اثنان فقط ممن ذكرهما يعرفان المرحوم وسعيد؛ صادق و فرحة، خبطت جبهتي بكفي وأنا أهمس:

ـ فرحة هي الحل.

يأتيني صوت واحد ممن في السيارة:

ـ يا بني استهدَ بالله.. أنت لم تكمل يوما واحدا. احمد ربنا.

أنتبه على صوته فأجيب:

ـ الحمد لله.

فرحة كانت تعرف من هو. لذلك طلبت منه أن يتزوجها. لم تكن مجنونة ولا منحرفة. كانت تعرف أنه ليس المرحوم.. سميحة وفرحة!! لهذا كان دائما يخلط في حديثه بينهما. وكان الأمر يختلط عليَّ، الأكيد أيضا أن هذا المرحوم لم يكن مجرما يهرب بادعائه أنه شخص آخر، من المستحيل أن يلقي بنفسه في مصيبة مثل التي وضعتني في سيارة أمن الدولة الآن إذا كان يريد أن يتخفى. إذن المرحوم ليس المرحوم ولكنه يظن نفسه المرحوم، أو هو روح المرحوم بالفعل.. الحكاية تبدأ مرة أخرى. تفلت مني ضحكة فيأتي الصوت مشفقا:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. أتجاهله هذه المرة. ليتني أستطيع أن آخذ بياناته هو أيضا ليحكي لي عن أحوال كل من ركبوا هذه السيارة ذهابا وعودة والفارق بين الحالتين. صوته يؤكد أنه اعتاد

على أن يعود بعضهم بلا عقل. حكاية جديدة مدهشة! رجل سيارة أمن الدولة.. إذا كنت أنا لن أتوقف عن الجري وراء الحكايات إذن لن يتوقف المرحوم عن جنونه، غالبا، سيكون الآن في مقابر أخرى ينتظر أن يلتقي بزوّارها أحياء ثم أمواتا ليبدأ معهم رسالته!! ترى هل سيبحث عني مرة أخرى؟ السؤال الأهم الذي أوقف كل ضحكاتي: هل أنا مكلف باستكمال ما لم يستكمله المرحوم وبفضح ما عرفته بشكل أو بآخر أم أن عليَّ الصمت؟

مع كل هزة من هزات السيارة كنت أتذكر ما يؤكد لي أن المرحوم لم يكن يخدعني. من أول لقاء قال لي فيه إنه روح حرة تتقاسمها الأجساد، وإنه عالق بين الأحياء والموتى. أتذكر حكاية السمكة وأتذكره عندما رأى صورته في الكاميرا لأول مرة، كيف لم أفهم أنه لم يتعرف على نفسه؟ ظل يتفحص الصورة عدة مرات ثم قال ببساطة:

- والله زمان.

لم يكن المرحوم يرى نفسه كما نراه. كان يرى نفسه شخصا آخر غالبا هو المرحوم الحقيقي.. تماما كما حدث بيني وبينه عندما كان يرى نفسه أشرف البشلاوي وأنا أراه المرحوم. الأمر واضح؛ هذا الشخص يظن أنه يرتدي جسدا فيرى نفسه فيه. كل الأجساد التي تحدَّث عنها بداية من سميحة ومرورا بصالح الإسناوي وأشرف كانت تمثل له جسدا جديدا، بينما هو في الحقيقة طوال الوقت يرتدي جسدا لا يخصه. جسده الحقيقي دفن في الأرض، شهادة

الوفاة تؤكد ذلك والتفاصيل التي كان يحكيها عن طفولته، وفرحة التي لا تزال تتبعه تؤكد أنه كان قريبا من المرحوم ومن فرحة ومن سميحة.. غالبا هو سعيد بالفعل.

أفقت على فرملة قاسية. فكوا عينيَّ، أنزلوني وطلبوا مني أن آتي بكل الأوراق التي كتبتها عن المرحوم، لم أكن قد كتبت ولا سجلت شيئًا يخص القصة الأخيرة لذلك لم أكن قلقًا، مشيت على مهل.. لمحت صندوق الأسلاك الكبير وقد أغلق بقفل كبير لامع، نظرت إليه في حيرة دون أن أكترث.. دخلت إلى العمارة، اندهشت عندما وجدت مسمارًا رفيعًا مدقوقًا على باب الشقة معلقًا عليه مفتاح متوسط الحجم لقفل، لم أحتج إلى أن أفكر كثيرًا فيمن وضعه، نزلت إلى الشارع وسلمتهم الأوراق، درت حول البيت عدة مرات لأتأكد ألا أحد يراقبني، وقفت أمام الصندوق وأمسكت بالقفل.. أدرت فيه المفتاح.. انفتح فسقطت أمامي عشرات الأوراق المكتوبة باليد بخط أنيق إلى حد كبير، وبأقلام ألوانها متنوعة، على الجوانب توجد علامات ورسومات متباينة.. تلفت حولي في قلق، قفزت في سيارتي، قدتها إلى شارع هادئ أعرفه.. أوقفتها هناك وأنا أنظر في مرآتي كل دقيقة، جلست أقرأ في لهفة. لم يحرمني المرحوم من صفحات النهاية، أعدتها إلى الصندوق الذي اختاره مكانًا لها، بضعة أيام إلى أن تأكدت أنهم لا يراقبونني، يبدو أنهم وجدوا أننا أتفه من البحث خلفنا، كما قال أشرف في مذكراته.. نحن مجرد بعوض من الجهة الأمنية، أنهيت امتحاناتي وبدأت أكتب.. وضعت فصولًا باسمي في الأجزاء التي تخصني، كان لا بد أن أبدأ بما كتب، وأنتهي بما كتب، سأنشر هذا الكلام يومًا ما، ربما بعد عودتي للاستقرار مع أبي

هناك.. غالبًا سأقبل الوظيفة التي أعدّها لي، الحياة هنا لعبة قذرة.. ليشبعوا بها، أنا راحل.. يبدو أن أبي محظوظ لأنه سيعيش طوال عمره في عالم لا يخصه ولا يعنيه، هذه ميزة أخرى للغربة؛ أن تكون ضيفًا على اللعبة التي تحيط بك، تكسب مع المكسب وترحل مع الخسارة، في آخر صفحة رأيت اسمي ضمن مجموعة من الأسماء الأخرى المكتوبة بقلم أحمر باهت.. شعرت بالغضب، يتهمني أنا بالجبن؟! هو نفسه اعترف أنه أضعف من أن يفعل شيئًا. لا يكفي أن تكون شجاعا يا مرحوم، يجب أن تعرف ما ستفعل وكيف ستفعله وكيف تتم فعلتك.. أنت الخاسر الأكبر في النهاية، وكل من ذكرتهم من الأنذال والخونة والجبناء سيعيشون أفضل منك لأنك لم تكمل ما فعلته ولو لمرة واحدة.

أرحت رأسي إلى مسند المقعد، الصورة تكتمل تماما.. هذه الأوراق توضح كل شيء.. سعيد كان هو الأميز في المجموعة.. لكنه كان الطرف الضعيف الذي يحتمي بالمرحوم ويمشي خلفه، تابع.. غالبا كما قالت له فرحة في هذه الأوراق:

- طول عمرك جبان.

ما أصاب سعيد واضح. عندما أغلقت عليه المقبرة مع المرحوم وسميحة أصابه الرعب، حالة «*Panic attack*» كاملة.. لا بد أن المرحوم حاول أن يهدئه فقتله سعيد بحجر مهشما رأسه، من المعروف أن في هذه الحالات يكون رد فعل المريض عنيفا إذا حاولت تهدئته. بعدها عانى من عَرَضين شهيرين «*depersonalization and derealization*». فقد المرحوم - أقصد سعيد - اتصاله بالواقع. وشعر بما وصفه هو أنه انفصال

عن جسده. كله أعراض نفسية قرأتها في الكتب، لكن لم أتخيلها قبل ذلك. لم أتصور أن أرى إنسانا يؤمن أنه آخر لهذه الدرجة أو يؤمن بأنه رسول.. لم يستطع سعيد أن يواجه نفسه بحقيقة أنه قتل صديق العمر. غالبا رأى من الأفضل أن يموت هو ويبقى المرحوم. لوثة كاملة. في تلك اللحظة ابتسمت. الحكاية اكتملت بحلوها ومرها، أغمضت عينيَّ لأرى أمامي المرحوم وسعيد وسميحة (الذين لم أجد لهم ملامح واضحة في رأسي). سميحة ميتة وهما يتشاجران والمقبرة تغلق والظلام التام يسود والصراخ يعلو وحجر في يد يهشم رأسا فتسيل الدماء ثم يحاول تهشيم الرأس الأخرى فيفشل.. في وسط المقابر وبين الهياكل العظمية وبقايا الجثث التي كان المرحوم يتحدث عنها. تساءلت في استحياء بيني وبين نفسي:

إذا كانت هناك أرواح تلبس أجسادا كما يقولون بالفعل. فهل يوجد في الدنيا موقف مناسب لتحقيق ذلك أكثر من هذا الموقف؟ وهل يمكن أن يكون - تنحنحت وأنا أفكر فيها - كلاهما مات بالحجر؟ لكن روح سعيد غادرت ببساطة. أما روح المرحوم فتشبثت بالجسد الآخر ولبسته وتنقلت بالفعل بين الأجساد لتؤدي مهمة مقدسة أو غير مقدسة.

هنا توقفت ضاحكا. وأنا أكتب تعريفا جديدا: «Bizzare delusinos».. (التوهم اللا منطقي).. وفيه يبدأ المريض في الاقتناع بفرضية غير منطقية مع أن كل الأدلة تقود إلى عكس ذلك!! كأن أقتنع - أنا محمود - أن المرحوم روح حرة في جسد صديقه، وأنه كان يتنقل من جسد إلى آخر ليترك خلفه هذه العلامات، بدأت أكتبها واحدة تلو الأخرى:

الوحدة ـ الزحام ـ الخوف ـ العقدة ـ الجسد ـ العقل ـ الحرام ـ اللسان ـ العادة ـ الطريق ـ الشيخ ـ الرحمة ـ المكسب ـ الملة ـ الدائرة ـ الكفر ـ المولد ـ الضابط ـ الملك ـ الصحفي ـ العلامات.

تأملتها في سكون.. كتبتها على الحائط في غرفتي بقلم أحمر باهت وتأملتها مرة أخرى.. لا أدري لماذا ارتجفت عندما شعرت أن العلامات التي خلفها المرحوم تكاد تجمع كل ما يدور من حولي أنا. لا من حوله هو!!

العلامة الحادية والعشرون

العلامات

في بدايات مقابر طريق الفيوم.. لا أحد هناك، حتى الأموات معظمهم لم يَصِلوا بعد، كانت فرحة نائمة إلى جواري على الملاءة المفروشة على الأرض في المقبرة الخالية من كل شيء، ذهبت إليها عند المعلم إمام وأخذتها دون أن تفهم شيئًا، كنت أعرف أن عباس من أول (قلم) سيقول لهم من أين يبدءون رحلة البحث؛ لذلك كان لا بد أن نختفي سريعا.

كانت فرحة ترتدي قميص نومها العاري وهي تحاول أن تقبلني فأدفعها بعيدًا في رقة، نظرت إليَّ في غضب وإحباط.. نظرت إليها بحب قائلًا:

ـ أنا أحبك يا فرحة.

ابتسمت وهي تقول:

ـ وأنا أكثر..هل لي أحد في الدنيا غيرك؟!

اتسعت ابتسامتي وأنا أقول:

- أعرف أنك تريدينني زوجًا حقيقيًا.. لكن تعرفين شعوري تجاهك، في النهاية أشعر أنك أختي.

قامت غاضبة وهي تصرخ في وجهي:

- لا.. قلت لك مائة مرة.. انس حكاية أني أختك والتخريف الذي تقوله، عفاريت الدنيا تركبني عندما أسمعك تقول هذا الكلام الفارغ.

أجبت بهدوء:

- أختي في الروح.. وزوجتي على الورق.

لطمت وجهها وهي تقول:

- يا لهوي.. يا رجل أفق وكفانا شغل مجانين، أنت لست المرحوم واسمك ليس عبد الحي، عبد الحي هو أخي.. ومات الله يرحمه، وصادق كان يقول إنك قتلته، لو أنك أخي لما تزوجتك، أنت سعيد.

قاطعتها غاضبًا:

- لا يا فرحة.. صادق يكذب، سعيد لم يقتل المرحوم، هو خاف عليَّ وعلى نفسه من الخنقة.. أراد أن يريحني، أنا غادرت وهو غادر.. لكني عدت في جسده وهو لم يعد، سميحة ماتت ميتة ربنا.. وسعيد كان صديق عمري، يكفي أنه ظل إلى جواري في داخل المقبرة ليلة كاملة، روحه هو صعدت إلى السماء وروحي أنا سكنت جسده.. أنا روح أخيكِ بجسد سعيد.

قبّلتني وهي تقول في رجاء:

- طيب يا روح أمك، سعيد.. أفق يا حبيبي، عبد الحي مات، أنتما أردتما أن تدفنا سميحة بدون تصريح.. وصادق أغلق عليكم المقبرة أنتم الثلاثة، أنا فتحتها بنفسي وهو الذي وقف يساعدني متظاهرا أنه لا يعرف.. وجدتك تموت ووجدت عبد الحي ميتًا بالفعل والدماء تسيل من رأسه ورأسك، خرجت أنت بعدها تقول إنك عبد الحي.. وأنا تزوجتك لأنني أعرف أنك سعيد، وأنا من ساوم صادق وجعله يذهب بك إلى الوظيفة التي كان قد أحضرها للمرحوم، هددته بأني سأبلغ عنه وأقول إنه أغلق عليكما المقبرة وقتله، كنت خائفة عليك منه. وأنت رحلت لأنك قلت إنك كرهت الترب.. وقلت إنك مسامحه، أنت كنت أذكى من المرحوم وأحسن منه لكنك كنت جبانًا، حتى الرجل الذي أغلق عليك المقبرة لم تفعل له شيئًا، صادق بعد أن رحلت أنت استخرج جثة عبد الحي وأنهى إجراءات الدفن بمعرفته، ثم استخرج له شهادة تثبت أن وفاته طبيعية لكيلا أهدده مرة أخرى. حاولت أن أشفيك، أقول لك سرًّا؟ أحضرت صبيًّا معي من الترب وأخذنا جثة سميحة ودفناها.. هو كان يعرفك ويعرفها، قلت ربما يكون عفريتها لابسك.. ولا نفع!!

نظرت إليها في عجب، كيف لم ألحظ وأنا أستخرج جثة سميحة أن الجثة الأخرى لم تكن هناك؟! وكيف لم أفكر أن فرحة هي التي أخذت جثة سميحة رغم أنني رأيتها بعينيَّ وهي تفتش في جثث المشرحة؟ كان لا بد أن أفهم، نظرت إليها غاضبًا:

ـ أنتِ يا فرحة.. هانت عليكِ؟

ـ هانت عليك أنت يا سعيد، إكرام الميت دفنه.. أكرمتها بدلًا من إهانتك لها، وقلت ربما تتوقف أنت أيضًا عن تخاريفك.

هززت رأسي رافضًا.. ناولتها الأوراق التي سهرت أستكملها:

ـ ما حدث رسالة.. في النهاية فعلت ما كان مطلوبًا مني، خذي اقرئي.

ابتسمت ابتسامة صفراء، أخذَت الورق وضربَتْ به وجهي:

ـ لا قراءة ولا كتابة، كفاني أنت والمرحوم.. أنا عندما أريد شيئًا أفعله برأسي وبجسمي وأعرف فقط أنك ستذهب إلى حبل المشنقة وأن البلد كلها تبحث عنك، دعني أخرج أبحث عن رزق لنا.. نفسي في لقمة حلوة وعيل يملا علينا الدنيا، يجعلنا نشعر أننا أحياء.. هو الموت فقط هو المكتوب علينا يا ربي.

نظرت إليها بدهشة:

ـ عيل؟!

ضحكت في خجل:

ـ أيوة عيل.. وأنت لا بد أن تصبح رجلًا وتنسى حكاية المرحوم تمامًا يمكن ربنا يرزقنا به، ولا تقل لي بعدها إنك أخي.. أنا لن أقول لابني أبوك يبقى خالك، أفق أم تريد أن تفعل مثلما فعل المرحوم مع أختك سميحة.. وتضيعني كما أضاعها؟!

صِحْت في غضب:

ـ لا تقولي هذا.. أنا لم أضيع سميحة، سميحة ضاعت لأن فوزي أبو النور...

هزت كتفيها في لامبالاة وهي ترتدي ملابسها:

ـ بلا فوزي بلا المرحوم، دعنا نرى حالنا.

جلست إلى جوارها في هدوء:

ـ يا فرحة افهمي. أنا فعلًا عبد الحي.

هزت رأسها في غضب:

ـ دائما كنت تريد أن تصبح عبد الحي، تذاكر معه وتتعلم منه وتقرأ كتبه وتدفنها مثله، نفعته الكتب؟ لا.. مات وتركها خلفه، نفعك أنت العلم؟ لا.. عندما رأيت صاحبك فاشلًا عاش ومات ولم يعرف كيف يخرج من الترب، كان يريد أن يكون مختلفًا لكنه لم يصبح أي شيء، لو قلت لي أنا عبد الحي مرة أخرى سأترك لك المكان وأذهب في أي داهية.. فاهم؟

ابتسَمْت واحتضنتها وأنا أقول:

ـ الجرائد كلها تتحدث عني وعنه.. أنا حققت في جسد سعيد ما لم أحققه في جسدي.

ـ ثاااني!! أقول لك: كن المرحوم.. كن سعيد.. كن عبد الحي، خيبة تأخذكما أنتما الاثنين، المهم أنني لو سمعتك مرة أخرى تقول إنك أخي.. سأقتلك وأجعلك مرحومًا بحق وحقيق.

ابتسمت، قبّلت رأسها في حنان وأنا أجيب:

- خلاص يا فرحة أنا سعيد.

دفعتني بعيدا في غيظ وخرجت من الغرفة.. في تلك اللحظة بالتحديد قررت أن أتغير، هي تريدني سعيد سأخبرها أنني سعيد، ربما يومًا ما أستطيع أن أجامعها بجسده فقط.. ومحمود كان يريد أن يقنعني بأنني لم أرتدِ أيًا من الجثث التي ارتديتها، إذن سأقول له إنني فعلت كل شيء بنفسي.. فلأترك كلًّا منهما يرى ما يراه، يكفيني أنني أعرف الحقيقة، وأعرف أنني أخطأت؛ كان ينبغي عليَّ أن أغير تغيير الأقوياء لا تغيير العجزة، ما الذي حدث في النهاية؟ أفسدت أنا كل شيء.. محروس لص.. محسن سالم محافظ.. الشيخ صادق أصبح شيخ المشايخ والتقى بمحسن سالم ضمن وفد رجال الدين الذين زاروا المحافظة، رأيت صورتهما معًا في واحدة من الجرائد التي تشتريها لي فرحة بعد مشاجرة يومية.. ومحمود هرب مني، وأنا أصبحت مطاردًا من الجميع، حتى فرحة أصبحت تحلم بطفل.. سيكون مستقبله أسود من مستقبلنا، تريد طفلًا من رجل يختلف معها وتختلف معه على اسمه وحكايته.

يجب أن أبدأ رسالتي من جديد، وأبدؤها الآن، في أي جسد، المهم أن أنظف العالم بيدي من حثالته، أنا هذه الروح أيًا كان صاحبها، وأنا هذا الجسد أيًا كان اسمه، ورسالتي معروفة وواضحة.. لا بد أن تختفي هذه الكائنات الخسيسة من الأرض فهم لا يتغيرون ولا ينصلحون.. فقط يتحولون من صورة إلى أخرى.

أمسكت بالحجر ووضعت علامة جديدة على الحائط لأعرف كم

يومًا مرَّ عليَّ دون أن أخرج من هذه المقبرة، اليوم هو اليوم التاسع.. سأعتبر علاماتي الثمانية السابقة كأن لم تكن لأنني كنت جالسًا أحدق في الحائط وأتذكر فقط.. سأمسحها كلها وأبدأ من اليوم؛ لأني سأبدأ حكايتي من اليوم، ككل البشر لا أعرف تحديدًا متى سأتوقف مجبرًا عن الحكي، لكني لم أعد أستطيع أن أجلس ساكنًا في مكاني أكثر من ذلك، الصمت يعلمني الكلام.. والظلام يعلمني الرؤية، فتشوا عن الموتى فيمن حولكم؛ هؤلاء الذين لا يتكلمون حينما يأتي وقت الكلام.. ولا يبحثون بعيونهم المفتوحة عن النور عندما يسود الظلام.. ولا يتحركون مهما توالت على وجوههم الصفعات. لا تحاولوا أن تهبوهم الحياة فهم لن يقبلوا هباتكم، اتركوهم هناك.. لا تدفنوهم في الأرض فتراب الأرض خُلق للحياة لا للموت، لا يستحق تراب الأرض سوى من عاش فوقها حيًّا، حتى هؤلاء.. لا تدفنوهم قبل أن تتأكدوا من أنكم حققتم لهم الأمنية بعد الأخيرة بنجاح. ليس صحيحًا أنَّ من أنجب لم يمتْ؛ الحقيقة أن من فعل لم يمت، الفعل هو الكائن الحيّ الخالد الوحيد الذي يبقى؛ لأنه ينتج أفعالًا عديدة صغيرة وكبيرة في متوالية أبدية. أنا عشت بضعة وعشرين عامًا ولم أعش إلا خمسة أشهر لأني لم أفعل شيئًا سوى في الأشهر الأخيرة التي حققت حياتي وربما عجلت بموتي. بعد مائة عام من الآن لن يبقى منكم واحد على سطح الأرض، صوركم المعلقة على الحوائط ستنزل لا محالة، سيتبعكم كل من أحبكم ولن تجدوا بشرًا ممن يعرفون صوتكم ولا رائحتكم ليحكي عنكم شيئًا، سيبقى فقط ما فعلتم. افعلوا ولا تتكلموا وإذا تكلمتم فلا تتكلموا عن أنفسكم، اخرجوا من أجسادكم وشاهدوا أفعالكم لتجيدوا الحكم على الأمور،

لماذا تحبسون أنفسكم في زاوية أحادية للرؤية؟ انظروا لحياتكم من أعلى.. فهكذا ستتضح لكم الأمور تمامًا. على الحائط علامات للكلام، وفي أوراقي سأضع أسماء من أجل الفعل.. ربما أعرف يومًا ما ما ينبغي عليَّ إنجازه، أمسكت بقلمي وكتبت على الهامش.. فتناثرت الكلمات بالخط الأحمر:

نفاق - خيانة - شر - جهل - خسة - جبن - طمع...

مرتضى بدوي الصحفي - اللواء محسن سليمان - جورج عزيز - الشيخ صادق - فؤاد أمين الشرطة - محمود سلمان - تريزا وخليل....

أما عبد الحي حنفي الشهير بالمرحوم في أي جسد.. فهو ضعيف أفسد في النهاية كل شيء.. ليته كان قويًا بما يكفي.. ليفعل.

المرحوم

«لا يزال الكاتب الموهوب حسن كمال يواصل مشروعه الأدبي المتميز. بعد مجموعاته القصصية الجيدة، يخرج علينا بهذه الرواية الجميلة. استفاد الكاتب في روايته من خبرته كطبيب، واختار للرواية فكرة جديدة مدهشة عبّر عنها بأسلوبه الرائع الممتع.

هذه رواية تستحق القراءة وتشكل خطوة واسعة في طريق حسن كمال إلى مصافّ الكُتّاب الكبار».

علاء الأسواني

كيف يصبح عالم الأموات هو العالم الذي يعيشه ويتحرك فيه شخص ما؟ وما الأفكار التي قد تسيطر عليه عندما تكون الجثث هي كل ما يحيط به طوال الوقت؟ هل الاقتراب من الموت سيؤدي به إلى الحكمة، أم إلى الرؤية، أم إلى الجنون؟ وما الحقائق التي سيكتشفها عن الحياة التي نعيشها عندما ينظر إليها من وجهة نظر خاصة جدا وجهة نظر المرحوم؟



حسن كمال: تخرج في كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٩٩، ثم حصل منها على الماجستير والدكتوراه في أمراض الروماتيزم والتأهيل. يعمل طبيبا في المركز القومي للبحوث.. أصدر ثلاث مجموعات قصصية: «كشري مصر»، «لدغات عقارب الساعة»، «وكان فرعون طيبا».. حصل على جائزة ساقية الصاوي في القصة ثلاث مرات متتالية ثم على جائزة ساويرس في الأدب عن مجموعته الأولى «كشري مصر». وهذه هي أولى رواياته.

دار الشروق
www.shorouk.com
9 789770 932445